
روايات
عالمية
للفتيان
لاسي
اريك نايت
ترجمة: شفيق مهدي

لاسي

تأليف: اريك نايت

ترجمة: شفيق مهدي



لاسي

تأليف : اريك نايت

ترجمة : شفيق مهدي

الطبعة العربية الاولى ١٩٨٨

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام. دار ثقافة الاطفال
ص.ب ٨٠٤١ بغداد ـ العراق

سلسلة روايات عالمية للفتيان
تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة: فاروق يوسف

الاهداء

الى الدكتور «هاري جاريت»
الرجل الذي يعرف ماهو الكلب

لاسي

الفصل الأول



ليست للبيع

كل فرد في «غـرينـول بريـدج» يعـرف «لاسي» العائدة لـ «سام كاراكلوف». وفي الحقيقـة، يمكنـك ان تقول، انها اشهر كلبة معروفة في القرية، وذلك لثلاثة أسباب.

أولاً، لأن كل شخص في القـريـة، موافق على انها اجمل كلبة من نوع الكولي وقعت عليها عيناه.

لقد كان ذلك اطراء حقاً، لأن «غرينول بريدج»، تابعة لمقاطعة «يوركشاير». ومن دون كل الاماكن في العالم، يعد الكلب هنا

في غايــة الأهميــة . . في ذلــك المكــان المنعــزل من شمــالي انكلتــرة، يعيش الكلب ليس كمــا يعيش في أي مكــان آخــر فالــريح والمطر البارد الذي يكتسح تلك المستنقعات الممتدة، يجعــل للكلاب شعراً كثاً، كما يجعلها قوية صلبة، مثل الناس الذين يعيشون هناك.

إن الناس يحبون الكلاب، وهم ماهرون في تربيتها وتستطيع أن تذهب الى ايــة قريــة من قرى منــاجم المعادن المائة الصغيرة، في اكبــر مقــاطعات انكلترة هذه، لتشاهد كلاباً تسير في اعقاب عمــال يلبســون بدلات العمل، من سلالات ممتازة، يحسدهم عليها المولعون بالكلاب الثمينة، في بقية انحاء العالم.

وكــانت «غــرينــول بريــدج» مثــل بقية قرى «يوركشاير». رجالها يفهمــون ويــدرســون ويحبــون الكــلاب، وكــانت هنــاك اعداد متكاملة، تسير بكل طواعية مع الإنسان، لكنهم جميعاً يتفقون على أنــه لو كان هنــاك كلب اجمــل من كولي «كاراكلوف» ذات الالــوان الثــلاثــة التي ولــدت في «غريندل بريدج»، فحتماً كان قبل ان يولدوا.

ولكن كان هناك سبب آخر، في شهرة «لاسي» في القرية. لأنه كما تقول النساء: «إنك تستطيع أن تضبط وقت ساعتك عليها.»

لقد بدأ ذلك منذ عدة سنوات، عندما كانت «لاسي» رضيعاً ذكياً نزقــاً. ففي يوم من الايــام، بينمــا كان «جــو»، وهــو ابن «ســام كاراكلوف» عائداً الى البيت وهو مدهوش قال:

«أمي! عندما خرجت من المدرسة هذا اليوم، أتعلمين من كان ينتظرني جالساً هناك؟ من كما تظنين؟ «لاسي»! والآن، كيف تعتقدين أنها عرفت أين كنت؟»

- «لقد التقطت رائحتك حتماً يا «جو». هذا كل ما استطيع أن أقوله.»

وأياً كان السبب، فإن «لاسي» كانت تنتظر في باب المدرسة، اليوم التالي، والذي بعده. ثم الاسابيع والاشهر والسنين التي مرت.. حيث يتكرر الشيء نفسه.

النساء المحدقات من خلال نوافذ أكواخهن، أو اصحاب المحلات الذين يقفون في الابواب في شارع «هايه»، يرون الكلب الفخور بالوانه الاسود والابيض والذهبي القاتم، وهو يسير بخبب ثابت، وسيقولون:

- «إنها حتماً الساعة الرابعة إلّا خمس دقائق إذن هي «لاسي»!»

وسواء كان الجو ممطراً أم صحواً، فإن الكلبة كانت هناك دوماً، في انتظار الولد، حيث تلتقيه في لحظة سعادة، ثم يعودان سوية، الولد والكلبة، الى البيت. لأربع سنوات، كان الشيء نفسه يتكرر.

كانت «لاسي» شخصاً محبوباً في حياة القرية اليومية. كل واحد كان يعرفها، تقريباً. ولكن إعظم الاسباب، في فخر سكان «غرينول بريدج» بـ «لاسي» أنها كانت تقف لشيء لم يقدروا على شرحه بسهولة. إنه شيء يتعلق بترفعهم. وهذا الترفع يتعلق بالمال.

فعندما يربي رجل كلباً، بصورة عامة، فإنه يوماً ما لن يعود كلباً، بل سيصبح شيئا ذا اربعة اقدام، يساوى مبلغاً من المال. إنه مايزال كلباً، بالطبع، غير إنه شيء آخر، اذ ربما سيسمع عنه شخص ثري أو بائع همام، أو ربما مربي كلاب حيث سيشاهده احدهم فتجدوه الرغبة لشرائه.

وقد يحب رجل ثري كلباً، بنفس صدق حبّ رجل فقير. ولا فرق بينهما في هذا اللهم إلاّ في طريق الحصول على نقود؛ فالفقير يجلس ويفكر كم سيحتاج فحماً لذلك الشتاء، وكم هو عدد ازواج الاحذية الضرورية، وكم يحتاج من الطعام، ليحافظ على قوة اطفاله ـ وعندها سيذهب الى البيت ويقول:

ـ «والآن، سأفعل ذلك، فلا يزعجني أحد! سنربي كلباً آخر، يوما ما، وستحبونه جميعاً، كما احببتم هذا.»

بتلك الطريقة، كانت كلاب رفيعة تذهب من البيوت، ولكن ليست «لاسي» وهذا ما تعرفه كل القرية حتى دوق «رودلنك» أليس بقادر على شراء «لاسي» من «سام كاراكلوف» الذي كان ثابتاً على رأيه.

ـ «لافائدة من رفع سعرك ثانية، ياصاحب السعادة،»

كان يقول.

ـ «إنها فقط ـ حسن، انها ليست للبيع، وفي أي سعر.»

القرية كلها تعرف ذلك وهم يعرفون ما كانت تعنيه «لاسي» لهمُ فلقد كانت تمثل نوعاً من الفخر في أن النقود لاتستطيع أخذها منهم.

ولكن، الـرجـال كانـوا يملكـون الكلاب، وكان القدر يكرههم على شيء. وفي بعض الاحيان يحل زمن في حياة الرجل حيث يقهـره القـدر، ويجعله يحني راسـه، ويقـرر: أن عليه أن يأكل فخره، حتى تستطيع عائلته أن تاكل خبزاً.

الفصل الثاني



لا أريد كلبا اخر أبدا

الكلبة لم تكن هناك! هذا كل ما عرفه «جوكاراكلوف .»
في ذلك اليوم، خرج من المدرسة، مع الباقين، وراح يجري في الساحة في سعادة متدفقة، نراها في كل المدارس، في أرجاء العالم، عندما تنتهي الدروس في ذلك اليوم. . . وبصورة آلية تقريباً، ومن خلال عادة متأصلة لمئات من الايام، فقد ذهب الى الباب، حيث كانت «لاسي» تنتظر دوماً. ولكنها لم تكن هناك!

توقف «جوكاراكلوف» وانه لولد قوي مبتهج الوجه، وراح يحاول ايجاد تعليل لذلك. فجبهته العريضة التي تعلو عينيه العسليتين قد تجعدت. في البدء، وجد نفسه غيرٍ قادر على معرفة ما يمكن ان تخبره به حواسه، أيكون صحيحاً؟
نظر الى شمال وجنوب الشارع. ربما كانت «لاسي» متأخرة! إنه يعرف أن ذلك لايمكن أن يكون سبباً، عل الرغم من أن الحيوانات ليست مثل البشر فللبشر ساعات معصمية، وساعات جدران، ورغم ذلك فإنهم يجدون انفسهم دائماً «خمس دقائق متخلفين عن الوقت» اما الحيوانات فلا تحتاج الى آلة لتخبرهم عن الوقت اذ يوجد شيء في داخلها أكثر دقة من الساعات. إنها «حاسة الوقت»، وهي لا تخذلها، أبداً. إنها تعرف، بحق وحقيق، تقسيم اليوم، بحسب متطلبات الحياة اليومية.
وإن «جو كاراكلوف» يعرف ذلك. فهو يتحدث بشأنه غالباً، مع والده، سائلاً إياه كيف يتسنى لـ «لاسي» أن تعرف أنه حان الوقت للذهاب الى باب المدرسة، ولا يمكن أن تتأخر عن ذلك»
وقف «جو كاراكلوف» تحت اشعة شمس ذلك الصيف المبكر، مفكراً في هذا. وفجأة ومضت في ذهنه فكرة.
ـ ربما تكون قد تاهت!
وعلى الرغم من أن هذه الفكرة سببت له ألماً، فإنه نبذها. إن «لاسي» مدربة تدريباً جيداً، لتسير في الشوارع كما يحلو لها. وكانت تتحرك بزهو وباطمئنان بمحاذاة أرصفة. الشوارع، في

القرية. ثم انه لم تكن في القرية سوى شوارع قليلة وان طريق السيارات الوحيد الذي يحاذي الوادي، من جهة النهر، يبعد مسافة ميل وهو طريق صغير واحد ليس غيره يصعد الى القرية، وقد اصبح ممر مشاة ضيقا، بعد فترة طويلة. عندما يصل الى ارض المستنقع العريضة.
ربما أحدهم قد سرق «لاسي»!
وهذا ما يصعب تحقيقه اذ لا يستطيع أي غريب آن يضع يده على «لاسي»، ما لم يكن أحد من عائلة «كاراكلوف» هناك بالاضافة الى ذلك. فانها كانت معروفة على مبعدة عدة ايام جوار «كرينول بريدج»، فلا يجرؤ أحد على سرقتها.
أين يمكن آن تكون إذن؟
حاول جو كاراكلوف» حل مشكلته، كما يفعل مئات الالوف من الاولاد. في حل مشاكلهم، في انحاء العالم. لقد ذهب الى البيت ليخبر أمه.
ذهب يجري في الشارع الرئيس، بأقصى ما يستطيع من سرعة. ومن غير توقف ماراً بمحلات شارع «هايه»، عبر القرية، الى الممر الضيق الصغير، الذاهب الى سفح التل، ثم الى أعلى الممر الضيق وعبر الباب ثم بمحاذاة ممر الحديقة، ومن عبر باب الكوخ ليصبح عالياً:
- «أمي! أمي - شيء ما قد حدث ل «لاسي»! إنها لم تكن تنتظرني!»
لم يثب أحد من الكوخ ويسأله عما حدث. وحالما انتهى من

ذلك، عرف «جو كاراكلوف» أن شيئاً ما غير صحيح قد حدث. ولا يبدو أن احداً قد خاف من مكروه قد حدث لكلبهم الممتاز. لاحظ «جو» ذلك حيث وقف وظهره على الباب، منتظراً بينما وقفت امه، وقد اطرقت نحو المنضدة، حيث كانت تهيء الشاي. ظلت صامتة لبرهة. ثم نظرت الى زوجها. كان والد «جو» يجلس على كرسي خفيض، من غير مسندين، بالقرب من النار فأدار راسه نحو ابنه. وببطء، ومن غير أن ينبس ببنت شفه، استدار ثانية نحو النار، وحدق فيها بتركيز.

- «ماذا ياأمي؟»

صرخ «جو» فجأة.

- «ماذا يجري؟»

وعندها وضعت السيدة «كاراكلوف» صحناً على المنضدة، ببطء، ثم قالت:

- «حسن.. ليخبره أحد.»

لم يُبدِ زوجها أي حركة فأدارت وجهها نحو ابنها، ثم قالت:

- «عليك أن تعرف ذلك فوراً. لن تنتظرك «لاسي» في المدرسة، بعد الآن. وليست هناك أدنى فائدة من صراخك عليها.»

- «لماذا؟ ماذا حدث لها؟»

ذهبت السيدة «كاراكلوف» الى الموقد، ووضعت ابريق الماء فوقه. وقالت من غير أن تستدير:

- «لأنها قد بيعت.. ذلك هو السبب.»

- «بيعت؟»
كرر الولد، بصوت عالٍ.
- «بيعت؟ لأي شيء بعتم «لاسي» - لأي شيء بعتموها؟»
فاستدارت أمه غاضبة.
- «إنها الآن قد بيعت، وذهبت، وانتهى كل شيء. فلا تسل أية أسئلة أخرى لأنك لن تغير من الامر شيئا. لقد ذهبت، وهذا كل مافي الامر، ولننهِ الكلام عنها.»
- «ولكن ياأماه. . . .»
صرخة من الولد انطلقت، عالية مرتبكة. فاعترضته أمه.
- «يكفي هذا الآن! تعال واشرب شايك. تعال. اجلس!»
وبكل طاعة ذهب الولد الى مكانه، حول المنضدة بينما استدارت المرأة نحو الرجل الجالس قبالة الموقد.
- «تعال يا «سام»، وكل. على الرغم من أن الله يعرف أنه طعام فقير يعرض لتناوله مع الشاي. .»
هدأت المرأة، عندما نهض زوجها بحزن غاضب. ثم، من غير أن يتفوه بكلمة واحدة، سار نحو الباب، والتقط قبعته من المشجب، وخرج. . صفقت الباب خلفه، وبعد لحظة، كان الكوخ يلفه الصمت، فارتفع صوت المرأة بنبرة موبخة.
- «والأن، انظر مافعلت! اغضبت والدك. ويبدو أنك سعيد الآن!»

جلست بضجر على كرسيها، وحدقت في المائدة بينما ظل الكوخ صامتاً فترة طويلة. كان «جو» يعرف أنه لم يكن عدلاً من

امـه ان تلومـه لمـا حدث . بيـد أنـه كان يعرف أن أمه . . كانت تخفي عذابهـا الخـاص . وكـان هذا الشيء نفسـه ، يشبـه توبيخها ، تماماً وتلك كانت الطريقة المتبعة بين الناس في تلك المنـاطق فقـد كانـوا خشنين ، عنيـدين ، اعتـادوا على العيش الخشن والحياة الصعبة . وعندما يحدث شيء يمس عواطفهم ، فإنهم كانـوا يكتمـون مشـاعـرهم وكانت النسوة يوبخن ويهذرن ليخفين آلامهن . لم يكـونـوا يقصـدون شيئـاً بذلك فعندما كان ينتهي ذلك . . . تقول

ـ «تعال يا «جو» . كل!»

إن صوت امه ناعم وصبور.

حدق الولد في إنائه ، من غير أن يتحرك .

ـ «تعـال يا «جـو» . كل خبزك والزبد . انظر، خبز طري وشهي . خبزته اليوم . ألا ترغب في تناوله؟»

خفض الولد رأسه الى اسفل وقال في همس .

ـ «لاأريد شيئا . »

ـ «أوه ، كلاب ، كلاب ، كلاب ، »

قالت امه في غضب مفاجيء ثم علا صوتها في غضب ، ثانية .

ـ «كـل هذه المشـاكـل بسبب كلب واحد . حسن . لو سألتني ، فسأقول لك انني سعيدة بذهاب «لاسي» . وهكذا انا انها تسبب ازعـاجـاً بسبب العنـايـة بهـا كمـا يسببه طفل! والآن ، فإنها قد ذهبت ، وانتهى كل شيء ، وأنا سعيدة ـ أنا . أنا سعيدة!»

نفضت السيـدة «كـاراكلوف» جسمها الممتليء ، وتنهدت .

ثم أخـذت منـديلها من جيب مئزرها، ومخطت. واخيرا نظرت الى ابنها، الذي مازال جالساً، لايتحرك. حركت رأسها بحزن وتكلمت. وعاد صوتها مرة أخرى شفوقاً وحنوناً، وقالت:

ـ «جو»، تعال هنا.»

نهض الـولـد، ووقف قبـالـة أمه فوضعت ذراعها الممتلئة حوله وقالت، ورأسها باتجاه النار:

ـ «انظـر يا «جـو»، انت الان ستنمـو وتصبح كبيراً، وتستطيع أن تفهم. كمـا ترى. . حسن، أنت تعـرف أن الامـور ليست على مايـرام، هذه الايـام. أنت تدركهـا إذ علينا أن نضع طعاماً فوق المائدة. وعلينا أن ندفع ايجارنا ـ وكانت «لاسي» تساوي مبلغاً كبيراً من المال و ـ حسن، ولم يكن باستطاعتنا تحمل اعبائها، هذا كل مافي الامر. والآن، إنها اوقات بائسة.

ويجب عليك ألا تؤذي والدك. لأن عنده ما يكفي من القلاقل و... حسن. ذلك كل شيء. لقد ذهبت.»

وقف الصبي «جو كاراكلوف» بجانب امه في الكوخ. إنه لايفهم ولعلهـا تريـد منـه وهـو ولـد في الثـانية عشرة من عمره أن يعرف ماهي اوقات البؤس.

فلعدة سنوات، وبقدر ما يستطيع الاطفال تذكرها، كان آباؤهم يعملون في «ولنكتـون» خلف القـريـة حيث كانوا يذهبون بين الفينـة والفينـة طلباً للرزق، يحملون صناديقهم ومصابيحهم. وكـانـوا يعملون ليستخـرجـوا الفحم الثمين. ثم تصبـح الايـام «بـائسـة»، ويحـل الـركـود، ويقل ما يحصل عليه الرجال. ثم

يزدهـر العمـل، ويعمل الرجال ليل نهار، حتى تعم السعادة كل واحـد. لم يكن ذلـك يعني حيـاة رخـاء. إذ إن في القـرى المعتمـدة على منـاجم الفحم، يعيش النـاس حيـاة صعبـة في احسن الاحوال. غير أنها كانت حياة شجاعة وقد حافظت على وحدة العائلة، في الأقل.

وقبـل اشهـر قليلة، اغلقت المنـاجم، سويـة، فتـوقفت عجلة العمـل الكبيـرة ولم تعـد تدور. ولم يعـد الرجال يتدفقون على سـاحـات المنـاجم، لتغييـر وجبـة العمل. وبدلاً من ذلك وقعوا على تبـادل العمـل ووقفـوا في وزاويـةٍ انتظـاراً لعمل. لكن بلا جدوى. ويبـدو أنهم كانـوا في الحـالـة التي اسمتهـا الجـرائـد «المنـاطق المصـابـة» وهي امـاكن من البـلاد اختفت منهـا الصناعة. كانت كل القرى من غير عمل. لم تكن هناك وسيلة للحصول على لقمة العيش وقد منحت الحكومة الناس «اعانة» ـ وهي مقدار من المال يدفع اسبوعياً ـ كي يستطيعوا البقاء على قيد الحياة.

إن «جـو» يعـرف هذا فكـان يسمع الناس يتحدثون في القرية. وكـان يشـاهـد الناس في وقت تبادل العمل كما عرف أن اباه لم يعد يذهب الى العمل وعرف ايضاً أن اباه وامه لم يتحدثا بذلك امامه ـ ولم يريدا اشغاله هو أيضاً.

وعلى الـرغم من أن عقله قد اخبـره بهـذه الاشيـاء، فان قلبه ما يزال يصـرخ طالبـاً «لاسي» غير أنه اسكته إلا أنه وقف بثبات ثم سأل سؤالاً واحداً:

ـ «هل نستطيع ارجاعها، يوماً ما، ياأمي؟»
ـ «والآن يا «جو» لقد كانت كلبة ثمينة جداً تساوي مبلغاً كبيراً من المال لنا. غير أننا سنحصل على كلب آخر يوماً ما. انتظر. قد يتحسن الزمن، وسنحصل على جرو آخر. ألا تحب ذلك؟»
أحنى «جو كاراكلوف» راسه، وهزه ببطء. كان صوته مجرد همس.
ـ «لا اريد ابداً كلباً آخر. أبداً! اريد ـ «لاسي» ليس غيرها!»

الفصل الثالث



عجوز شرير

وقف دوق «رودلنك» بجانب سياج من شجيرات الورد، وحملق فيه. ورفع صوته ثانية.

«هاينز!»

ثم زمجر..

«هاينز! اين ذهب ذلك الفتى؟ «هاينز»!»

في تلك اللحظة، بوجهه الاحمر، وشعره الكث الاشيب، غير المصفف، كان الدوق يبوح بما يجب أن يكون عليه: العجوز

صاحب اسوأ مزاج في دوائر «يوركشاير» الادارية الثلاث.
وســواء كان يستحق هذه السمعــة ام لا، فإن الامــر كان يبـدو مقنعاً، إن اقواله وافعاله تجعله يستأهلها.
وربمـا كان يعـود ذلـك جزئياً الى حقيقة صممه. هذا الصمم الـذي جعله يتحـدث الى كل شخص وكأنـه كان يصدر الاوامر الى لواء مشـاة في اثنـاء استعـراض، كما كان يفعل ذلك فعلاً، قبـل سنـوات عديـدة. وكـانت له عادة ايضـاً، وهي حمل عصاً كبيـرة من شجـرة برقـوق السياج... والتي كان يهزها دائماً في الهـراء، ليعطي توكيـداً على كلمـاتـه التي هي مشـددة أصلاً.
وبالتالي كان مزاجه السيء يأتي من نفاد صبره مع العالم.
لقـد كان للدوق اعتقـاد راسـخ واحـد، يقـول ويقسم: إن هذا العالم، كان منتهاه، «إلى القدر». ولاشيء جيد في هذه الايام مثلما كان عليه عندما كان فتياً. فالخيل لا تعدو سريعاً والشباب لم يكن شجـاعـاً وجـريئاً، والنساء لـم يكن بمثل هذا الجمال، والزهور لم تكن تنمو بصورة جيدة، وهكذا بالنسبة للكلاب. ولو كانت انواع حسنة منها قد بقيت في العالم، فإنها في أوجرتها.
حتى الناس لا يستطيعون التكلم باللغة التي يتكلم بها الملك، في هذه الايام، كما كانوا يفعلون عندما كان شاباً، هذا بالنسبة للدوق. لقد كان ثابتاً على رأي مفاده أنه لايسمع كما ينبغي له، ليس بسبب صممـه؛ بل لأن النـاس في هذه الايام انخرطوا في عادة سيئة، وهي أنهم يهمهمون ويغمغمون كلماتهم ويبترونها، بدلاً من أن يتفوهوا بها بوضوح، كما كانوا يفعلون، عندما كان

شاباً.
واما بالنسبة للجيل الأصغر! فلقد كان الدوق ـ وغالباً ماكان يفعل ـ يحاضر لمدة ساعات عن عدم الفائدة في كل شخص ولد في القرن العشرين.
والشيء الأخير هذا كان غريباً، لأن الشخص الوحيد، بين اقاربه، الذي كان لا يقوى عليه، وهو أصغر افراد عائلته هي حفيدته البالغة من العمر الثانية عشرة: لقد كانت «بريسيلا» التي جاءت لنجدته الآن، عندما توقف وراح يحرك عصاه ويصيح، بجانب سياج شجيرات الورد.
وبعد ان تفادت وراوغت حفيف عصاه، وصلت اليه، وسحبت جيب سترته. . فاستدار فبان شاربه الغليظ. . وزمجر:
ـ «آه. . إنه أنت! إنه شيء رائع أن يحضر شخص أخيراً. لا تعرفين ما سيقدم عليه العالم، ان الخدم سيئون وان كل شخص اصم، عن سماع أي مطلب
ـ «هراء!»
صاحت «بريسيلا»
كانت متميزة بضبط النفس، حقاً، وكأنها سيدة صغيرة، فعلاً. وبسبب صلتها المستمرة مع جدها، فإنها قد ترعرعت وهي تعدّ نفسها على قدم المساواة معه؛ اما كطفلين كبيرين، أو بالغين صغيرين جداً.
ـ «ماذا حدث؟»
زمجر الدوق، وهو ينظر اليها.

- «تكلمي ! لا تهمسي !»
سحبت «بـريسيـلا» رأسه الى اسفل، كي تستطيع التحدث في اذنه، بصورة مباشرة.
- «أنا قلت هراء!»، ».
صاحت.
زمجر الدوق.
حدق فيهـا، ثم انطلق في ضحكـة مدوية. لقد كانت له طريقة غريبـة في تعليـل ما يبـدر من «بـريسيـلا» وكـان مقتنعـاً أن لـ «بريسيلا» الشجاعة الكافية لتجيبه وربما ورثت ذلك عنه.
لذلك شعر الدوق بتحسن حاله، عندما نظر الى حفيدته وتباهى بشـاربـه الطـويـل الأشيب والـذي كان اضخم واجمـل أنـواع الشوارب التي أعتاد الرجال على تربيتها هذه الأيام
- «آه.. انا فرح بتحولك..»
قال الدوق..
- «اريدك أن تري كلباً جديداً. إنها مذهلة جميلة! اجمل كولي وقعت عليها عيناي!»
- «إنهـا ليست جيـدة مثـل تلك الكـلاب التي عاشت في الايام القديمة.. أليس كذلك؟»
سألت «بريسيلا».
- «لا تهمهمي.»
زمجر الدوق.
- «لا أسمع كلمة مما تقولين.»

لقد سمع ما قالته، تماماً، غير انه قرر تجاهله.
- «عرفت أُنني قد حصلت عليها.»
واصل الدوق حديثه.
- «كنت وراءها منذ ثلاث سنوات.»
- «ثلاث سنوات!»
رددت «بريسيلا». كانت تعرف أَن ذلك ما يريد جدها أَن تقوله.
- «نعم، ثلاث سنوات. آه، لقد ظن أنه سيحصل مني على افضل سعر، لكنه لم يحقق ذلك. اعطيته عشرة باونات، ثمنا لها، قبل ثلاث سنوات، لكنه لم يبع وبعد سنة، رفعت السعر الى اثني عشر باوناً، لكنه لم يبع. وفي السنة الاخيرة أُعطيته خمسة عشر وقلت له إن هذا اقصى ما سأُدفعه. وكنت اقصد ما اقول، ايضاً، لكنه لم يفكر بالبيع. وبعد ستة اشهر، ارسل الى يقول إنه سيبيع.»
ظهر الدوق وهو مغتبط فخور بنفسه، غير أن «بريسيلا» هزت راسها.
- «كيف تعرف أنها ليست ذات عيوب مخفية؟»
كان ذلك السؤال طبيعياً ليطرح، إذ يجب أن تقال الحقيقة. إن رجال «يوركشاير» ليسوا على معرفة بتربية الكلاب قط، بل انهم يدعون احياناً مدى معرفتهم. انهم غالباً ما يبتكرون فنوناً سرية ملتوية، في اخفاء عيوب الكلاب. فلربما يعالجون اذناً معقوفة، او ذيلاً ذا عيوب، حتى يصبح هذا العيب ضئيلاً لا يدرك، فيشتريه البائع، ولا يكتشف العيب إلا بعد فترة طويلة،

عنـدمـا يرجع الى بيته . . بالرغم من وجود القاعدة غيز المكتوبة والتي تقـول : «أنت تشتـري على مسؤوليتـك» . . دع المشتري يحذر. غير أن الدوق زمجر بصوت اعلى عندما سمع سؤال «بريسيلا» .

ـ «كـيـف اعــرف أنهـا ليست ذات عيـوب؟ لأنني رجـل من «يـوركشـايـر» ، ايضـاً . اعـرف من الحيـل الكثيـرة ، بقـدرما يعرفون . . بل اعرف اكثر منهم قليلاً . . وأنا اتعهد بذلك . انها كلب قويم . اضـافـة الى ذلـك إنني ابتعتهـا من الذي اسمه . . «كاراكلوف» . اعرفه بصورة حسنة . لا يجرؤ على فعل أي شيء لي من قبيل ذلك . حقاً لا يستطيع ذلك! »

ثم هز الـدوق عصـاه الضخمـة في الهـواء ، وكأنـه يتحـدى أي شخص يحـاول أن يكـون شجـاعاً ويحتال عليه . ذهب الرجل العجـوز مع حفيـدتـه الطفلة الى الطريق ، نحو وجار الكلاب . وهنـاك من وراء الاشـراك السلكيـة . وقفـا وراحـا ينظـران الى الكـلاب في الـداخـل مضطجعة هناك شاهدت «بريسيلا» كلباً عظيمـاً ، بالـوانـه الاسـود والابيض والـذهبي الغـامق ، من نوع الكـولي . كانت مضطجعـة وقـد وضعت راسهـا بين مخـالبهـا الأمامية ، راس فاحم الاسوداد ، يوضحه البياض الثلجي للطوق والبطن .

فأدلـع الـدوق لسـانه ، إشارة للكلبة . لكنها لم تستجب . كانت هناك ضربة خفيفة من الاذن ، دلالة على أن الكلب قد سمع . اضطجعت هنـاك ، لا تتحـول عينـاه باتجـاه الناس الذين وقفوا

ينظرون اليها .
انحنت «بريسيلا» الى الاسفل وصاحت بسرعة، وهي تصفق بيديها :
- «تعالي ايتها الكولي! تعالي الى هنا! تعالي وشاهديني! تعالي!»
لبرهة واحدة، استدارت عينا الكولي الكبيرتان العسليتان نحو الفتاة. . كانت العينان تبدوان مليئتين بالكآبة. والحزن. ثم استدارتا ثانية الى مجرد تحديق في فراغ.
نهضت «بريسيلا».
- «إنها لا تبدو في حالة حسنة، ياجدي!»
- «هراء»
زمجر الدوق :
- «لاشيء بها. «هاينز!» «هاينز!» اين يختبيء ذلك الشخص؟ «هاينز!»
- «أنا قادم ياسيدي، قادم!»
جاء صوت مربي الكلاب النافر الحاد من خلف البنايات، وفي لحظة بدأ للعيان.
- «نعم، ياسيدي! هل ناديتني، ياسيدي؟»
- «بالطبع، بالطبع. هل أنت اصم؟ «هاينز»، ماذا حل بالكلبة؟ تبدو منحرفة الصحة.»
- «حسن، ياسيدي. إنها لم تطعم جيداً.»
اسرع مربي الكلاب، يشرح الامر.

ـ «إنهـا مدللة. لقـد دللوهـا في كوخهم. غيـر أنني أرى أنهـا ستتغلب على ذلك وستقوم بتناول طعام الوجار في ايام قليلة، ياسيدي.»

ـ «حسن، اعتنِ بها يا «هاينز».

صاح الدوق

ـ «اعتنِ بتلك الكلبة بصورة جيدة!»

ـ «نعم ياسيدي، سافعل ذلك، ياسيدي.»

اجاب «هاينز» باطاعة.

ثم ذهب الـدوق وهـو يتمتم، ويحكّ خلف اذنه. لقد كان يشعر بالخيبة، نوعا ما. لأنه اراد ان تشاهد «بريسيلا» الكلب الجميل الجديد الذي اشتراه. وبدلاً من ذلك، بدت كلبة مزدرية.

سمعها تقول:

ـ «ماذا قلت؟»

رفعت راسها.

ـ «قلت، لماذا باعك الرجل كلبه؟»

توقف الرجل للحظة، وهو يحكّ خلف اذنه.

ـ «حسن، إنـه يعـرف أنني وصلت الى اقصى حد أدفعـه، كما افتـرض وكمـا، اخبـرتـه أنني لن ادفـع بنسـاً آخر ـ وافترض أنه استنتج اخيراً أنني اعني ما اقول. هذا كل ما في الامر.»

وعنـدمـا عادا سوية الى البيت القديم الكبير، اتجه «هاينز» نحو الكلبة، وقال.

ـ «سأشاهدك وأنت تأكلين قبل أن اذهب. إنك ستأكلين أو ادفع

الطعام في حنجرتك . »
لم تنمّ عن الكلبة أية حركة للإجابة . بل انها اطرقت براسها ، وكأنها تتجاهل الرجل الذي يقف في الجانب الآخر من الشرك . وعندما ذهب ، اضطجعت ساكنة . تحت اشعة الشمس ، حتى استطال الظل . ثم نهضت بتثاقل . رفعت راسها لتشم النسيم ، وقد نشجت نشيجاً خفيفاً ، وكأنها لم تعرف كيف تؤول ما يعتمل في داخلها من رغبة . بدأت تخفر الشرك ، بالذهاب والاياب . . جئية وذهاباً .

كانت كلبة لا تفكر بلغة الافكار ، مثل التي نصوغها في كلمات . كان في فكرها وفي جسمها رغبة متزايدة ، كانت منذ بدايتها غامضة ، غير ان الرغبة سرعان ما راحت تتوضح ، وتتجلى أكثر فأكثر وان حاسة الوقت فيها اندفعت نحو دماغها وعضلاتها ، وفجأة عرفت لاسي ما تريد . انها الآن تعرف .

الفصل الرابع



لاسي تعود للبيت ثانية

عندما خرج «جوكاراكلوف» من المدرسة، وسار من خلال الباب، لم يصدق عينيه. وقف للحظة، ثم رن صوته بحشرجة:

ـ «لاسي»! «لاسي!»

ركض نحو كلبه، وفي لحظة فرحه الوحشي انحنى بجانبها، ودس اصابعه في عمق شعرها الكث.

ودفن وجهه في عرفها ومسح جانبيها.

ثم وقف ثانية، ورقص من الإثارة. كان هناك تناقض غريب بين الولد والكلب. فلقد طار الولد، اما الكلبة فظلت هادئة. حركة شعرات ذيلها العليا كانت تقول انها سعيدة لرؤيته. انها كما لو كانت تقول:

ـ «ماالذي يبهجك؟ من المفروض ان اكون هنا، وانا هنا فما العجب في هذا؟»

ـ «تعالي يا «لاسي»، »

قال الولد.

استدار وركض في الشارع. وللحظة لم يجد تأويلاً لسبب وجودها هنا. وعندما صدمه هذا الاستغراب، فانه دفعه بعيداً. لماذا يتساءل عن العجب فيما حدث؟ يكفي انه قد حدث. غير ان فكره لم يخلد للراحة. فهدأه ثانية.

هل اشترى ابوه الكلبة مرة ثانية؟ ربما كان ذلك!

انطلق يجري في شارع «هايه» وبدت «لاسي» الآن وهي تحاول الامساك بحماسه. ركضت بجانبه، تثب عالياً في الهواء، تنبح ذلك الصراخ الحاد، صراخ السعادة الذي تقوم به الكلاب غالباً. فغرت فاها على نحوواسع، كما تفعل الكولي في لحظات فرحها غالباً، وبطريقة تجعل اصحاب الكولي يقسمون ان كلابهم تضحك عندما تغتبط.

ابطأ «جو» عندما سمع صوت رجل يقول له.

ـ « ايه ايها الصبي . . اين وجدت كلبك ثانية؟»

كانت الكلمات تلفظ في اعرض نبرات «يوركشاير»، وبنفس

النبـرة أجـاب «جـو». كمـا هو الحـال في المدرسة حين يتكلم التـلاميـذ بانكليـزيـة «فصحى»، فانه كان من الادب ان تجيب الكبار بنفس النبرة التي يتحدثون بها، فصاح:

ـ «كانت عند باب المدرسة.»

لكنـه بعـد ذلك، عرف الحقيقة. لم يجلب والده الكلبة ثانية، هذا ما يعـرفـه كل الـرجـال؛ ففي قريـة صغيرة مثل «غرينول»، يعـرف كل رجـل ما يعـرفـه الآخـر. وبـالتأكيـد في تلك القرية المميـزة، سيعـرفون شيئا عن مثل هذا الموضوع المهم؛ اعادة بيع «لاسي».

«لاسي» هربت! وهذا ما كان.

ولـذلـك لم يعـد الفتى «جـو كاراكلوف» يجـري بحبـور بل سار ببطء، مستغرباً، وعندما استدار بجانب شارع سفح التل، ذاهباً الى بيته. وبالقرب من بابه، استدار الى كلبه بحزن، وقال.

ـ «ابقي هنا يا «لاسي».»

وبتقطيب حاجبـه من التفكيـر، وقف خارج البـاب ووجهـه يبدو خالياً من التعبير. ثم فتح الباب ودخل. . وقال:

ـ «أمي، عندي مفاجأة.»

مد يده نحـوهـا، وكأن هذه الحركة ستساعده في الحصول على رغبته القصوى. . فقال:

ـ «لاسي» عادت للبيت.»

شاهد امه تحدق فيه. نظر اليه والده من مكان بالقرب من النار. ثم، عنـدمـا دخـل الى الكوخ، رأى عيونهما تتحول نحو الكلبة

التي تبعته بخضوع. حدقا لكنهما لم يتكلما.
وكأن الكولي قد فهمت سر الصمت، فتوقفت لحظة، ثم سارت، مطأطئة الرأس، كما يفعل الكلب الذي يشعر انه ارتكب شيئاً ـ وهي لا تعرف ماهو ـ خاطئاً. ذهبت الى بساط الموقد. وحركت ذيلها، وكأن ذلك علامة على عدم الاهتمام بالآثام التي ارتكبت، راغبة بارتكابها ثانية.
ولكن يبدو ان ليس هناك مفخرة، اذ حول الرجل نظرة عنها، فجأة، نحو النار وبتلك الطريقة، ابعد الرجل الكلب عن ناظريه
كورت الكلبة نفسها ببطء، وغاصت في البساط، حتى جعلت جسمها يلامس قدم الرجل غير انه سحبها بعيداً، ثم وضعت رأسها بين مخالبها ومن ثم ـ مثل الرجل ـ حدقت في اعماق النار، كأنه يوجد في تلك الارض الخيالية الذهبية الجواب لكل مشاكلهم.
لقد كانت المرأة هي التي تحركت اولاً حيث وضعت يديها على وركها، وتنهدت طويلاً، تنهداً دل على سخط بليغ. نظر «جو» اليها محاولاً تلطيف ذلك الجو المتلبد ثم بدأ يتكلم بصوت مفعم بالحيوية والامل.
ـ «كنت خارجاً من المدرسة، وكانت هناك. في المكان نفسه الذي اعتادت عليه، دائماً، عند الباب الذي تنتظر في قربه. ولا احد شاهد مقدار فرحة اللقاء. هزت ذيلها لي. وكانت بذلك علامة الفرح لملاقاتي.»
استمر «جو» يتحدث. والكلمات تنثال من فمه، وكأنه ما دام

يستمر في حديثه، فلا امه ولا والده يستطيعان قول كلمة مفزعة، يتوقع سماعها.
- «ارى ان حنينها الينا جميعاً. لذلك ظننت انني يجب ان احضرها،
ونستطيع . . »
- «لا!»
اعادت والدته الكلمة بتجهم.
ابتعدت غاضبة، واستمرت في تنظيم المائدة. وثانية، وجدت راحة في التوبيخ، كما تفعل المرأة القروية. انطلق صوتها، بكلمات باردة وحادة، لتغطي مشاعرها الخاصة.
- «كلاب! كلاب! كلاب!»
ثم صاحت.
- «سامرض عندما اسمع عنها. لا اريدها. لقد بيعت وذهبت وانتهت، وحين تغيب عن نظري سأسعد. والآن، اخرجها. واسرع، والا سيأتي «هاينز» ذاك. . «هاينز» الذي يعرفها كلها!»
احتد صوتها وهي تنطق الكلمات الاخيرة، لانها لفظتها مقلدة طريقة «هاينز» في نطقها.
- «والآن، هذا ما أقول. . »
استمرت أم «جو» تتكلم. .
- «لقد بيعت، فارجعها اليهم. . الى اولئك الذين ابتاعوها. »
وبعد ان شعر ان والدته لا تقدم له أية مساعدة، استدار «جو» نحو والده الجالس امام النار، غير ان والده جلس وكأنه لم

يسمع كلمة، مما قيل. وهنا زمّ «جو» شفته السفلى بعناد، وهو يبحث عن بعض الطرق الجديدة لمناقشته، غير ان «لاسي» هي التي ناقشت محتجة لنفسها. والآن، عندما بدا الكوخ ساكناً، بدا كأن المشاكل قد انتهت بالنسبة لها.
فنهضت ببطء، وسارت نحو الرجل، وبدت تلزيده بخطمها الارشم، كما يفعل الكلب غالباً عندما يريد ان يجلب الانتباه اليه او يطلب الراحة من سيده. غير ان الرجل أبعد يده عن متناول الكلبة واستمر محدقاً في النار.
راقب «جو» ذلك، واستدار نحو والده. .
- «اي والدي!»
قال بحزن. .
- «كان يجدر بك في الاقل ان ترحب بها. فهذه لبست غلطتها، وهي سعيدة بعودتها الى البيت. امسح عليها.»
ولم تبد من والد «جو» أية اشارة تدل على انه قد سمع كلمة مما قال له ابنه.
- «انت تعرف، انهم ربما لم يعتنوا بها في الوجار.»
استمر «جو» يتحدث، وكأنه يتحدث الى هواء الكوخ الطايق.
- «أتظن انهم يعرفون كيف يطعمونها، كما ينبغي لها؟»
- «انظر الان الى شعرها. انه لا يبدو على ما يرام، قليلاً. . أليس كذلك؟ أبي. . الا تظن ان القليل من بذور الكتان سيحسن حالها قليلاً، عندما يوضع في الماء الذي تشربه؟ وهذا ما فعلته لكلب رايت شعره ليس على ما يرام. . أليس

كذلك ياأبي؟»
مستمراً في النظر الى النار، بدأ والد «جو» يومىء ببطء.
انفجرت السيدة «كاراكلوف» غاضبة بوجه ابنها، فقالت:
- «نعم. . انه ليس من عائلة «كاراكلوف» ولا من رجال «يوركشاير» من لايعرف عن الكلاب أكثر مما يعرف عن تكسير البيض بالعصا.»
ثم تحدثت بنبرة رتيبة. .
- «ياإلهي. . يبدو لي أحياناً ان رجال هذه القرية، يفكرون بكلابهم أكثر مما يفكرون بلحمهم ودمهم. هذا ما يفعلون انها اوقات صعبة. . فهل حصلوا على عمل؟ كلا. انهم يعيشون على المعونة، وأنا اراهن ان بعضهم قانع تماماً في ان يدع اطفاله يتضورون جوعاً ما دامت كلابه تحصل على طعام.»
حرّك والد «جو» قدميه بقلق، غير ان الولد تدخل قائلاً:
- «غير انها تبدو نحيفة، حقاً. اراهنك على اي شيء انهم لا يطعمونها جيداً.»
اجابت بنشاط:
- «حسن. . ولكنني لا اظن ان «هاينز» يسرق احسن قطعة من اللحم المعد للكلاب، لنفسه، لانني لم أر في حياتي وجها ضامراً مثل وجهه.»
وخلال هذا السيل المتدفق من الكلمات، استدارت عيناها نحو الكلب وسرعان ما تغيرت نبرتها، فقالت:
- «تبدين جائعة، قليلاً، ايتها المسكينة. . سأعطيها قليلاً من

العصيد وسيفيدها هذا، انني لا اعرف شيئاً عن الكلاب . »
ثم بدا للسيدة «كاراكلوف» انها ادركت ان عواطفها مناقضة . للكلمات التي قالتها قبل خمس دقائق ، فرفعت صوتها وكأنها تحاول الدفاع عن نفسها وايجاد عذر لها :

ـ «ولكن في الدقيقة التي تنتهي من طعامها، يجب ان ترجع» . .

قالت ذلك موبخة . .

ـ «وعندما ستذهب، لن ادع كلباً آخر في بيتي . كل ما تفعله هو تربيتها، والعمل من اجلها ـ ثم انها تسبب لنا مشاكل كمشكلة تربية طفل . . وبعد ان تنتهي من عملك، ما الذي ستجنيه منها؟»

وبالرغم من حديثها الغاضب هذا، الا انها سخنت طعاماً، ووضعته امام الكلبة ، وراحت هي وابنها يراقبان «لاسي» وهي تأكل بسعادة، غير ان الرجل لم يحول عينيه، مرة واحدة، أبداً نحو الكلبة التي كان يملكها . .

وعندما انتهت «لاسي» من تناول طعامها، رفعت السيدة «كاراكلوف» الاناء . ذهب «جو» الى رف المستوقد، واخرج قطعة قماش مطوية، وفرشاة . وجلس على البساط، وبدأ يسوي شعر الكلبة .

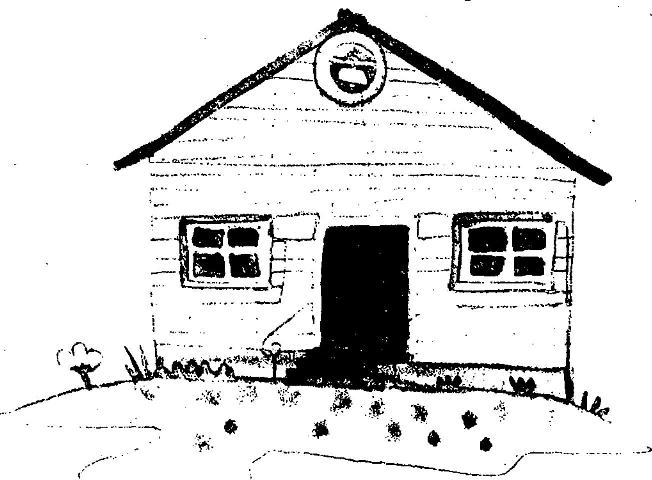
في البدء، ظل الرجل يتطلع الى النار، إلا انه على الرغم من مكابراته، بدأ يحول نظرات سريعة نحو الولد والكلب الذي بجانبه . واخيراً، وكأنه لم يعد يحتمل، إستدار ورفع يده :

ـ «ليس هكذا، يابني . . »
قال ذلك بصوته الخشن المليء بالحرارة.
ـ «إذا اردت ان تقوم بعمل، فعليك ان تقوم به كما ينبغي له. . انظر. . هكذا!»
أخذ الفرشاة وقطعة القماش من ابنه، وبعد ان انحنى على البساط، بدأ يعمل بشعر الكلبة بمهارة يمسح الشعر الكث الغزير بقطعة القماش وكذلك يمسح الخطم بعناية بيد واحدة، بينما اليد الاخرى تقوم بمسح العنق والسيقان والبطن.
للحظة، كانت السعادة قد غمرت الكوخ. لقد اضاع الرجل كل الافكار الاخرى، عندما وضع فكره في العمل. جلس «جو» على البساط، بجانبه، يراقب كل حركة من حركات الفرشاة، ويحفظها، لانه يدري، كحقيقة يعرفها كل رجل في القرية، انه لا يوجد رجل على بعد عدة اميال من الجوار، يستطيع ان يرتب الكولي، سواء ليوم العمل ام على منصة العرض، مثل «سام كاراكلوف»، ابيه. وكانت اعظم احلامه وطموحه، هو ان يصبح يوماً ما، مربي كلاب ممتازاً، مثل ابيه.
ويبدو ان السيدة «كاراكلوف» هي التي تذكرت اولاً، ماتناساه الجميع، وهو ان «لاسي» لم تعد لهم. . فصاحت في سخط :
ـ «والآن ارجوكم. . هلا تبعدوا ذلك الكلب من هنا؟»
استدار والد «جو» في غضب مفاجيء. كان صوته عميقاً بنبرة «يوركشاير»، التي تعمق كلام كل رجال القرية.
ـ «لا تريدينني ان ارجعها فأبدو مثل غسيل يوم الاثنين القذر. .

أليس كذلك؟»
ـ «انظر يا «سام»، ارجوك. . »
بدأت المرأة الكلام.
ـ «لو لم تسرع باعادتها. . . »
وهنا توقفت، واصغوا جميعاً فقد كان هناك وقع خطوات قادمة من طريق الحديقة.
قالت في سخط:
ـ «هناك. . انه ذلك الـ «هاينز!»
ركضت نحو الباب، وقبل ان تصلها، فتحت، ودخل «هاينز». . توقف الرجل لحظة؛ هذا الرجل الصغير النحيل، بسروال الركوب وكسائي القدمين. ثم استدارت عيناه نحو الكلبة الجالسة على البساط. . فصاح:
ـ «كما قلت. . قلت انني سأجدها هناك.»
نهض والد «جو» ببطء. . وقال بلهجة ضجرة:
ـ «كنت انظفها قليلاً، ثم أرجعها.»
فقال «هاينز» ساخراً:
ـ «اراهن انك كنت قد قررت ذلك. كنت مستعداً لاحضارها. اراهن على ذلك. ولكن حدث هذا مصادفة، انني جئت لأخذها بنفسي.»
بعد ان اخرج رسناً من جيبه، سار نحو الكولي مسرعاً، ووضع الكمامة فوق راسها، وعندما سحبها، نهضت بطاعة، ثم، بذيلها المنحني، تبعت الرجل الى الباب، وهناك توقف «هاينز»

وقال وهو ينصرف :
ـ «اسمع . . أنا لم اولد البارحة . وانا اعرف حيلة او حيلتين .
انتم ياأبناء «يوركشاير» ! أنا اعرف عنكم وعن كلابكم التي تعود
للبيت انكم تدربونها على العودة الى البيت بعد ان تبيعوها
وبعدها تبيعونها الى اشخاص آخرين . حسن . . ان هذا لا ينفع
معي . . لانني ، انا نفسي ، أعرف حيلة او حيلتين . . أنا . . »
توقف فجأة ، لأن والد «جو» ، بدأ يسير نحو الباب ، وقد احتقن
وجهه غضباً . .
ـ «عمتم مساء . . »
قال «هاينز» ذلك بسرعة ، ثم اغلق الباب ، وذهب والكلبة
تتبعه .
ساد صمت لفترة طويلة ، في الكوخ ، ثم ارتفع صوت السيدة
«كاراكلوف» :
ـ «لا اريد ذلك . . انه يروح ويجيء في بيتي ، ولا ينزع قبعته
عن راسه ، وكأنه الدوق نفسه . . وكل ذلك بسبب كلب . .
حسن . . لقد ذهبت ، ولو يسألني أحد ، فسأقول انه الخلاص
الجيد . لننعم بالسلام القليل ، الآن . آمل أن لا أراها ثانية . »
استمر لسانها يقذف الكلمات بتوبيخ ، اما «جو» ووالده فقد
جلسا امام النار . كلاهما الآن يحدق في النار ، من غير حركة ،
وبصبر ، كل يدفن افكاره داخل نفسه ـ كما يفعل سكان
الشمال ، عندما تمر بهم أزمة حادة .

الفصل الخامس



لاتعودي الى البيت أبدا

لو ظنت السيدة «كاراكلوف» ان كل شيء قد سوّي ، فإنها كانت مخطئة ، اذ كانت «لاسي» ، في اليوم التالي عند باب المدرسة ، مظهرة اخلاصها . . منتظرة «جو» .

وللمرة الثانية ، أحضرها «جو» الى البيت . وفي الطريق ، خطط لأن يقاتل من أجل كلبته . كان السبيل بالنسبة اليه ، سهلاً . ولقد شعر بأن والديه عندما سيشاهدان وفاء الكلب ، فان قلبيهما سيرقان ويدعوانها تبقى معهم ثانية ، وبذلك يكافئانها . غير انه

عرف ان الامر ليس بتلك السهولة في اقناعهما .
سار في الطريق ، ببطء ، ثم فتح الباب . كل شيء في الكوخ كان كما هو من قبل . كانت امه قد اعدت طعام العشاء ، ووالده جلس ساكناً امام النار ، كما اعتاد ان يفعل ذلك ، لساعات ، مادام ليس هناك عمل .
ـ «إنها . . إنها عادت ثانية» . .
قال «جو» .
كل آماله تبخرت عندما تفوهت امه بأولى كلماتها . ليس هناك تنازل من لدنهما .
ـ «لا اريدها . لا . . لا اريدها ، »
صاحت . .
ـ «لاتستطيع ادخالها . . ولا فائدة من التوسل واغاظتي . يجب ان تعود حالاً ! حالاً ، في هذه الدقيقة ! »
سقطت الكلمات على «جو» مؤلمة . ان نشأته في بيت يوركشايري ، بشفقته الصارمة ، كان من النادر ان «يجيب بفظاظة» ، كما يقول المثل ، على كلمات والديه . غير انه في هذا الوقت ، شعر أن عليه ان يحاول ؛ اذ عليهما ان يفهما .
ـ «ولكن ياأمي . . انتظري قليلاً . . قليلاً . ودعيني احتفظ بها قليلاً ! »
شعر لو أنه يستطيع الاحتفاظ بها لوقت قصير ، فان قلب كلٍ من والديه سوف يحن . ربما شعرت «لاسي» بذلك ، ايضاً ، اذ عندما تكلم «جو» ، فانها سارت واتجهت الى مكانها المعتاد ،

فوق البساط ، قرب الموقد . وكما لو انها كانت تعرف ان القضية تخصهـا ، فإنهـا اضطجعت ، وادارت عينيها من شخص لآخر ، اما الذين كانوا يتحدثون بهدوء عادة فإن اصواتهم الآن صارت حادة .

ـ «لافائدة يا «جو» . كلما طالت مدة بقائها هنا ، ازدادت اعادتها صعوبة . لذا يجب ان تعود!»

ـ «ولكن ياأمي ـ ياأبي . . ارجوكما . . انظرا اليها . انها لا تبدو في حالة جيدة . فهم لا يطعمونها كما ينبغي لها ذلك . . الا تظنان . . . »

نهض والـد «جـو» ، وواجـه ابنـه . كان وجـه الـرجـل خالياً من العواطف ، غير ان صوته كان مليئاً بالتفهم .

ـ «هذا لاينفع الآن يا «جو» . . »

قال ذلك بضجر . .

ـ «كما ترى يابني . . ليست هناك فائدة . علينا اعادتها بعد تناول الشاي . »

ـ «لا ! ستأخذها في الحال . . في الدقيقة هذه!»

صاحت السيدة «كاراكلوف» .

ـ «لولم تفعل ، فإن ذلك الـ «هاينز» سيأتي ثانية . ولا اريد رؤيته وهـو يتخطى في بيتي ، وكأنه مالكه . ارتدِ قبعتك الآن ، واذهب في هذه الدقيقة . »

ـ «ستعود ثانية ياأمي . . ألا ترين ذلك؟ ستعود كذلك . انها كلبتنا . . . »

توقف «جـو» عنـدما غاصت أمه في الكرسي في حركة تدل على تعب وقلق. نظرت الى زوجها فأومأ برأسه، وكأنه يقول ان «جو» على حق.
- «جاءت من اجل الولد، كما ترين. . »
قال الوالد.
- «لا استطيع ان افعل شيئاً يا «سام» عليها ان تذهب. »
قالت السيدة «كاراكلوف» ببطء.
- «ولـو انهـا جاءت من اجـل الصبي، فعليـك ان تأخذه معك، وعليه ان يضعها بنفسه في الوجار ويأمرها بالبقاء. ولو انه يأمرها بالبقاء هناك، فإنها ستفهم وترضى، ولن تهرب عائدة للبيت، أبداً. »
قال الرجل بتمهل:
- «نـعم. . في هذا شيء من المنطق. خذ قبعتــك يا «جــو»، وتعال معي. »
التقـط «جـو» قبعتـه وهـو في حالة بائسة. وصفر الرجل، صفيراً ناعمـاً فنهضت «لاسي» طائعـة. ثم غادر الـرجل الكوخ وخلفه الـولـد والكلبـة بينما سمع «جو» صوت أمه ما يزال ينطلق، لكنه مليء بالارهاق، وكأنها على وشك ان تبكي من التعب.
- «لـو انهـا ستبقى، فإننا سننعم بقليل من الطمأنينة والهدوء في البيت، على الـرغم من ان السمـاء وحـدهـا هي التى تعرف ان ليس هنـاك ادنى حظ في ذلـك هذه الايـام. فالاشياء اصبحت كما هي عليه. . . »

سمع «جو» صوتها يتضاءل، بينما كان يتبع والده و «لاسي» بصمت.

- «جدي . . . »

قالت «بريسيلا» . .

- «هل تستطيع الحيوانات سماع اشياء، لا نستطيع نحن سماعها؟»

- «آه، نعم. نعم، بالطبع.»

زمجر الدوق . .

- «خذي الكلب مثلاً. انه يسمع خمس مرات أكثر من الانسان. فمثلاً ان صمتي هو صفير للكلب. انه ليس صمتاً، حقاً. انه ذو ترددات صوتية عالية، غير اننا لا نسمعها. ولا يستطيع أي بشر ان يسمعها. الكلب يسمعها، فيأتي مسرعاً. إن هذا يعود الى ان . . . »

شاهدت «بريسيلا» جدها وقد روع، وبدأ يهز عصاه محذراً، عندما نزل الى الطريق.

- «كاراكلوف»! ماذا تفعل هناك مع كلبي؟»

في اسفل الطريق، شاهدت «بريسيلا» قروياً طويلاً عريض المنكبين، وبجانبه يقف ولد قوي، وقف وقد استقرت يده بخفة على عنق الكولي. سمعت الكلب يزمجر بنعومة، وكأن يحتج محذراً من قدوم جدها، ومن ثم صوت الولد الخفيض وهو يهديء الكلب وهكذا تبعت جدها، باتجاه الغريبين.

عنـدمـا شاهـدهـا «سـام كاراكلوف» قادمة، رفع قبعته ولكز ابنه ليفعل مثله.

ان هذه لم تكن حركة رقيقة، بل لان العديد من القرويين الـخـشنين يفخـرون بانفسهم، بانهم قد تربـوا تربيـة طيبـة ويتصرفون بأدب جم.

- «انها «لاسي». »

قال «كاراكلوف».

- «بالطبع انها «لاسي». »

هدر الدوق..

- «اي احمق يستطيع ان يرى ذلك. ماذا تفعل بها؟»

- «هربت ثانية، وانا اعيدها اليك. »

- «ثانية؟ هل هربت من قبل؟»

وقف «سـام كاراكلوف» صامتـاً. اذ من كلمات الدوق الاخيرة، عرف ان «هاينز» لم يخبر عن هروبها السابق. ولو انه اجاب عن سؤال الدوق، فسيشعر بانه سينم على «هاينز». وبالرغم من انه كان يكـره «هـاينز» الا انه لايستطيع ان يقول عنه الاقاويل، لانه حلل ذلـك في دمـاغه الشريف، بأنه «لايجب ان يطرد رجل من عمله». قد يطرد «هاينز»، والاعمال شحيحة في هذه الايام وان «سام كاراكلوف» يعرف ذلك.

لقد حل مشكلته بطريقة يوركشارية مثالية. فاعاد كلماته الاخيرة بثبات:

- «أنا اعيدها، وهذا كل شيء. »

نظر اليه الدوق متوعداً. ثم رفع صوته اعلى.
- «هاينز!» «هاينز»! لماذا يهرب ذلك الرجل دائماً، ويختفي كلما اردته؟
«هاينز»! »
- «انا قادم ياسيدي - قادم. »
جاء الصوت الذي يشبه النخير.
وفي الحال خرج «هاينز» بسرعة من خلف اراضي الشجيرات التي خلف وجارات الكلاب.
- «هاينز». . هل هرب هذا الكلب من قبل؟»
ارتبك «هاينز» واصيب بالحيرة. .
- «حسن ياسيدي. . بهذا الطريق. . . »
- «حسن ياسيدي. . انها فعلت ذلك. . غير انني لم ارد مضايقة سعادتكم بشأنها. »
قال «هاينز» وهو يحرك قبعته بعصبية. .
- «لكنني عملت جاهداً على ان لاتهرب ثانية. لا اظن انها ستهرب بعد الان. وضعت أسلاكاً في كل الاماكن التي حفرتها، وسأرى. . . »
صرخ الدوق:
- «ايها المغفل بحق وحقيق! بدأت افكر بانك مغفل تماماً. «هاينز»! اسجنها. واذا هربت ثانية، فانني. . فانني. . . »
لم يكمل الدوق ماأراد قوله، بل عوضاً عن ذلك، ذهب يمشي متثاقلا بمزاج شيطاني من غير ان يقول «شكراً» ل «سام

كاراكلوف» . شعرت «بريسيلا» . بطريقة ما بذلك ، اذ بدأت تتبع جدها ، ثم توقفت واستدارت ووقفت هادئة تراقب المشهد الذي تركته . كان «هاينز» يتحرك بغضب .

- «سأسجنها . »

تمتم . .

- « ولو حدث وهربت ثانية ، فسوف . . . »

لم يكمل «هاينز» الجملة ، اذ عندما تكلم بدا وكأنه ، امسك بشعر عنق «لاسي» . غير انه لم يصل الى الكلب ، اذ ان حذاء «سام كاراكلوف» الثقيل ذا النعل المسمر وطأ قدم «هاينز» ، واعاده الى موقعه . تكلم الرجل ببطء .

- «جلبت ابني معي ليسجنها ، هذه المرة . »

قال ذلك .

- «لقد هربت من اجله ، لذلك سيحبسها هو ويأمرها بالبقاء . »

ثم ارتفع صوت اليوركشايري البطيء ، وكأن «سام كاراكلوف» قد لاحظ للتو شيئاً .

- «أوه . . أنا آسف الان . لم الاحظ انني كنت ادوس قدمك . تعال يابني ، يا «جو» . افتح الوجار لنا يا «هاينز» ، وسنضعها فيه . »

شاهدت «بريسيلا» التي كانت ماتزال واقفة بجانب أغصان معمرة دائمة الخضرة ، شاهدت الكلبة تجيء من الوجار الى الطريق ، عندما جاء الولد عند السلك ، رفعت ـ راسها ثم سارت نحوه حيث ضغطت الكولي نفسها بالسلك ، وللحظة

طويلة، وقف الولد هناك، واصابعه تصل الى برودة انف الكلبة من خلال عيون الشبكة. ثم انهى الرجل لحظات الصمت قائلاً
ـ «تعال يا «جو»، ياولدي. . انه الامر. لافائدة. . مرها ان تبقى. . اخبرها اننا لا نريد منها ان تعود الى البيت، بعد الان.»
شاهدت «بريسيلا» الولد وهوينظر الى والده. ثم يحدق فيما حوله، وكأن نجدة ستأتيه من مكان ما.
ولكن لم يكن هناك شيء. ليست هناك مساعدة من اي احد يقدمها لـ«جو» فبلع ريقه، وابتدأ يتكلم. . كانت كلماته بطيئة، وبنبرة خفيضة، غير انها راحت تتسارع اكثر فأكثر وهويتكلم.
ـ «ابقي هنا يا «لاسي» وتمتعي بالسعادة. . »
بدأ كلامه بذلك. . وكان صوته يسمع بالكاد. .
ـ «و. . ولا تأتي بعد الان الى البيت. لا تهربي بعد الان أبداً، لاتأتي الي في المدرسة ابداً. كوني هنا ودعينا لأ. . . لانك لن تعودي لنا، بعد الان، ونحن لا نريد رؤيتك أبداً ثانية. ولأنك كلبة سيئة فنحن لا نحبك بعد الآن ولا نريد رؤيتك. فلا تزعجينا وتهربي الى بيتنا وظلي هنا الى الابد، واتركينا ولا تعودي الينا ثانية!».
وكأن الكلبة كانت تفهم لأنها سارت الى اقصى زاوية في الوجار، واضطجعت هناك. استدار الولد بوحشية وبدأ يسير مبتعداً، ولأنه كان من الصعوبة ان يعرف الى اين هوذاهب، فانه تعثر، غير ان والده، الذي كان يسير بجانبه، برأسه المرفوع

عالياً جداً، ونظرته الممتدة الى امام، أمسك به من كتفه وهزه، وقال له بخشونة:

- «انظر الى اين انت ذاهب!»

هرول «جو» بجانب والده، الذي كان يسير مسرعاً. لقد كان يفكر انه غدا لا يفهم أبداً، لماذا يكون البالغون قساة القلب في اللحظة التي تحتاجهم فيها؟

ركض بجانب والده وهو يفكر بذلك، ولا يفهم لماذا يريد الرجل ان يبتعد عن الصوت الذي يتبعهما - صوت الكولي وهي تنبح بشجاعة وتنادي سيدها ان لا يتركها ولكن لم يفهم «جو» ذلك.

وكان هناك شخص آخر وجد اشياء عديدة من الصعب ان يفهمها. انها «بريسيلا»، التي جاءت الى الممر، مقتربة، حيث تقف الكولي الآن، وعيناها ثابتتان لا تتحركان عند النقطة التي شاهدت فيها لآخر مرة سيدها، يستدير في زاوية الطريق، وارتفع رأسها بنباح.

راقبت «بريسيلا» الكلبة، حتى جاء «هاينز» من امام الوجارات، فنادته:

- « «هاينز!» »

- «نعم ياآنسة «بريسيلا»؟ »

- «لماذا تهرب الكلبة اليهم؟ اليست هي سعيدة هنا؟»

- «لماذا يحميك الله - ايتها العزيزة. آنسة «بريسيلا». . بالتأكيد انها سعيدة - فلها وجار لطيف. ولكنها تعود الى البيت، لانهم قد دربوها على ذلك.

هكـذا هم يفعلون ـ يسـرقـونهـا ويبيعـونها لشخص آخر قبل ان تقولي ان «بوب» هو عمي . »

ـ جعدت «بريسيلا» انفها مفكرة .

ـ «ولكن، لو أنهما يريدان اختلاسها، فلماذا اعاداها بنفسيهما؟»

ـ والآن أيتها اللطيفة لا تشغلي بالك بها .

قال «هاينز» . .

ـ «لاتستطيعين الثقـة بأي واحـد من القرية . انهم يكيدون دائماً . . . انهم . . . لكننا اذكياء ولا يستطيعون التغلب علينا . »

فكرت «بريسيلا» للحظة .

ـ «ولكن لو ان الولد اراد كلبته فلماذا باعاها أولاً؟ لو انها كلبتي ، فإنني لن ابيعها . »

ـ «بالطبع انك لن تفعلي ذلك يا انسة «بريسيلا» . »

ـ «لماذا فعلوا ذلك ، اذن؟»

ـ «لمـاذا فعلوا ذلـك؟ لأن جدك قد دفع مبلغاً كبيراً ثمناً لها ، لم يدفعـه احـد من قبـل انـه مبلغ كبيـر طيب . ولـو كنت انـا ، وبطريقتي ، لأقللت منه نعم ، لفعلت ذلك . »

وبعـد ان اقتنـع بما توصل اليه ، استدار «هاينز» نحو الكلبة التي ظلت واقفة تنبح . »

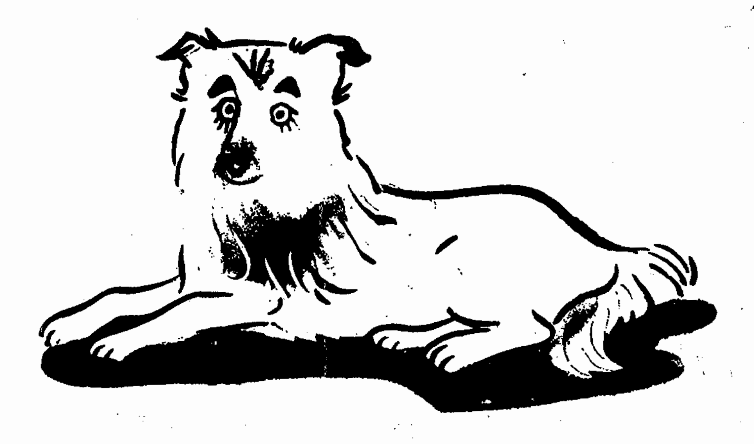
ـ «اهدأي الآن ، واذهبي الى وجارك ، واضطجعي فيه . اذهبي !» .

ولمـا لم تبـد اشـارة من الكلبـة تدل على انهـا سمعتـه ، مشى

«هاينز» خطوة واسعة، مقترباً منها، ورفع يده في حركة تدل على استعداد للضرب.
استدارت «لاسي» بمهل، ومن صدرها خرجت دمدمة جهيرة، وصعدت الشفتان، فبدت الاسنان الكبيرة، مشرقة البياض، وانزلت اذنيها الى الوراء، وارتفع شعر عنقها ببطء ولكن الدمدمة الجهيرة بدأت تعلو.
توقف «هاينز»، وحشر لسانه بين الفراغ الموجود بين اسنانه الامامية.
ـ «لقد انزعجت اذن. . أليس كذلك؟»
قال لها ذلك: اما «بريسيلا» فقد سارت وراءه. .
ـ «انتبهي يا آنسة «بريسيلا» لو كنت مكانك لما اقتربت كثيراً منها فهي ستعضك عندما تشاهدك، هكذا كنت اعرف الكلاب. وهذا صحيح! غير انني سأكون مع السيدة الصغيرة اللطيفة، وهي تخطو متقدمة، من البداية حتى النهاية، ولكن من الافضل ان تبتعدي عنها ياآنستي.»
غير ان «هاينز» استدار مبتعداً بينما وقفت «بريسيلا» طويلاً ثم سارت متمهلة نحو شرك الاسلاك، ووضعت اصابعها من خلاله، فأصبحت قريبة من راس «لاسي». وقالت برقة ونعومة:
ـ «تعالي هنا ايتها الفتاة. تعالي الي. تعالي! فلن أوذيك. تعالي!»
فهدأت زمجرة الكلبة، وربضت على الارض. وفي لحظة التقت عيناها العسليتان الكبيرتان مع العينين الزرقاوين للفتاة.

ثم تجاهلتها، وبحركة من الفخامة المتعالية، اضطجعت في سجنها. لم تطرف عيناها؛ ولم يدر رأسها بل اضطجعت هناك، تحدق بثبات نحو النقطة التي شاهدت فيها لآخر مرة «سام كاراكلوف» وابنه...

الفصل السادس



مخبأ في المستنقع

في اليـــوم التــالي ، اضطجعت «لاسي» في حظيـرتهـا ، وضـوء شمس صيفي مبكر، ينساب على فروتها وقد استقر راسها على يديهــا . كان يؤشــر نحــو المكــان الــذي اختفي فيـه ، «ســام كاراكلوف» وابنه ، في الليلة الفائتة . رفعت اذنيها ودفعتهما نحو الامـام ، حتى توقـظ حواسها لأية صورة او صوت او رائحة تنبئها بأن سيديها سيعودان .

غير ان المساء كان هادئاً . كان هناك أزيز لنحلات مبكرات ، في

الهـواء، ورائحة رطوبة ريف انكليزي. ذلك هو كل شيء. بدأ المسـاء يرخي سدولـه، وبـدأت «لاسي» تتحـرك ولهـا انـدفاع تحـذيـري واهن. لم يكن مميزاً، بل يتعذر تعريفه. لربما يشبه رنين منبه ساعة، يرن ليزعج شخصاً ما يزال نائماً.

رفعت «لاسي» راسهـا فجأة، وشمت الهـواء، بيـد أن هذا لم يمنحها جواباً شافياً للغموض الذي يتحرك في داخلها.

ثم نهضت وسـارت متمهلة نحـو الـوجـار، واضطجعت تحت الظـل. فلم يجلب لهـا ذلـك أيـة راحة. وهكذا نهضت ثانية، وعـادت الى الشمس: بيـد أن ذلـك لم يكن الجواب. فالشيء الغريب الذي يحثها في عقلها، راح يزداد قوة فبدأت تسير حول الحظيـرة فهي تدور وتسيـر بمحاذاة شبكة الاسلاك القوية، وإن القـوة الكـامنـة فيها جعلتها تسير دائرة دائرة، تذهب في دورة اثر اخـرى حول القفص. ثم توقفت في إحـدى الـزوايـا، وبكفهـا راحت تخـدش السلك. وكأن ذلـك كان إشـارة، فإنهـا فهمت فجأة رغبتها. لقد كان الوقت! وقت الذهاب الى الولد!

لم يكن ذلـك التفكيـر صريحـاً، كما قد يكون عند بني البشر. عرفتـه بصـورة عميـاء مطلقـة. ذلك الاندفاع طغى عليها كلياً، ومسح أي شيء آخر مما تشعر به او تدركه. كانت تعرف أنه وقت الذهاب الى المدرسة، كما كانت تفعل منذ العديد من السنوات..

بدأت تخدش السلك بنشاط، غير أنها لم تحدث غير اثر قليل. أخبـرتهـا ذاكرتها أنها قد هربت هناك، من قبل؛ خدش السلك

وتمزيقه، ثم الحفر والضغط على اسفل، والرفع برقبتها القوية، وعضلاتها الخلفية، كل ذلك كفيل باطلاق سراحها.

غير أن «هاينز» قد قطع عليها طريق الهرب. لقد قوى اسلاك السجن، باسلاك أصلب واقوى وثبت الواحاً خشبية. قوية، بجانبه مهما خدشت وحاولت الافلات منه، فليس فيه فائدة.

وكما لو أن فشلها ومرور الوقت قد منحاها طاقة اكثر، ثم راحت «لاسي» تسرع في سيرها داخل الحظيرة وصارت تخربش في الاماكن التي اخبرتها فيها غريزتها أنه ربما يكون فيها طريق الخلاص، غير أن «هاينز» قد جعلها محكمة، جميعاً.

رفعت راسها مسعورة لتنبح في غضب مما أحيطت به، ثم وثبت ووقفت على قائمتيها الخلفيتين قبالة السلك، وراحت تنظر الى اعلى.

لو تستطيع ان تذهب أسفل شيء، فإنك ربما تستطيع الذهاب فوقه! تستطيع الكلاب أن تعرف هذا ليس بعمليات تفكير منطقية، او بسبب أن البعض يخبرها أن عليها أن تفعل هكذا. حتى إن اكثر الكلاب ذكاء" تعرف ذلك على مهل وبوساطة غريزة غامضة وبالتدريب الذي تحصل عليه في حياتها القصيرة.

ثم، على نحو باهت وغامض، ومن ثم بصورة أكثر جلاء، جاءت الفكرة الجديدة في فكر «لاسي». وثبت لكنها سقطت ثانية. كان ارتفاع السياج يبلغ ست اقدام إنه اعلى من أن يستطيع كلب من نوعها أن يجتازه قد يستطيع السلوقي او الكلب

من نوع البـروزي أن يطيـرا فوقـه بسهولة . لقد ولدت الكلاب ، وربيت عبـر السنين لتـواكب متطلبـات مختلفـة وأن الكولي من تلك المجمـوعـة المسمـاة بكـلاب العمـل ، ربيت منـذ قرون لتعمـل مع الإنسـان ، ولتفهـم كلمـاتـه واشـاراته ، ولتكون ذكية لتسـاعـده . . إنهـا متفوقة في هذه النواحي ، بيد أنها لا تستطيع الـوثـوب او السبـاق مثـل بقيـة انواع الكلاب المتخصصة بهذه القدرات وحدها . وعلى اية حال ، فإن وثبتها قد قربتها من اعلى السلك . ثم تراجعت بطـول الحظيرة ، وانطلقت مسرعة محاولة الكرة ، غير أنها كانت تفشل في كل مرة .

بدا أن الامر مستحيل غير أنها بشجاعة الحيوان الجيد ومثابرته ، جربت المـرة بعـد الاخـرى ، فكانت تثب من مناطق مختلفة ، وكأن احد الأماكن ربما يكون سهل المنال اكثر من غيره . .

وهكذا كان احد الاماكن .

حيث قفزت من إحدى الزوايا ، عندما كانت الشبكة متصلة في زاويـة قائمـة ، وبينمـا كانت في الهواء ، فإن قائمتيها الخلفيتين وجدتا بعض المساعدة في زاوية السياج .

ثم حاولت ايضـا ، وفي هذه المـرة ، ومثـل رجـل يتسلق سلما ، فإنهـا انـدفعت في فورة من الطاقة . كانت في الاعلى ، تقريباً ، غير أنها سقطت كذلك .

إلا أنهـا تعلمت بسـرعـة فقد استدارت وركضت مرة أخرى وفي هذه المرة ، اندفعت بقوة ، ولامست مخالبها الجدار في اللحظة التي تغلبت فيها على الجاذبية وهكذا ظلت تكافح حتى وصلت

كفـاهـا الاماميتان الى الاعلى فتعلقت هناك للحظة واحدة، ثم رفعت نفسها على مهل الى اعلى وتأرجحت للحظة، غير ثابتة. إن الاسلاك العلوية قد مزقت بطنها، لكنها لم تشعر بذلك لأن فكـرة واحـدة كانت تدور في ذهنهـا؛ إنه الوقت. . الوقت الذي تحافظ على وفائها عند مكان اللقاء.

قذفت نفسها خارج السياج الى الارض. لقد صارت حرة! والآن قد انجـزت مهمـة خروجها ويبدو أن كل طاقة الغضب قد غادرتهـا. كان لهـا طريق جلي، ومـع ذلك، فإن الغريزة قادتها نحو عمل جديد. وكأنها كانت تعرف أنها ستحبس من جديد لو شوهدت، لذلك سارت باحتراس، مثل كلب يصطاد او يصاد. واضعــة بطنهـا لصيقـاً على الارض حتى انسلت عبـر الطـريق بصمت الى ايكــة من شجيــرات «الــورديــة»،إن اوراق النبـات الكثيفـة قد ابتلعتهـا. وبعد لحظة، كانت تنزلق بعيداً مثل شبح في ظل جدار، إن ذاكــرتـهــا عن الـمـنطـقــة، مثــل معظـم الحيـوانات، كانت دقيقة فذهبت بصمت، ولكن بسرعة مذهلة الى نقطـة حيث ينتهي الجـدار، ويبتـدأ سيـاج الحديد. كانت هنـاك حفـرة تحت السيـاج، وهى التي عثـرت عليهـا سابقاً. . فانسلت عبرها.

وكأنها فهمت أن هذا كان شيئاً محدوداً لنوع من مقاطعة العدو، فإن طريقها قد تغير الآن. صارت طبيعية ثانية. هرولت بهدوء، مرفوعة الرأس، ذيلها الكث يتدلى خلفها في استمرارية بهية من خطوط جسمها الانسيابية. لقد كانت كولياً بهيّاً تهرول بسعادة،

ذاهبة خلال امور الحياة التقليدية، من غير جلبة او إثارة.

* * *

لم يتوقع «جوكاراكلوف» أن يشاهد «لاسي»، أبداً. بعد ان أمرها بالبقاء، وبعد ان وبخها بسبب هربها للبيت، فقد اعتقد حقاً انها لا تعود وتقابله قط، في المدرسة.

غير أنه في اعماق أماله قد حلم بها، من غير أن يعتقد أن حلمه سيصبح حقيقة. وعندما جاء من المدرسة، ذلك اليوم، ورأى «لاسي» تنتظر كالعادة بالظبط شعر أن ذلك ليس حقيقة، لقد كان يعيش في احلامه، ليس إلا!

حدق في كلبته، بوجهه العريض الطفولي، وهو مملوء بالدهشة ثم كما لو أن صمته دلالة على أن سلوكها يستحق الاستنكار، مدت «لاسي» رأسها، وهزت ذيلها ببطء سائلة المغفرة للذنب المجهول الذي أقترفته

مدّ «جوكاراكلوف» يده ليلمس رقبتها

ـ «كل شيء على ما يرام يا «لاسي». . »

قال ببطء. .

ـ «كل شيء على ما يرام. »

لم ينظر الى الكلبة، إذ كان فكره يعمل بسرعة، ويذهب بعيداً، بعيداً سارحاً في الافكار. كان يتذكر كيف أنه، لمرتين سبقتا، أخذ كلبته الى البيت. . ثم على الرغم من كل آماله ودفاعاته، فقد اخذت منه.

لذلك، لم يسرع فرحاً الى البيت هذه المرة. وبدلاً من ذلك،

وقف وقــد استقـرت يده على رقبـة كلبتـه . . قطب جبينـه وهــو يحاول أن يحل مشكلته .
أرعـد «هـاينـز» وهـو عنـد باب الكـوخ ، ودخل من غير أن ينتظر جواباً . . وقال متسائلاً :
ـ «تعالوا . . أين هي ؟»
حدق السيد والسيدة «كاراكلوف» فيه ، ثم تحوّلت نظراتهما نحو بعضهما بعضاً . . بدت المرأة ، بعينيها المرتبكتين ، إنها لم تعر لـ «هاينز» أهمية . . فقالت :
ـ «لهذا السبب لم يرجع الى البيت !»
وافقها الرجل قائلاً :
ـ «نعم . . »
ـ «إنهمـا معـاً . . هوو «لاسي» . هربت مرة أخـرى ، وهو خائف من المجيء الى البيت إنـه يعـرف أننـا سنعيدها . فهرب معها ، حتى لا نعيدها . »
ارتمت على الكرسي ، وصار صوتها غير مستقر .
ـ «آه ، بحق السماوات ! الا انعم بالطمأنينة ، والسلام في بيتي ؟ لا سلام بعد الآن . »
نهض زوجهــا ببــطء . ثم ذهب الى البــاب وأخــذ قبعتـه من المشجب ، وعاد الى زوجته .
ـ «لا تنزعجي يافتاتي . . »
ثم قال . .
ـ «لن يبتعد «جو» كثيراً . إنه سيذهب متجهاً نحو المستنقعات .

ولن يتيه. كلاهما ـ هو و «لاسي»ـ يعرفان المستنقعات بصورة رائعة.»
وتظاهر «هاينز» بأنه قد تجاهل اليأس الذي أصاب سكان هذا الكوخ..
فقال:
ـ «والآن، تعالوا. اين هو كلبي؟»
استدار «سام كاراكلوف» ببطء نحو الرجل الصغير، وقال بلهجة معتدلة:
ـ «هذا ما أنا عازم للكشف عنه.. أليس كذلك؟»
ـ «حسن.. سأذهب معك. لأتأكد من عدم وجود اية أعمال صبيانية عابثة.»
قال «هاينز» ذلك.
للحظة، ماج غضب عامر في «سام كاراكلوف»، وخطا نحو الرجل الآخر.
فجبُن «هاينز» بسرعة، فقال:
ـ «لاتسبب مشكلة.. من الافضل ذلك.»
أنزل «كاراكلوف» بصره نحو الرجل الاصغر منه، وكأنه يهين واحداً أصغر منه حجماً وحيوية، ثم ذهب الى الباب، وهناك استدار:
ـ «من الافضل ان تعود الى البيت، ايها السيد «هاينز». وسيرجع كلبك اليك، حالما أجده.»
ثم خرج «سام كاراكلوف» في تلك الليلة المظلمة. لم يذهب

الى القــريـة بل عوضـاً عن ذلـك ، ذهب الى اعلى التـل ، في جانب الشـارع ، حتى وصـل الى النْجد الكبير المنبسط الاجرد الناذر بالشر، لعدة اميال شمالي الريف .

سار متقدماً بثبات . وقد حلت الظلمة في الحال ، غير أنه كما لو أن الغـريـزة هي التي أبقت قدميه على الطـريق الحديث الذي صنعه الرجال منذ مئات السنوات برواحهم ومجيئهم في الريف المـوحش . قد يضيـع الغـريب حالاً في تلك الارض ، حيث لا تبـدو هنـاك ايـة شواخص يهتـدي بها ، ولكن ليس أي رجل من رجال القرية .

لقـد تعلمـوا ـ منـذ ان كانـوا اطفالاً يلعبون ، جغرافية ريفهم . . إنهم يعــرفـون كل بوصـة من المستنقـع . وأي انحـراف فيـه ، يجعلهم يتحـدثـون عنـه ، وكأنـه إشـارة شارع واضحـة بالنسبة لساكن المدينة .

سار والد «جو» وهو واثق مما يعمل . . لأنه يعرف أين يبحث عن ابنـه،خمسـة أيـام فوق المستنقـع ، تكـون الارض جزيـرة ، من صخـور ناتئـة ؛ كتل مسننة حادة الجوانب ، تبدو وكأنها منذ زمن طويل ، قد بدأ طفل عملاق يكوم كتلاً من الحجارة لبناء أبراج ، ثم تخلى عنهـا بعـدأن انجـز نصفهـا . وكثيـراً ما كان القرويون يتحـدثـون عنها في ساعات قلقهم . الابراج الصخرية الكالحة المحظورة، بممراتها وكهوفها، تشكل مكاناً يستطيع الواحد أن يجلس فيــه ، والسكــون يحيـط به ، ويفكـر بمشـاكـل العـالـم والحياة ، من غير أن يزعجه أي شخص .

وهنـاك ذهب «سـام كاراكلوف» حيث سار بثبـات خلال الظلمة وبـدأ مطـر الليـلٍ يهطل مندفعاً بقوة فوق المستنقع . ناعماً يشبه الضبـاب وغـزيراً ، غير أنه لـم يخفف من خطوته . واخيراً لاحت كومـة الحجـارة في الظـلام . ثم عنـدمـا خطت قدمـاه عند اول حجـارة مرددة للصـدى فإن «سـام كاراكلوف» سمـع نباح كلب يحرس. إنه اشبه بالتحذير.

وبعـد أن تسلق الطـريق الـذي يتـذكره جيداً منذ طفولته ، ذهب الـرجـل نحـو مصـدر الصـوت . وهنـاك في مكان محجوب عن الـريـاح لصخـرة تمنـع عنهما المطر، وجد الكلب وابنه فتوقف برهة . لـم يكن هناك سوى صوت تنفسه ، ثم قال الرجل :

ـ «تعال يا «جو» . »

كان ذلك كل شيء .

نهض الـولـد بطـاعة ، وتبع والده بصمت بائس . سارا سوية مع الكلب عبـر الطـريق ، فوق حشـائشٍ الخلبـخ المتشـابكة ، في الطـريق التي يعـرفهـا كلاهمـا جيداً . وعندما اقتربا من القرية ، تحدث والده مرة اخرى :

ـ «اذهب مبـاشـرة الى البيت ، وانتظرني . سأعيدها يا «جو» الى الوجار. ثم ، اريد التحدث معك عندما اعود الى البيت بكلمة . »

أية «كلمة» ستكون . . «جو» يعرف ذلك جيداً . إنه يعرف أنه قد أسـاء لحيـاة العـائلة ـ بهروبه . وهو يعرف أن تلك الإساءة ، قد احـدثت شرخـاً بين والـديـه ، عرف ذلك تماماً من اعمال امه ،

عندما وصل الكوخ، لم تتكلم عندما خلع سترته المبللة بالماء، ووضع حذائيه بالقرب من الموقد ليجفا بينما وضعت الطعام امامه ومعه وعاء من شاي يتصاعد منه البخار. غير أنها ظلت ساكتة.

وعاد أبوه أخيراً، ووقف في الكوخ، بوجهه الصارم المتلألىء بقطرات المطر، وضوء المصباح يقطع انعكاسات حادة على انفه، وعظام وجنتيه وذقنه. بدأ الرجل حديثه:

ـ «جو». انت تعرف أنك قد قمت بعمل غير صحيح، عندما هربت مع «لاسي» إنه عمل خاطىء بالنسبة لأمك ولي.»

نظر «جو» الى ابيه بثبات، ورفع راسه، وقال بصراحة:

ـ «نعم ياأبي.»

أومأ أبوه براسه، وأخذ نفساً عميقاً. ثم وضع يده حول خصره، وفك حزامه الجلدي الثخين.

راقبه «جو» بصمت. ثم، عقدت المفاجأة لسانه، عندما سمع أمه تتحدث:

ـ «لن تفعل ذلك!»

صاحت امه:

ـ «أقول إنك لن تفعل ذلك.»

انها تقف الآن، مواجهة والده. لم يشاهد «جو» أمه هادئة من قبل مثلما يشاهدها الآن. كانت تقف هناك، وجهاً لوجه مع ابيه ثم استدارت بسرعة قائلة

ـ« اذهب الى فراشك يا «جو» مباشرة هيا اذهب.»

وعنـدمـا ذهب «جـو» مطيعـاً الأمـر، شاهـدهـا تستدير نحو ابيه وتتحدث معه بجلاء:
ـ «هناك أشياء يجب التحدث عنها أولاً . .»
ثم راحت تقول له:
ـ «وساخبرك بها مباشرة هنا، والآن. اظن انه الوقت الذي يجب أن يفعله واحد منا.»
صمت الاثنـان، عنـدمـا مر «جـو» امام امه، وهوفي طريقه الى الطـابق العلوي، فأمسكت بكتفيـه وابتسمت في وجهـه للحظة وضمتـه اليهـا بسـرعـة. ثم بحـركة حنون من يدها، دفعته نحو درجات السلم.
وعنـدمـا صعد «جو» الى الطابق العلوي، كان متعجباً، يتساءل لماذا يفهمك البالغون أحياناً، عندما تكون بأمس الحاجة اليهم؟

* * *

في صباح اليوم التالي، عند تناول الفطور، لم يفتح الموضوع، بينما كان والده هناك.
لقد تذكر «جو»، انه بعد أن ذهب الى الطابق العلوى، . الليلة الفـائتـة، بعد فترة طويلة من ذهابه الى السرير، تحدث والداه. وعنـدما استيقظ مرة، سمعهما مازالا يتحدثان في الاسفل. في الكوخ المتين، لم يسمع الكلمات، بل سمع اصواتاً:
كانت امه مصرة على الكلام، وصوت ابيه خفيض، يدمدم، وصبور.

غير ان والده لما انتهى من تناول طعام فطوره، وخرج، قالت امه :
ـ «اسمع يا «جو» . . وعدت والدك بأنني سأتحدث اليك . »
حدق «جو» في المنضدة، وانتظر.
ـ «انت تعرف الآن انك ارتكبت خطأ أيها الولد، أليس كذلك؟»
ـ « نعم ياأمي . انا آسف . »
ـ «أنا اعرف . غير أن الاسف عقب ذلك، لا يفيد . وهو شيء مهم جداً في أن لاتزعج والدك . . وخصوصاً في هذا الوقت . . يجب أن لا يحدث هذا . »
ثم جلست مرتمية على المنضدة، وهي تنظر في وجه «جو» . ثم بدأ تحديقها يذهب بعيداً عنه .
ـ «انت ترى يا «جـو» أن الاشيـاء لم تعـد كالمألوف . وعليك أن تتذكر ذلك .
والدك . . حسن . إنه يحمل أعباء كبيرة في تفكيره هذه الايام . وانت الآن ولـد كبيـر . . عمـرك اثنتـا عشـرة سنـة . . وعليك إن تجـرب لتفهم الاشيـاء، وكأنـك اكبر سناً . من الصعب الآن أن نجعل الاشياء تجري كما تشتهي، في البيت . لا طعام كلب، كما ينبغي لذلك فهذا يتطلب مبلغاً كبيراً . ان ل «لاسي» شهية جيدة جداً، وهو عمل مرهق لاطعامها كما ينبغي لها، في هذه الايام .
هل فهمتني الآن؟»
فأومأ «جـو» براسـه ببـطء بطـريقـة اظهرته نصف فاهم . آه لو أن

البـالغين يرون الأمـر كمـا يراه هو. . اراد أن يقول ذلك. غير أن والـدتـه كانت تمسح على ذراعـه. بيد نظيفـة جداً ولامعـة وممتلئة؛ اليد التي تعجن الخبز، وتتحرك بسرعة في اثناء حياكة الجوارب، وترقص فوق الإبرة عندما يكون هناك رتق. . .

- «انت فتى طيب يا «جو»! »

اشرق وجهها.

- «وسيأتي يوم من الايـام، تتغيـر فيه الاشياء من جديد، وتكون كمـا كانت عليـه في الايـام السـالفـة، وان اول شيء يجب أن تعرفه، اننا سنربي كلباً آخر. أليس كذلك؟»

«جو» لم يعرف السبب، لكنه شعر وكأن حَبّ طعام الشوفان قد التصق بحنجرته.

- «لكنني لا اريد كلباً آخر. . »

صاح. .

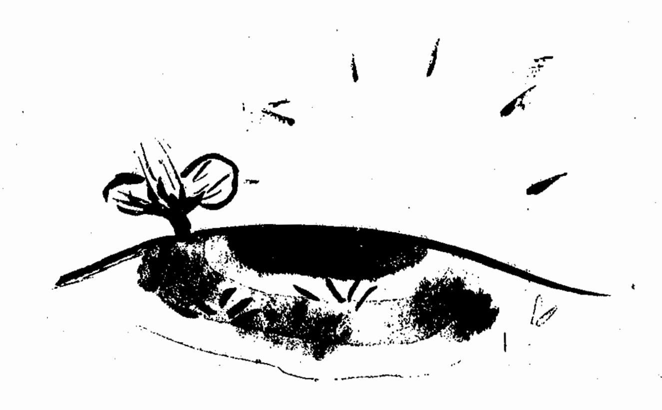
- «الى الأبد. . لا اريد كلباً آخر»

اراد أن يقول أيضاً:

- «أنا اريد «لاسي» ليس غيرها. »

غيـر أنـه يعـرف، أنـه سيؤذي امه لو قال ذلك. وبدلاً من ذلك، اخـذ قبعتـه وخـرج من البيت راكضـاً الى الشـارع، حيث كان الآخرون ذاهبين الى المدرسة.

الفصل السابع



لم تبق سوى الأمانة

كان كما قالت والدته. فالاشياء لم تكن كما كانت عليه. شعر «جو» بذلك أكثر فأكثر، بمرور الايام. لشيء واحد. لم تأت «لاسي» الى المدرسة قط. ويبدو ان مربي كلاب الدوق لابد ان اخترع أسلوباً جديداً، في احاطتها بعوائق لا تستطيع ان تتغلب عليها.

في كل يوم، بعد ان يخرج «جو» من المدرسة، يأمل وهو يركض مسرعاً، لبرهة، ومن دون ان يحول ناظريه عن الباب ان يراها

حيث تجلس دائماً. بيد انها لم تكن هناك أبداً.
وفي غضون ساعات الدراسة، يحاول «جو» ان يفكر بدروسه، غير ان فكره يسرح، مفكراً في «لاسي». كان يحارب افكاره ويقرر ان لا يقبلها، أبداً، لكنه دائماً، بعد ان يعبر ساحة المدرسة، عند انتهاء الدروس، يرسل عينيه الى المكان الذي بجانب الباب على الرغم من وعده لنفسه، بانه لن يقبلها، بعد الآن.
لم تأت الى هناك أبداً، لذلك فإن الأشياء لم تكن كما كانت عليه، ولكن لم يكن أمر «لاسي» حسب. فقد بدأ «جو» يشعر «بأشياء» أخر، لم تكن كالمألوف؛ راح يشعر بان والديه يوبخانه حول اشياء لم تكن تغضبهما في الايام الخوالي واحياناً، وعلى سبيل المثال، وقت تناول الطعام، ستراقبه عندما يضع السكر في شايه. فتزم بشفتيها، وأحياناً تقول:
- «لاتحتاج الآن الى استعمال كل هذا السكر. يا «جو».. انه.. انه.. ليس أمراً جيداً ان تأكل سكراً كثيراً. انه غير صحي.»
كانت والدته تبدو سريعة الغضب، دائماً، هذه الايام، وهذا واحد من «الاشياء» غير المألوفة.
وفي احد الايام، بينما كانت مستعدة لشراء ما يحتاجونه لذلك الاسبوع، تصرفت بغرابة.. لانه اقترح عليها ان تشتري لحماً.

- «لماذا لا تشتري لحماً ليوم الأحد ياامي، وكعكة «يوركشاير»؟[1] نحن لم نشتر ذلك منذ فترة طويلة، وانا الآن في توقٍ شديد اليها.»

وبينما كان والداه يفخران بشهيته، ويضحكان منها ويقولان انه يأكل ما يكفي فيلاً، وكأنما يواضبان على اعطائه المزيد. بيد أن أمه هذه المرة لم تعد تضحك أو حتى تجيب، لقد توقفت للحظة. ثم رمت حقيبة السوق، ومن غير ان تقول اية كلمة ركضت الى الطابق العلوي، الى غرفة النوم. أما والده فقد حدّق بالسلم برهة، ثم، من غير أي شرح او توضيح قفز صاعداً، والتقط قبعته، وخرج وهو يصفق الباب خلفه.

لقد كانت هناك «أشياء» أكثر أيضاً، ليست كالمعتاد؛ فقد راح الآن يشاهد امه واباه، غالباً، ينظران بغضب لبعضهما البعض. كانا يتوقفان عن الحديث لحظة وصوله، غير ان وجهيهما كانا ينمان انهما كان يتناقشان.

في إحدى المرات، في وقت متأخر من الليل، استيقظ، فسمعهما في المطبخ، الذي يقع اسفل. لم تكن نبرة الاصوات مسرة، كما كانت عليه في الايام الماضية. كانت النبرات محيرة وغاضبة. ثم، عندما نهض، استطاع «جو» ان

«١» كعكة يوركشاير: كعكة تصنع من لحم ودقيق وحليب وبيض مخفوق.

يسمع كلمات والده وهو يتحدث :

ـ «أخبرتك انني سرت على قدمي عشرين ميلاً في الجوار هنا، ولم يكن هناك شيء. . .»

ثم هدأ الصوت، وسمع «جو» صوت امه، خفيضاً، فجأة، وبنبرة دافئة ومريحة.

«أشياء» عديدة لم تكن كالمعتاد. وفي الحقيقة، ان العديد من اشيائهما التي لم يشعر «جو» بها، كانت معتادة. ولكنها بالنسبة اليه كانت تضاف الى شيء واحد: «لاسي».

فهم عندما كانوا يملكون «لاسي»، كان البيت مريحاً ودافئاً ولطيفاً وتعم فيه الصداقة. وبعد ان ذهبت الآن، لم يكن فيه شيء يجري على ما يرام. كان الجواب، اذن، بسيطاً. لو ترجع «لاسي» مرة أخرى. فسيعود كل شيء الى ماكان عليه.

فكر «جو» بذلك كثيراً. فطلبت منه امه ان ينسى «لاسي»، بيد انه لم يستطع. كان يستطيع ان يتظاهر بذلك، ويتوقف حديثه عنها. غير ان «لاسي» كانت دائماً حاضرة حية، في تفكيره.

كان يحافظ عليها حية في دماغه. فحين يجلس في رحلته، في المدرسة، يحلم بها. ويظن انه ربما يوماً ما ـ يوماً ما ـ سيصبح الحلم حقيقة، سيخرج من المدرسة، وستكون هناك، جالسة قرب الباب. كان يستطيع رؤيتها، كما لو انها كانت هناك، يتلألأ في الشمس سوادها وبياضها. . عيناها مشرقتان. . اذناها المستدقتان مرفوعتان باتجاهه، لتستطيع ان تسمع الصوت

الـذي يخبـر الكلب ان سيـده قريب اكثر مما تستطيع عيناها أن تفعلا. كان ذيلها يتحرك مرحباً، وكان فمها يتدلى في «ضحكة» كلب سعيدة.
ثم سيتسـابقـان في العـودة الى البيت ـ البيت ـ البيت ـ يركضان سوية عبر القرية. يركضان سوية بفرح.
هكــذا كان «جـو» يحلم. اذا كان لا يتكلم عن كلبـه، فانـه لن يقطع حلمه بها، ويأمل انه في يوم من الايام...

***

كان غسق البلد الشمـالي المبكـر يهبط عندما جاء «جو» وشاهد أمه وأباه، ينظران اليه. فتساءلت أمه:
ـ «ماالذي جعلك تتأخر؟»
ظهر صوتها ساخطاً وقصيراً، فشعر «جو» انهما كانا يتحدثان مرة أخـرى ـ يتحـدثـان كمـا اعتـادا في هذه الايـام، بنفاد صبر مع بعضهما.. فقال:
ـ «لقد تم حجزي بعد المدرسة.»
ـ «ما الذنب الذي اقترفته والذي سبب حجزك؟»
ـ «أخبرني المعلم أن أجلس، ولكنني لم اسمعه.»
وضعت امه ذراعيها على خاصرتيها:
ـ «ماذا كنت تفعل وانت واقف؟»
ـ «كنت انظر من الشباك.»
ـ «الشباك؟ على اي شيء كنت تنظر من الشباك؟»

ظل «جـو» صامتـاً. كيف يستطيـع ان يوضـح لهمـا الأمـر؟ من الافضل ألأ يقول شيئاً.

- «ألم تسمع امّك؟»

كان والده يقف غاضباً، فأومأ «جو» برأسه.

- «اجبها إذن. الى اي شيء كنت تنظر من الشباك، في ساعات المدرسة؟»

- «لم استطع ان اتمالك نفسي.»

- «هذا ليس جواباً، ماذا تقصد انك لم تستطع ان تتمالك نفسك؟»

شعـر «جـو» بيأس حتى كأن كل الاشيـاء تنهمر فوقه - أبوه الذي كان يفهمـه عادة لدرجـة كبيـرة، هو الآن غاضب عليه. شعر ان الكلمات بدأت تتسابق للخروج من فيه:

- «لم اتمـالـك نفسي، لأن الساعة كانت تقرب من الرابعة. انه موعـدهـا سمعت كلبـاً ينبح. بدا لي انها هي.. نعم.. ظننت ذلـك حقـاً. لم استطـع تمـالك نفسي. لم اكن اعرف ما كنت افعـل ياأمي. حقـاً، كنت انظر من الشباك لأرى ان كانت هي، فلم اسمع السيد «تيمز» وهو يطلب مني ان أجلس، ظننت انها «لاسي» ولكنها لم تكن هناك.»

سمع «جو» صوت أمه يرتفع بنفاد صبر:

- «لاسي»، «لاسي»، «لاسي»! آه لو لم اسمـع بهـذا الاسم بعد الآن!

ألا يحل السلام والهدوء في بيتي . . . . ؟»
شعر «جو» بكل ذلك . آه لو أن أمه تستطيع ان تفهم .
كانت اللحظة متأخرة جداً بالنسبة له . شعر بحرارة ترتفع في حنجرته . فاستدار ثم ركض نحو الباب . ثم نحو ممر الحديقة ، في الليل العميق . واستمر يركض حتى وصل الى المستنقع .
لن تعود الاشياء صحيحة ، ابداً!

* * *

كان الظلام يعمّ المستنقع ، عندما سمع صوت وقع خطوات وصوت والده :
- «اذاك هو انت يا «جو» ، ابني؟»
- «نعم ، يا أبي !»
بدا ان والده لم يعد غاضباً . شعر «جو» بالراحة عند اقتراب الشخص الطويل القوي ، الذي انحنى بجانبه .
- «كنت تتمشى يا «جو»؟ »
- «نعم ياأبي»
أجاب «جو» .
شعر بيد والده على كتفه ، وسارا سوية في الفضاء الواسع . .
ولفترة طويلة ، لم يقولا شيئاً . بدا وكأنهما راضيان بانهما معاً سوية . ثم بدأ والد «جو» الحديث :
- «تتمشى الان يا «جو» . انه شيء بطولي لتفعل هذا ، أليس كذلك يا «جو»؟
- «نعم ياأبي» .

أومأ أبـوه برأسـه وبـدا انه سعيد تماماً بحالته وبجواب ابنه . سار بحـريتـه ، فحاول «جو» ان يوسع خطاه ليستطيع اللحاق بخطى والـده الثـابتـة القـويـة . ابتدأا يصعدان سوية ، من غير ان ينبسا ببنت شفة . . كانا فوق الصخور، فجلسا ، حتى بدأ الهلال من خلف قزع[1] في السماء، وكان باستطاعتهما مشاهدة المستنقع يمتد امامهما .

شاهـد «جـو» والـده يضع في فمه غليونه الفخاري ، ثم ، بشرود ذهن ، راح يفتش جيباً بعد جيب، حتى اعاده عقله الى ما كان يفعله ، ثم توقفت يداه وبدأ يمص غليونه الفارغ .

ـ «ليس لديك تبغ ياأبي ؟»

تساءل «جو» .

ـ «لم لا يابني . . ان . . حسن . الاوقات كما هي عليه الآن انها

ـ لقد توقفت عن التدخين . »

قطب «جو» جبينه .

ـ «هل السبب اننا فقراء ياأبي ، وانت لا تستطيع شراء أي تبغ ؟»

ـ «لا ، الآن ياولدي نحن لسنا فقراء . »

أكد والد «جو» بصرامة .

ـ «انهـا مجـرد ازمة ، ليست معتادة و ـ حسن ، على اية حال فقد دخنت كثيراً . انه شيء جيد لصحتي ان اتوقف قليلاً . »

جلس «جو» مفكراً . وعرف ـ وهو جالس بجانب والده في العتمة ـ ان والده كان «يسهل الامر له» . لقد عرف ان والده كان يحميه

«١» القزع : سحاب عال متفرق، تسوقه الريح .

من المتـاعب التي لدى البـالغين . وفجأة شعـر «جـو» بالامتنان لوالده، الذي كان كبيراً وقوياً والذي تبعه الى المستنقع ليحاول اراحته .

مد يده ليمسك بيد والده .

ـ «أنت لست غاضباً مني ياأبي أليس إكذلك؟»

ـ «لايا «جو» ان الاب لا يغضب من ابنه ـ قط . انه يريد منه ان يفهم كيف هي الاشيـاء . ذلـك ما أردت ان أقـولـه. لا تظن اننا قاسيـان عليـك . لانـريـد ان نكـونـا كذلك . ان الامر ـ حسن ـ يجب على الولد ان يكون أميناً يا«جو» . ويجب ألّا تنسى ذلك ، طوال حياتك ، مهما حدث . يجب ان تكون أميناً . »

جلس «جـو» ساكنـاً . لقد بدأ والده الآن يتحدث ، وكأنه مع نفسـه ، من غيـر ايمـاء وكـان جالسـاً بسكون تام ، يتحدث نحو الظلمة المعتمة .

ـ «وفي بعض الاوقـات ، وعنـدمـا لايملك الفتى كثيراً يا «جو» ، يتمـاسـك لأن يكـون أميناً أكثر من أي وقت مضى لان ذلك كل ماقـد تركه . وهو يبقى ، في الاقل ، أميناً . وهناك شيء مضحك في الامانة ، اذ لايوجد طريقان لها بل لها طريق واحد . فالأمانة هي الأمانة . . هل فهمت؟»

لم يفهم «جـو» تمـامـاً ، ماقـالـه والده . لكنه عرف انها لابد وان تكـون مهمـة جداً لوالده ، لدرجة انها جعلته يتحدث بمثل هذه الجمـل الطويلة . كان والده ، في العادة ، يقول «نعم» أو «لا » ، غير انه الآن يحاول ان يتكلم . ونوعاً ما ، يستطيع «جو» أن يشعر

باهمية . ماكان والده يحاول ان يظهره له .

ـ «لقـد عملت لمـدة سبـع عشـرة سنـة يا «جـو» في «كـلارا بل بيت» . سبـع عشـرة سنة وقت جيد ووقت سيء، وقت بكامله، ووقت مقتطع . . حتى اصبح مربي كولي جيداً، كما يشهد أي واحـد من زمـلائي . في تلك السنـوات السبـع عشـرة يا «جو»، كنت هدفـاً للكثيـرين، الذين يعملون معي . ولكن لم يقل أحد يابني في تلك الفتـرة كلهـا ان «سـام كاراكلوف» قد أخـذ شيئـاً لايخصـه، او تكلم بغيـر الحقيقـة، تذكـر ذلـك يا «جو» إن في منطقـة «وست رايـدنـك» هذه كلهـا، لايستطيـع رجل ان يقف ويقول ان «كاراكلوف» لم يكن أميناً .

«وهذا ماأعنيه بالتمسك بالشيء الذي تحصل عليه . الأمانة طريق واحـد ليس غيـره . انها لاتكون اثنتين . وانت الان كبير، فتفهم الآن انـك عنـدما بعت الفتاة، واخذت ثمنها، وصرفته؛ حسن ماحدث قد حدث . و«لاسي» قد بيعت، وهذا كل مافي الامر . . . »

ـ «ولكن ياابي، انها . . . »

ـ «الآن، الآن يا «جو» لا تستطيع ان تغير من الامر شيئاً . لا يهم كل ما تقـولـه . لا نستطيـع ان نغيـر شيئاً وهي قد بيعت، وقبضنا نقود الدوق وصرفناها، وهي الآن تعود اليه . »

جلس «سـام كاراكلوف» ساكنـاً للحظة، ثم تحدث مرة أخرى، وكأنه يناجي نفسه :

ـ «الـذي حدث مع احسن شيء . ليس هنـاك طريقـان لهـا فقد

صعب الحصول على طعامهما . ان كلباً مثلها يأكل كما يأكل طفل نام بصورة جيدة . »

ـ «كنا دائماً نطعمها ، من قبل . »

ـ «نعم يا «جو» . ولكن عليك ان تواجه اشياء . فقد كنت اعمل ، من قبل ولكنني الآن ، يجب ان أجابه الامر معك ـ انا الآن اعيش على المعونة المالية ، وأنت لا تستطيع ان تطعم كلباً بوساطتها . أنت لا تستطيع ان تطعم عائلة بها . كان من الافضل أذن ، ابعادها .

«لماذا تنظر الى الامور بهذه الشاكلة ، يابني ، أنت لا تريد ان تبدو «لاسي» شاحبة وهزيلة ومسكينة ، انت لا تريدها تشبه كلاب بعض الاولاد الذين في الطريق . . اليس كذلك؟»

ـ «نحن لا نجعلها تهزل ياأبي . نستطيع تدبر الامر. لا احتاج الى ان آكل كثيراً . . . »

ـ «الآن يا «جو» . ليست هذه الطريقة هي التي يجب ان تفكر بها . »

صمتنا ، ثم بدأ الرجل يتحدث ثانية .

ـ «فكر بهذه الشاكلة يابني . انت الآن مولع بالكلب . . أليس كذلك؟»

ـ «انت تعرف انني كذلك ياأبي . »

ـ «حسن اذن . . اذا كان الامر كذلك ، فيجب ان تكون سعيداً حقاً ، لانها جيدة جداً وهي بعيدة ، فكر بهذا حسب يا «جو» . فان «لاسي» الآن تحصل على الكثيرلتأكله .

ولهـا وجـار خاص بها وكل شخص يعتني بها. لماذا اذن يابني؟ انها تشبه اميرة تعيش في بلاطها الخاص وفي الحديقة. هذا هو الامر. انها مثل أميرة مهمة الآن. أليس الامر لطيفاً لها؟»

ـ «لكنها ياابي أكثر سعادة لو. . .»

زفر الرجل بسخط.

ـ «آه يا «جو»! لا شيء يسرك! حسن اذن، ربما من الافضل ان أضـربك على كتفك. ربما هذا سينظف دماغك من «لاسي»، لانك لن تراها بعد الآن.»

ـ «لكنها قد تهرب. . . .»

ـ «لا، يابني لا! لقـد هربت للمـرة الاخيـرة. ولن تهـرب بعـد الآن. . ابداً!»

ـ «ماذا فعلوا بها؟»

ـ «حسن. . عنـدمـا اخـذتهـا آخـر مرة، غضب الـدوق مني و «هـاينـز» والجميـع، كثيراً. فاصبحت مجنوناً معه، لانني لست مدانـاً له ببنس واحـد، الـدوق اوغيـر الـدوق، وقلت له لو انها هربت مرة أخرى، فانه لن يشاهدها أبداً، وقال هو لو انها هربت مرة اخـــرى، فانني يجب ان ارحب بهـا، لكنـه لا يظن انهـا ستفعل. لذلك أخذها معه الى مكانه في اسكتلندة. انه يستعد لعـرضهـا في المعـرض. لقـد ذهب «هـاينـز» معهـا مع نصف درزينة من كلاب العرض، ولكن بعد المعرض، ستذهب الى اسكتلندة، ولن تبقى هنا في «يوركشاير»، ابداً.

ـ «انها تبقى هناك اذن لصالحها، فوداعاً وحظاً سعيداً لها. ولن

تعـود الى البيت بعـد الآن . لم أكن اريـد ان اخبرك بهذا ، لكن الامور حدثت كذلك وان مالا نستطيع ان تفعله في هذه الحياة ، يجب ان نتحمله يابني «جو» . فتحمل ذلك كرجل ، ولا تتحدث عنها كلمة اخرى ، مادمنا على قيد الحياة وبصورة خاصة امام أمك . »

ثم وجـد «جـو» نفسه يتعثر في الطريق الصخري ، وكانا يتجهان نحـو المستنقـع . لم يكن والـده يسـاعـده ، ولكنـه بالكـاد يسير بمحاذاته ، وهو ما يزال يمص غليونه الفارغ .

لم يتحـدث الـرجـل ! إلاّ بعـد ان اصبحـا قريبين من القـريـة ، واستطاعا مشاهدة الشبابيك مضاءة .

ـ «قبل ان ندخل يا «جو» . . . »

قال الرجل .

ـ «أريدك ان تفكر بامك . انك كبير، ويجب ان تحاول ان تكون مثل الرجل لها ، وان تفهمها .

النسـاء يا «جـو» لسن مثـل الرجال . اذ عليهن البقاء في البيت ، وهذا ما يفعلنه ، ويدبرن الامر بكل ما يستطعن . وما لم يحصلن عليه . . فانهن يحصلن عليه بالتمني .

وعنـدمـا تجري الامور بما لاتشتهي السفن ، فانهن يتحدثن عن ذلـك ، ويعطين للرجـال كلمـات ساخنة ، ولكن لو ملك الرجل حقـاً ، ايـة نبـاهـة ، فانـه يعطيهـا ذلـك الكثير . لانه يعرف انها لاتقصـد شيئـاً عنـدمـا تتـذمر وتتضايق ، بل يدع لسانها يقول ما يشاء . عليك اذن ان تضع ذلك في ذهنك ، عندما تتحدث امك

بخشونة معي ، أو تصرخ في وجهك أحياناً. فانها تتحمل اعباء كثيرة هذه الايام ، وهي تحاول الصبر.
نحن علينا اذن ان نتدرع بالصبر، يا «جو». أنت وانا. ثم يوماً ما، ستتحسن الامور ويجود الزمان لنا جميعاً، اتفهمني ياأبني ؟»
ضغط والد «جو» على ذراع ابنه بسرعة ، في حركة تشجيعية ؛
- «نعم ياأبي . »
قال «جو» .
ثم توقف لحظة بينما كان ينظر الى القرية المضاءة .
- «ياأبي . . هل المسافة بعيدة الى اسكتلندة؟»
توقف الرجل ، وغاص رأسه في صدره العريض ثم تنفس بعمق وحزن .
- «الطريق طويل ، طويل يا «جو» . ابعد من المسافات التي ستقطعها في سفرك . ان الطريق طويل، طويل . »
ثم ، اتجها سوية بحزن ، الى القرية .

الفصل الثامن



اسير في الأراضي المرتفعة

انـه، كما قال «سام كاراكلوف» لابنه: «طريق طويل، طويل»، من قريـة «كـرينـول بريـدج» في «يوركشاير» الى مقاطعة الدوق «رودلنـك» في الاراضي المـرتفعـة الاسكتلنـدية. انه ابعد مما ترغب ان تسير اليه.

وللتـوجـه الى هنـاك، عليك ان تتجه مباشرة، شمالاً وفي البدء يجب عبـور المستنقعـات والنجـود الموجودة في «يوركشاير» ثم تعـرج شرقـاً، وتجتـاز اراضي بريـة، ثم تمـر عبر مناطق زراعية

غنيـة . . ولـو كنت مسـافـراً بالقطـار، ونظرت يميناً من النافذة، فستشـاهـد بحـر الشمـال، يتلألأ اسفل المنحدرات الصخرية الشاهقة. وعلى يسارك ستكون ابراج المدن العتيقة، ثم اعمدة السخـام القـاتمـة فوق المـراكز الصناعية في «دورهام»، حيث تنتصب مصـانـع بنـاء السفن بمحـاذاة مصبات الأنهر، والفحم يُنزله القطار الى ارصفة الموانيء.

ان الظلام يهبط مبكراً، وانت تسافر، لان هذه الارض في خط عرض مرتفع، حيث تغرب الشمس مبكرة، وتشرق متأخرة. غير ان قطـارك سيستمـر مواصـلاً سيره، يزعق في الظلمة، وهو يعبر فوق الجسور، قاطعاً الانهر، حتى يقطع اخيراً نهر «تويد» وهذا يعني انك تركت انكلترة وراءك.

امـا خلال الليـل فسيمـر القطـار، وهـو يجعجـع وسـط المـدن الصنـاعيـة للاراضي الاسكتلنـديـة المنخفضـة، حيث الافران واكيـار الحـدادين تتوهج في الظلام اكثر منها في النهار. وخلال الليل، سيمر القطار فوق جسور جبارة تحملك عبر مصبات نهر عريض.

وعنـد الصبـاح، سيـواصـل قطـارك سيـره، وسيتغيـر الآن البلد حسب فلن تعـود هنـاك مدن تقـذف الـدخـان. وبدلاً من ذلك ستشـاهد الارض الاسكتلندية الجميلة، التي تغنى بها الشعراء لعـدة قرون؛ حيث الجبـال الـزرق، والبحيرات ذات الجوانب الخضر، والارض المتموجة وحيث يراقب الرعاة قطعانهم.

وسيستمـر قطـارك مواصـلاً سيـره، وعنـدها تصبح الارض اشد

وحشـة، والتـلال اكثـر وعـورة، والبحيرات تتقارب وتلتصق مع الغابات. وستزداد الوحدة قسوة. . والآن ستطالعك الامتدادات العظيمـة لنبـات الخلبـخ، حيث لايشـاهـد الـرجال الا نادراً، وحيث لاتـزال الغـزلان تتجـول. وبعدها ستواصل سيرك، نحو اعلى الارض الشمـاليـة. وهنـاك في اقصى منطقـة، توجـد المقـاطعـة الاسكتلنـديـة العظيمـة لدوق «رودلنـك»، البيت الصخري الذي يطل على البحر، باتجاه جزر «شيتلاند»، تلك المواقع من الارض الغريبة، المطوقة بالصخور، حيث تصعب الحيـاة، ويقسـو الجـو وكأن قد كيفت سبـل الحياة باسلوب جديـد، كي يستطيعـوا مواصلة الحيـاة؛ فقـد أصبحت الخيول والكـلاب صغيـرة الحجم، بيـد انهـا قويـة اكثـر من المعتـاد، لتستطيع الاستمرار في العيش في الارض القاسية، ذات المناخ القاسي.

وهنـاك، بعيـداً في أرض الشمـال تلك، كان بيت «لاسي» الجـديـد. انهـا هناك تطعم بدقة. فيقدم لها أفضل الطعام وفي كل يوم يمشـط شعرها ويسوى بالفرشاة، وتقلم اظافرها، وتعلم كيف تقف بصـورة لائقـة، حتى تشـارك يومـاً ما في المعـارض الكبيرة وتجني شهرة جديدة أكثر لدوق «رودلنك» وكلابه.

كانت تخضع بصبر لكل معاملة من «هاينز»، وكأنها كانت تعرف ان لا جدوى من ابـداء أي احتجـاج، ولكنهـا في كل يوم قبـل الساعة الرابعة بالضبط، عصراً، يستيقظ شيء في داخلها، انه التـدريب الـذي تلقتـه في فتـرة من حيـاتهـا، يناديها. فتحاول

تمـزيق الاسـلاك التي تحيـط بوجـارهـا او تنـدفع نحو السياج ، وتحاول الوثوب من فوقه .
انها لم تنس .
في هواء الاراضي المـرتفعة ، النقي الصحي البارد ، ركب دوق «رودلنـك» مع بطـانتـه . بجـانبه ، وفوق جواد قوّي مرح ، قصير القوائم ، كانت «بريسيلا» ، حيث أحنى حصانها رقبته ، واندفع بمرح .
- «ايديكم ، »
دمدم الدوق .
- «ذلك ماتفعله . اجمعوها الآن بخفة هيا ايتها الايدي الطيبة . »
ابتسمت «بـريسيلا» . لأن جدها يعد نفسه ذا سلطة على جميع الحيـوانـات التي لا يستطيع امتطاءها من غير ان يكيل لها سيلا من التـوبيـخ . غيـر انـه في الحقيقـة ، كان فخـوراً جداً بطريقة ركوب «بريسيلا» ، وهي تعرف ذلك . ثم زمجر :
- «لـذلـك السبب منحتـك الطبيعـة يدين وسـاقين . فالسـاقـان تدفعان الحصان للامام ، واليدان للّجام . وهكذا تفعل الساقان واليدان»
جلس الدوق منتصب القامة ليعطي مثلاً ، لكن حصانه الرمادي القَـوي دلف بصبـر ، من غيـر ان يغيـر خطوه أوسير عربته . وفي الحقيقـة لو ان الـدوق واصـل طريقـة ، علي الـرغم من سنـه ، لاستمـر يمتطي اكثـر خيـول الـركـوب نشاطاً ، لكن جميع افراد عائلتـه ، الـذين بدا انهم قد تحـالفـوا عليـه ، قد تآمروا ليحددوه

ويجعلوه يمتطي حصـانـاً غيـر نشيط، هو الذي يمتطيه الان وان «بـريسيـلا» كانت تعرف ذلك أيضاً، لذلك فقد أومأت برأسها، وكـان حصانه الذي يمشي ببطء قد اندفع بشجاعة وفخر يمشي مشية رقة متكلفة. . فقالت:

ـ «آه. . فهمت الان ما تعني، ياجدي. .»

لقـد انتفـخ صدر الدوق بسعادة. لانه في الحقيقة، كان فرحاً. في سنـه المتقـدمة هذه، حين يجد القليل من التسلية التي هي اكثر من تسلية حفيدته، ولا يتمنى شيئاً في هذه الايام، أكثر من ركوب الخيل والسير حول مقاطعته الشمالية.

ـ «انظري الى هذا الجو! انه مذهل! رائع!»

صاح ذلك بخيلاء المالك، وكأنما كان دوق «رودلنك» وحده، مسؤولاً عن رائحة الجو العبقة، وحرارة الشمس اللطيفة.

ثم صرّح بفرح:

ـ «الصيف كله هنا. الصيف كله. ثم في الخريف، العودة الى «يوركشاير». ثم سنستمتع سوية، بوقت طيب أكثر.»

ـ «لكنني سأعود في الخريف الى المدرسة وسأكون بعيدة، في سويسرة، ياجدي!»

ـ «سويسرة!»

هدر الدوق بالكلمة في نبرة مرعدة لدرجة ان حصان «بريسيلا» وثب بخفة ست أقدام بجانب الطريق.

ـ «ولكن يتحتم عليّ الذهاب الى المدرسة، ياجدي.»

ـ «هراء،»

أرعد الدوق .

ـ «ارسال البنات للمدرسة في اراضٍ غريبة ، وتعليمهن الثرثرة بلغات اجنبية ، مثل القردة . لا استطيع ان افهم لماذا نكلفهم هذه الاشياء ، مثل لغات اجنبية انظروا الي . ان الانكليزية كافية لي . ولم اتكلم بأية كلمة لأية لغة أخرى ، في حياتي . وها انا ذا اسير سيراً حسناً . . أليس كذلك؟»

«لكنك ياجدي لا تريدني أن أكبر وأنا جاهلة أليس كذلك» .

ـ «جاهلة ! أنت متعلمة بما فيه الكفاية ؛ وان كل هذا الهراء الحديث ليس تعليماً وتعليم فتاة كيف تثرثر في نوع غير معقول من اللغات لا يفهمها سوى الاجانب مجرد هراء معاصر ، هذا ما ادعوه ! ففي أيامي ، علمنا الناس كما ينبغي لهم . »

ـ «كيف كما ينبغي لهم ياجدي؟»

ـ «أعلمك كيف تديرين البيت ، هذا ما افعله . في يومي ، حيث تربى البنات ليقمن بواجبهن ويدرن البيت كما ينبغي له اما في هذه الايام فانهن يملأن رؤوسهن بالهراء . أفٍ ، من هذا الجيل المعاصر انهم ينمون على الوقاحة ودائماً يعارضون الاكبر منهم سناً . لا احترام عندهم للسن ، هكذا . انت تعارضينني ، حسن اني امنع ذلك ولا اريد اية وقاحة بعد الآن ! لانك وقحة ، أليس كذلك ؟»

ـ «نعم ياجدي . »

ـ «نعم؟ نعم؟ تجرؤين ان تقولي نعم مباشرة في وجهي ؟»

ـ «عليّ ان أفعل ذلك ياجدي . اخبرتني تواً ألا اعارضك ، ولو

قالت لا . فسأكون قد ناقضتك . . أليس كذلك؟»
- «هم م م! هم م م!»
قال الدوق .
ثم مسد شاربه الاشيب الطويل منتصراً ، وكأنه قد ربح معركة ثم نظر نحو حفيدته ، بشعرها الاشقر الفاتح الذي ينسدل تحت قبعة ركوبها الانيقة ، والمسترسل فوق كتفيها وسعل ونخر ، وراح يزهو بشاربه ثانية ، ثم ابتسم وأومأ برأسه ، وقال :
- «أنت لعوب وقحة . . ولكن يوجد بعض الامل فيك فأنت تعرفين ، انك بالضبط مثلي عندما كنت في سنك . انت تشبهينني ، انت هكذا ، انت تحذين حذوي انت الوحيدة من العائلة! لذلك يوجد بعض الامل فيك . »
قعقعت الجياد فوق ارض الاسطبل المرصوفة بالحصى ، وتكلم الدوق بازدراء عندما خرج السائس ليأخذها .
- «لاترفع رأسه ايها الرجل . »
صاح بوجه السائس .
- «أكره من يرفع رأس حصان وانا أنزل . انني استطيع النزول على احسن مايرام ، من غير مساعدة اي أحد .»
وقف الدوق ثائراً ويستشيط غضباً ، في حاله المزاجي السيء ، بينما كانت «بريسيلا» تخفف حزام سرج حصانها وتقوده نحو المربط .
- «هذا صحيح . »
صاح في نبرة دلت على قمة رضاه .

ـ «يجب الا يسمح لفتاة ان تركب حصاناً، لا تعرف كيف تطعمه وتسرجه ولو كنت نفسك لا تعرفين ذلك، فلن تكوني قادرة على تكليف أحد ان يفعله كما ينبغي لذلك.»
وهكذا، في هذا المزاج الحسن، بدأ الرجل العجوز وحفيدته يسيران بمحاذاة الاسطبلات، نحو القصر العظيم ثم توقفت «بريسيلا» عندما جاءا بالقرب من بناء حجري خفيض، اذ بجانب البناء كانت اماكن الكلاب. في كل مكان، كان كلب يثب وينبح في هرج ومرج فيما عدا زريبة واحدة. ففيها كانت كولي الجميلة ذات الالوان الثلاثة لم تكن تثب او تنبح وبدلاً من ذلك كانت واقفة، ورأسها متجه نحو الجنوب. حيث كانت تحدق في الفضاء.
وكان ذلك الكلب الذي شاهدته »بريسيلا».
ـ «ماهذا؟ ماذا يجري الآن؟»
قال الدوق بنزق.
ـ «ذلك الكولي، لماذا ربط بالسلاسل ياجدي؟»
نظر الدوق وركز انتباهه على الكلب وسكن للحظة، ثم بدا وكأن انفجاراً قد دوى فيه حيث ارتفع صوته لدرجة ان الاسطبلات والأوجرة قد ارعدت.
ـ «هاينز»! «هاينز!» اين يختفي ذلك الرجل؟ أين هو؟»
ـ «قادم ياسيدي. قادم.»
جاء صوت «هاينز»، بينما كان مربى الكلاب يهرول من الجانب الآخر.

ـ «نعم ياسيدي . . اهه . . نعم . »
اندفع الدوق :
ـ «حسن . . لا تدُرْ حولي مثل ذلك . »
جأر الدوق .
ـ «ماذا يفعل ذلك الكلب المسلسل؟»
ـ «حسن . . تحتم عليّ ربطها بالسلسلة ياسيدي . انها تمزق وتخربش السلك .
وقد اصلحته لأكثر من عشر مرات ، وبعد كل ظهيرة ، تفعل الشيء نفسه . اخبرتني ان أتأكد و. . . »
ـ «لم اذكر سلسلة ابداً! لا يربط كلب من كلابي بسلسلة ، أتفهم ذلك؟»
ـ «نعم ياسيدي . »
ـ «لا تنس ذلك إذن . لاكلب . . أبداً!»
اندفع الدوق في غضب ، وضغط على اصابع «بريسيلا» ثم نظر اليها بينما كانت تجر كمه .
ـ «جدي ، انها لا تبدو على ما يرام . لاتبدو انها قد تريضت . ألا تجعلها تسير معنا؟ انها لطيفة جداً!»
هز الدوق رأسه .
«لا تستطيع أن نفعل ذلك ياعزيزتي . انها غير مهيأة بعد . »
ـ «غير مهيأة؟»
ـ «نعم . سأريها ، انها بطلة . لو سمحنا لها بمرافقتنا ، فسوف يخشوشن شعرها ، وستتمزق اكسية . سيقانها وتتلف . لا

استطيع ان اتحمل ذلك، كما تعرفين.»
ـ «ولكن عليها أن تتريض قليلاً، أليس كذلك؟»
حدق الاثنـان في الكلب الـذي خلف الأسـلاك حيث وقفت «لاسي» متجـاهلة ايـاهما، وكأنها كانت ملكة، وهما أدنى منها بكثير لدرجة انها لاتراهما.
مسح الدوق ذقنه.
ـ «ستنفعها بعض التمارين.. «هاينز!»»
ـ «نعم، ياسيدي؟»
ـ «انها تحتاج للسير وعليك ان تراعي السير بها سيراً جيداً كل يوم.»
ـ «ستحاول الهرب ياسيدي.»
ـ «ضع لها رسناً، أنت أيها الأحمق! سر بنفسك معها. احرص على تمرينها. أريد ذلك الكلب في أحسن حال.»
ـ «نعم ياسيدي.»
اتجـه الـدوق و «بـريسيـلا» نحـو القصـر. بينمـا راقب «هـاينز» ظهريهما عندما اختفيا عن البصر وبعدها ارتدى قبعته بوحشية. ثم وضع قفايده في فمه، وتوجه نحو الكلبة وقال:
ـ «عليـك إذن أن تمشي، أليس كذلـك ايتها الكريمة المحتد؟ حسن.. سأجعلك تسيرين.»
غيـر ان الكلبة لم تعـر أهميـة، لصـوتـه بل وقفت وهي تحـدق أمامها.. تحدق نحو الجنوب.

الفصل التاسع



أخيرا الحرية ثانية

لقـــد كانت حاسّة الـوقت لدى «لاسي» دقيقـة تلك الحـاسـة الغريبة لدى الحيوان التي تخبره عن الوقت في اليوم، بدقة.

كان على «لاسي» ان تتبـع تدريبهـا الذي حصلت عليه في فترة حياتها وان تطيع الامر المقال وان ترجع الى «هاينز» وهو يأمزها.

لكنها لم تفعل.

حدث الامــر مع لاسي، بينمـا كانت تسير بمحـاذاة «هـاينـز» طائعـة. كان الـرسن حول عنقهـا لكنها لـم تشد بقوة الى امام او

تتـريث الى خلف فبشـدها بقوة بل كانت تسير كما ينبغي لكلب مدرب تدريبـاً حسنـاً، قريبـة من العقب الايسـر، حتى يلامس رأسها، دائماً ركبة «هاينز».

كل شيء كان يسير بانتظام كما يتمنى، فيما عدا ان «هاينز» لم ينس امتعـاضـه لانـه قد اجبـر نفسه على التريض والتمرن حتى تكـون «لاسي» في وضـع جيـد. اراد الرجوع لشرب شايه ـ وهو لما يزل يريد ان يري «لاسي» «من هو المسؤول».
وهكذا من غير ضرورة أبداً، شد الرسن فجأة وقال بحدة:
ـ «تعالي . . الا تفعلين؟»
شعـرت «لاسي» بالشـد المفـاجىء على رقبتها فترددت. كانت مرتبكـة قليـلاً. عرفت من خلال تدريبهـا الطـويـل، انها كانت تفعـل ماهـو مطلوب منهـا، بدقـة؛ وعلى الـرغم من ذلك، بدا واضحاً ان هذا الرجل كان يتوقع شيئاً آخر. لم تكن متأكدة من ذلك الشيء.

لذلـك وفي لحظـة تردد، خففت من خطـوتهـا. فلاحظ «هاينز» ذلك، بفرح ثم استدار وسحب الرسن، وصاح:
ـ «تعالي، حالاً. تعالي عندما اخبرك بذلك.»
تراجعت «لاسي» بسبب النبـرة المهـددة. بينمـا سحب «هاينز» ثانيـة. فعلت «لاسي» ما يفعله أي كلب. استعـدت للحبـل، وخفضت راسهـا فشـد «هاينز» اكثر. حتى انزلق الرسن من فوق

رأس «لاسي» .

لقد تحررت !
في الجزء من الثانية التي لاحظ فيها «هاينز» ذلك ، تصرف وفقاً لطبيعته ، وليس وفقاً لمعرفته الخاصة كمربي كلاب حيث قفز ليقبض على «لاسي» بينما قفزت هي مبتعدة، بصورة غريزية ، لتتخلص منه .
فعل هاينز» شيئاً واحداً . اظهر ل «لاسي» بصورة واضحة انها تريد ان تبعد عنه . انه تحدث معها باسلوب مألوف فلربما ستأتي اليه . وفي الحقيقة ، لو طلب منها ان تغضبه ، لربما تبعته عائدة الى الوجار، ليس اكثر من عاداتها التي دربت عليها في اطاعة الانسان .
لقد كان «هاينز» مدرب كلاب ، يفهم تماماً هذا ، ويفهم انه قد ارتكب غلطة سيئة ، فلو تحرك فربما سيخيف الكلب اكثر .
لذلك راح يفعل ماتوجب عليه ان يفعله في بادىء الأمر .

ـ «هنا ، تعالي هنا لاسي»
ـ «فوقفت «لاسي» في حيرة ، غريزة واحدة أخبرتها ان تطيع ، غير ان ذكرى الفقرة المفاجئة ما تزال طرية جداً .
لاحظ «هاينز» ذلك . فرفع صوته بنبرة عالية متملقة ، ظن انها ربما تغريها .

ـ «يا «لاسي» اللطيفة. ايتها الكلبة اللطيفة. ايتها الكلبة اللطيفة ـ والآن ابقي هناك. والآن لا تتحركي. ابقي هناك.»

انحنى نصف انحناءة حتى ركبته وطقطق اصابعه ليجذب انتباه الكلبة. وبدقة متناهية، راح يزحف مقترباً، بوصة بوصة، وقال لها آمراً.

ـ «والآن قفي هادئة،»

وبدا ان تدريب العمر الذي أعطاه «سام كاراكلوف» الى «لاسي» قد أظهر تأثيره الآن.

وبالرغم من ان «لاسي» تكره «هاينز» فانها قد دربت على وجوب اطاعة المخلوقات البشرية الذين يتحدثون معها بكلمات آمرة.

بيد ان هناك نبض عمر آخر راح يحركها، بالرغم من ضآلته؛ انها حاسة الوقت.

بدأ يستيقظ في داخلها، معتم، ضبابي. لم تكن تعرفه او تعقله او تفكر فيه بوضوح كما يستطيع الرجل لقد بدأ ينمو فيها ضعيفاً انه مجرد اهتياج ضعيف.

لقد كان وقت ـ وقت الـ وقت الـ . . . .

راقبت «هاينز» وهو يزحف أكثر. رفعت رأسها قليلاً.

لقد كان وقت ـ وقت الـ ـ وقت الذهاب . . .

تقدم «هاينز» اكثر وفي لحظة أخرى سيقترب بما فيه الكفاية، ليقبض على الكلبة. وليجعل أصابعه تغوص في عرفها الثقيل المليء، ويمسكها حتى يستطيع ان يضع مقود الرسن في رأسها

مرة أخرى.
راقبته «لاسي» بينما كان الشيء الذي في داخلها قد بدأ يتضح أكثر.
لقد كان وقت ـ وقت الذهاب إلى . . .
جمع «هاينز» نفسه. وكأنّ «لاسي» قد شعرت بذلك، فتحركت.
وبسرعة تراجعت خطوتين عن الرجل الزاحف لانها ارادت ان تكون حرة طليقة.
وكأنما أحس بالغلطة التي اقترفهافبدأ ثانية:
ـ «يا «لاسي» اللطيفه. ، الان قفي هادئة هناك. قفي هادئة. ابقي هناك. »
لم تعد «لاسي» تصغي اليه الأن، على أية حال. كانت تراقب الرجل بجزء قليل من حواسها فقط، وهو يقترب أكثر وكل ما بقى فيها كان رغبة تزداد نحو ذلك الذي يعتمل في داخلها، والذي بدأ يتضح أكثر فأكثر فقد أرادت وقتاً. وشعرت لو ان الرجل وصل اليها، فستصاب بالخيبة مرة اخرى.
وهكذا خطت نحو الخلف ثانية. وفي تلك اللحظة، بالضبط، وثب «هاينز».
اما «لاسي» فتفادت ذلك جانباً.
انتصب «هاينز» في وقفته، وهو غاضب ثم سار باتجاهها، يحدثها بلطافة الا انها تراجعت فقد كانت تحافظ، دائماً على نفس المسافة، بين «هاينز» وبينها. المسافة التي يعرفها

الحيوان جيداً والتي تجعلها بعيدة عن مدى العدو.
وربما كانت غريزتها تقول:
- «ابتعدي عنه. لاتدعيه يطالك. يوجد هناك شيءآخر. انه الوقت - وقت الذهاب - وقت الذهاب إلى...»
ثم، فجأة، في تلك اللحظة، عرفت «لاسي». انها تعرف بالتأكيد، وبصورة قاطعة، مثل عقربي الساعة اللذين يؤشران الى الساعة الرابعة الا خمس دقائق.
لقد كان وقت الذهاب الى الولد!
استدارت وبدأت تهرول مبتعدة، تهرول وكأنها ستقطع مئات قليلة من الياردات وليس هناك شيء يخبرها ان موعدها الذي يجب أن تفي به، كان يبعد عنها مئات الأميال تقطعها في أكثر من عشرين يوماً. كانت معرفة واجب واضح وصاف، يجب أن يؤدى. وهي عازمة على أن تنجزه على أحسن وجه.
وحين سمعت «هاينز» خلفها. يركض ويصيح غيرت من هرولتها إلى قفز خفيف. لم تكن خائفة. وكأنها كانت تعرف ان ذلك المخلوق ذي القدمين لن يستطيع اللحاق بها، أبداً. ولم تكن تحتاج حتى إلى زيادة السرعة وربما اذناها المرميتان إلى الخلف، اخبرتاها كم كان «هاينز» يقترب منها. وقد تكون للكلاب عيون، كما لبقية الحيوانات، موضوعة في جانبي الرأس أكثر ممّا عند المخلوقات البشرية. لذلك فهي تستطيع ان تشاهد ما يجري خلفها بمجرد التفاتة بسيطة جداً من رأسها.
لم يبد على «لاسي» انها قلقة بشأن «هاينز» لانها كانت

مستمـرة. في ذهـابهـا في وثبـاتها الثابتة، اسفل الطريق، فوق المرج. وللحظة، وثب قلب «هاينز» أملاً. ربما، كما اعتقد، ان «لاسي» ستعود متجهة إلى الوجار.
لكن الـوجـار، الـذي سلسلت فيه وحبست، لم يكن بينها. انه مكـان بغيض وهكـذا مات أمـل «هـاينز»، عندما شاهد الكولي تتجه نحو الطريق الحصبائي، نحو الباب الأمامي.
وثب قلب «هـاينـز» ثانية فالباب موصد دائماً، والجدران عالية. ربما يستطيع ان يحاصرها هناك.
ركبت «بـريسيـلا» وجيدهـا في الطـريق من قرية السماكين، وتوقفا عند باب المقاطعة الحديد. حيث قالت الفتاة:
- «سأفتحه ياجدي.»
ثم انسلت بخفـة من سرجهـا، بينمـا بدأ الـدوق يحتـج وهـو يتلعثم، غير ان «بريسيلا» تعرف انها تستطيع النزول، والركوب ثانية اسهل مما يفعل جدها. إذ على الرغم من كل احتجاجاته فانـه كان رجـلاً عجوزاً، وان تسلقه سرج اكثر الخيل هدوءاً كان أختباراً يصاحبه نفخ ولهاث ودمدمة.
وبعـد ان ربطت العنـان فوق يدهـا، سحبت الـرتـاج، وبعدها وضعت ثقلها على الهيكل الحديدي المطاوع، فأنفتح الباب.
كان ذلك الوقت، الذي سمعت فيه الضجة. وعندما نظرت نحو الطـريق، شاهـدت «هاينز». يجري نحوها. وامامه كلب كولي جميل، وكان «هاينز» يصيح:
- «اغلقي ذلـك البـاب ياآنسـة «بـريسيلا»! اغلقي ذلك الباب!

ذلك الكولي طليق. لاتدعيها تخرج. اغلقي الباب!»
نظرت «بريسيلا» حولها. كان الباب الكبير أمامها وكلما كانت تحتاجه هو ان تغلقه، فتحبس «لاسي»، داخل اراضي البيت.
نظرت الى جدها الذي كان لا يدرك شيئاً من الضجة، فأذناه المصابتان بالصمم لم تسمعا اصوات «هاينز» العالية.
وهكذا بدأت «بريسيلا» تسحب الباب. لمرة ثانية بعد ان وضعت ثقلها عليه. سمعت نصف ما بدأ جدها يدمدم فيه في احتجاج مرتبك. لكنها نسيت ذلك فيما بعد، وشاهدت صورة واحدة فقط، مرتسمة في دماغها.
لقد كانت صورة ولد قروي، اطول قليلاً منها، يقف بجانب اسلاك الزريبة، يقول لكلبته:
ـ «ابقى هنا الى الابد، ودعينا لشأننا ـ ولا تعودي الى البيت أبداً.»
ولقد كانت تعرف انه بينما الولد يقول ذلك، فان كل حاسة وجزء منه تصرخ قائلة العكس.
لذلك ارتسمت الصورة في دماغها، وظلت مصغية الى الكلمات مرة ثانية، وكأنها كانت تقال بجلاء. وهي ماتزال لم تغلق الباب بعد.
كان جدها مايزال يزبد، وهو يعرف ان شيئاً ما كان يحدث ولم تسعفه حواس عمره المتقدم في الامساك به اما «هاينز» فما زال يزعق:
ـ «اغلقي ذلك الباب، ياآنسة «بريسيلا». اغلقيه!»

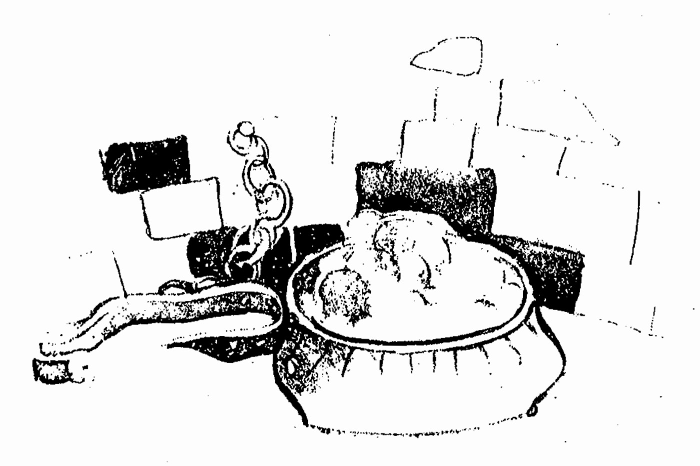
توقفت «بـريسيـلا» للحظـة، ثم فتحت البـاب على مصراعيه، بسـرعـة. كان هنـاك شيء غيـر واضـح المعـالم ومض من امام ركبتيهـا، ثم توقفت «بـريسيلا»، تنظـر نحـو الطـريق، مراقبـة الكلبة، وهي تذهب في وثبات ثابتة، وكأنها تعرف ان عليها ان تقطع طريقاً طويلاً، طويلاً. لذلك رفعت يدها.

ـ «وداعاً يا «لاسي». » قالتها بنعومة.

ـ «وداعاً و. . حظاً سعيداً!»

بينمـا كان الـدوق جالساً على حصانه، لا ينظر الى الطريق نحو الكولي، ولكنه يحدق في حفيدته.

الفصل العاشر



بداية رحلة طويلة

كانت ظلمة أول الليل تنتشر، عندما نزلت «لاسي» في الطريق المترب لقد بدأت الآن تهرول بصورة أبطأ. وكان هناك تردد في مشيتها حيث توقفت واستدارت عائدة نحو الاتجاه الذي جاءت منه ثم رفعت رأسها، فقد كانت في حيرة قاسية.

ان نبض حاسة الوقت قد بدأ يغادرها الآن والكلب لا يعرف شيئاً عن الخرائط والمسافات كما يفعل الرجل. في هذا الوقت، كانت «لاسي» تلتقي الولد، وكان عليهما الآن ان يكونا في

طريقهما الى البيت ثانية ـ البيت للأكل .
لقد كان وقت الطعام وان مجريات السنين اخبرت «لاسي» بذلك . كان في الوجار طبق من لحم لذيذ يوضع أمامها . ولكن في الوجار توجد أيضاً سلسلة ، تجعل الكلب سجيناً .
وقفت «لاسي» مترددة ، ثم استيقظت فيها حاسة أخرى . حاسة العودة الى البيت . وهي واحدة من أقوى الحواس في الحيوانات . والبيت لم يكن الوجار الذي تركته بل كان البيت كوخاً ، حيث تستطيع الاضطجاع على البساط ، أمام النار ، اذ هناك دفء ، وهناك أصوات وأياد تلاطفها . ذلك ما فقدته الآن ، وان عليها ان تعود اليه .
رفعت رأسها ، عندما استيقظت فيها حاسة العودة الى البيت الحقيقي وشمت النسيم وكأنها تنشد الاتجاهات . ثم ، من غير تردد ، اندفعت مسرعة نحو الطريق ، نحو الجنوب ولا تسل أي مخلوق بشري أن يشرح لك كيف فَعَلَتْ هذا . ربما قبل آلاف آلاف السنين ، قبل أن «يثقف» الانسان دماغه ، كان يملك أيضاً نفس حاسة البيت ؛ بيد انه لو كان يمتلكها ، فانها قد ذهبت الآن ولا يستطيع الانسان ، رغم كل تطوره العقلي ، ان يخبر كيف ان الطير أو الحيوان يوضع في قفص ، ويبعد اميالاً في الظلام ، وعندما يطلق يعود مباشرة إلى البيت . يعرف الانسان فقط ان الحيوانات تفعل مالا يقدر هو ان يفعله أو يفسره .
ولم يكن هناك تردد عند «لاسي» . فقد كانت حواسها الآن مدركة ذلك بقناعة عظيمة ، وكأن طمأنينة قد بدأت تعتمل في

داخلها .
لم يكن هناك أحد ينجدها ، ولا طريقة تتعلم منها ان ما تحاول ان تجربه كان من عالم المستحيل ـ إذ هناك مئات الأميال من الاراضي القفر، عليها أن تقطعها ـ انها رحلة يحسب لها معظم الرجال السائرين على أقدامهم ألف حساب .
يستطيع الانسان أن يشتري طعاماً وهو في طريقه ، ولكن أية نقود يستطيع كلب أن يدفعها ليشتري طعاماً؟ لا نقود سوى حب سيده كما يستطيع الانسان ان يقرأ علامات المرور على الطريق ـ لكن على الكلب ان يذهب بصورة عمياء ، ترشده غريزته ويعرف الانسان كيف يعبر البحيرات العظيمة على امتدادها من الشرق الى الغرب ، ويقطع كل البلد تقريباً ، باستثناء طريق أي حيوان يتجه جنوباً . وكيف تعرف الكلبة انها ثمينة ، وفي القرى والمدن يعيش مئات من الناس ذوي العيون الثاقبة ، والذين يرغبون في الامساك بها ، لذلك السبب؟
هناك أشياء عديدة ، لا يستطيع الكلب ان يعرفها ، لكنه قد يتعلمها بالتجربة .
انطلقت «لاسي» سعيدة ، فقد بدأت الرحلة .
في الشفق الشمالي الطويل ، وهو في نهايته ، جلس رجلان خارج كوخهما . لقد كان يشبه اكواخ القرية الاخرى ، ذات الشوارع القديمة الضيقة . الجدران سميكة ، وقد جعلتها الاعوام ترتدي ماء الكلس الأبيض .
الرجل الأكبر سناً ، الذي يرتدي غطاء صلباً ، أشعل غليونه

بعناية، ورفع رأسه. وراح يراقب حلقات الدخان وهي تبتعد في هواء الليل الساكن. ثم شعر فجأة بيد الرجل الأصغر، تشد ذراعه.

- «انظر هناك، يا «وولي»! »

نظر الرجل الأكبر الى حيث كان الآخر يؤشر.

جلس لفترة من الزمن، حتى راحت عيناه تنظران بصورة أوضح في الليل. لقد كان كلب يتجه نحوهما.

وقف الرجل الأصغر، الذي كان يرتدي في قدميه كساء، وبدلة من قماش قطني مخملي، وقال:

- «يبدو انه نوع جيد يا «وولي». »

- «نعم يا «جيوردي». كولي رائع.»

راقبتها عيونهما وهي تهرول مقتربة، ثم تحرك الرجل الأصغر.

- «انها يا «وولي» تشبه كولي اللورد. انها هي! واقسم على هذا.

شاهدتها قبل يومين عندما كنت أتحدث مع «ماكهين» حول فصل السالمون. لاشك بانها قد هربت..».

- «آه.. وهناك حتماً...»

- «نعم.. مكافأة للرجل الذي يجد...»

- «كبرى.. نعم!»

«هَيْ!»

اطلق الرجل الأصغر هذه الصرخة الاخيرة فوق كتفه، اذ كان يندفع نحو الطريق.

سد طريق الكلبة . . وصاح :
ـ «هنا ، ايها الفتى . هنا ، ايها الفتى !»
ضرب ركبته بيده في حركة تدل على الصداقة فنظرت «لاسي» اليه وقد التقطت اذناها صوتاً يشبه اسمها .[1] لو سار الرجل نحوها ، فلربما تدعه يضع يده عليها ، لكنه تحرك بسرعة كبيرة . وفجأة . تذكرت «لاسي» «هاينز» فانحرفت بخفة ، ومن غير ان تغير من هرولتها مرت بجانبه . فاندفع الرجل نحوها . فارخت عضلاتها ، ومثل نجم كرة ، بذلت حركة مجهدة ، اسقطت توقيته حيث وثبت خطوات قليلة ، ثم عاودت هرولتها ذات القصد المبيّت .
غير ان الرجل جرى وراءها الى شارع القرية . فاسرعت «لاسي» في خطاها وراحت تجري في خبب ثابت . وكلما طاردها أكثر، كانت تزداد اصراراً ، وترسخ في دماغها ألأ تدع أي مخلوق بشري يضع يده عليها ان مطاردة كلب تعني تعليمه الهرب .
حين ادرك الاسكتلندي ألاحظّ له في امساك الكلب بالسرعة ، توقف والتقط حجر صوان رخو. لقد ظن انه يستطيع ان يرشق الحجارة أمام «لاسي» فيجعلها صوت سقوطها تتوقف وتعود نحوه فارجع ذراعه الى الخلف ورمى . ولكن كان الهدف سيئاً . فقد سقطت الحجارة على كتف «لاسي» وحتى عندما سقطت ، فانها غيرت من خببها كما يفعل حصان البولو المدرب

«١» في الاصل ناداها الرجل «lass» وتعنى فتى .

تدريباً جيداً، مستعينة بقدميها الأماميتين حتى مالت مبتعدة نحو القناة. وبعد ان الصقت بطنها بالأرض، راحت منطلقة بسرعة مذهلة. كانت هناك فجوة في السياج الشجري. انسلت خلاله، وابتعدت عن الطريق، نحو الريف الاجرد.

ثم استدارت مرة واحدة وبعدها استدارت جنوباً مرة ثانية، وواصلت هرولتها بثبات. غير ان «لاسي» تعلمت الآن شيئاً هو ان عليها أن تبتعد عن الناس. لسبب لاتستطيع أن تفهمه، ان أيديهم ضدها واصواتهم الآن قاسية وغاضبة. انهم يزعقون ويرمون الاشياء. يوجد خطر عليها عند الناس. لذلك يجب أن تبتعد عنهم. لقد تعلمت «لاسي» درسها الأول، في يومها الأول.

في ذلك المساء الأول. سافرت «لاسي» بثبات. لم يسبق لها في اثناء سني حياتها الخمس ان كانت وحيدة في الليل. لذلك لم يعد لديها أي تدريب يساعدها. انها تعتمد على غريزتها فقط. غير ان غريزتها كانت دقيقة ونابهة وهكذا اتبعت بثبات، طريقاً مزروعاً بالخلنج وقد ملأها هذا الطريق بقناعة دافئة، وإن كانت متجهة صوب الجنوب. فقد راحت تهرول بمحاذاته بثقة واطمئنان.

واخيراً وصلت إلى مرتفع، ثم في التجويف الذي اسفله، شاهدت أشكالاً غير واضحة لأبنية مزرعة. فتوقفت، على نحو مفاجيء، وقد انتصبت اذناها الى الامام، وبدأ فمها يرتعش. ان حواسها الدقيقة الرائعة قرأت قصة السكن الذي تحت،

بوضوح انسان يقرأ كتاباً.
قرأت عن الخيـل التي في الـزرائب، وعن الخـراف، وعن كلب آخـر، وعن الطعـام، والنـاس. ثم بدأت تنـزل نحـو المنحـدر، بحـذر. ان رائحـة الطعـام كانت مشهيـة وقد مضى عليها وقت طويل لم تأكل فيه. ولكنها ادركت ان عليها أن تكون حذرة، اذ هنـاك رجـال ايضـاً. وقد رسخ في فكرها ان عليها ان تبتعـد عنهم. فهـرولت الى أسفـل الطـريق. ثم سمعت نبـاح تحـدٍّ لكلب آخـر. انهـا تستطيـع ان تسمعه وهو يتجه نحوها. فتوقفت وانتظرت، ربما كان ودوداً.
غيـر انـه لم يكن كذلـك. جاء يشق الطريق وقد انتصب عرفه، وتسطحت اذناه. ربضت «لاسي» لتلاقيه. وعندما ظهر، خطت جانبـاً. فاستـدار وهـو يطلق صوتـاً عاليـاً في غضب هستيري. كانت بذاته تقول:
هذا هو بيتي، انت متطفـل. انـه بيتي وسأدافـع عنـه. ثم من اسفل المزرعة جاء صوت رجل كظيم:
ـ «ماهو يا «تامي»؟ طارده!»
عنـد سماع صوت المخلوق البشري، اندفعت «لاسي» تهرول مبتعدة. اذ لم يكن هذا بيتها. انها منبوذة هنا.
اندفع الفلاح الذي يرتدي ملابس خشنة وراءها، بينما وثبت مبتعـدة، قلقـة بشأن اضـلاعهـا ثم استـدارت بسـرعة. وزمت شفتيها. وهنا رجع الكلب الآخر، عندما شعر وكأن الخطر قد زال.

واستمـرت تهرول بثبات . وسرعان ماتركت المزرعة خلفها .
راحـت تجـري في الـريـف المـوحش، وهـي تتبـع طرق الحيوانات . ثم شمت رائحة ماء . أخيراً لقد عثرت على جدول صغيـر بارد، فولغت فيـه بشـراهـة . كانت السمـاء تظلم شرقاً . فنظرت حولها .

ثم خربشت بكفها الأمامية صخرة، بلطف واستدارت ثلاث مرات ثم كورت نفسهـا.ان خلفهـا صخـرة مدلاة تحميهـا وان وجههـا كان ينظـر الى امام . فحتى لو استغرقت في النوم الآن، فإن انفها واذنيها ستحذرها من أي خطر قادم .

وهكذا وضعت رأسها فوق كفها وتنهدت عالياً .

كانت «لاسي» تشق طريقهـا من جديـد، في باكورة الصباح التـالي فقـد ذهبت تهـرول بثبـات، عدة أميال وكانت عضلاتها تتقدم بتناغم صلب، أعلى التل، أسفل التل .

لم تتوقف أو تتردد . أي طريق كان يتجه جنوباً، كانت تتبعه . لو انحرفت مبتعدة، فانها تتركه نحو طرق الحيوانات عبر الخليج الكثيف والأجمات .

ولـو كان أحـد الطرق يؤدي إلى مدينة أو مزرعة، فإنها تجفل منـه وتدور بعيداً عن المسكن لتبتعد عن الانسان . لذلك كانت تذهب بحذر إلى المناطق المأهولة حيث تختبيء غريزياً، تحت غطاء شجري، وتنزلق مثل شبح تحت ظلال دغل أو أجمة . ، مستفيدة من أية غابة .

ان معظم الارض التي تسير عليها تقودها صعوداً، وأمامها كانت

سلسلة من الجبال الزرق ولكنها اتجهت على نحو سديد الى أوطأ الانحدارات، حيث يوجد هناك ممر. وعندما مر النهار، فانها كانت ترتقي اراضي أكثر ارتفاعاً وقد بدأت السماء تظلم. وبدت الغيوم كئيبة.

ثم فجأة، حدث ومض، وانفجر رعد. فترددت «لاسي» وأنّتْ بصوت فيه تذمر. لقد شعرت بالخوف وليس هناك من فائدة في لوم كلب يخاف. فقد يتمتع الكلب بالكثير من انواع الشجاعة التي تلغي حالات خوفه القليلة. والحق يقال، ان القليل من الكولي يثبت أمام الرعد والبرق.

كما ان هناك العديد من الكلاب لاتعير لمثل هذه الضجة أهمية. هناك سلالات من كلاب الصيد، تكون سعيدة جداً، عندما تسمع صوت بندقية. ولكن ليس الكولي. ويبدو وكأن هذه السلالة، التي عملت طويلاً بمصاحبة
الانسان، قد تعلمت ان مثل هذه الاصوات الوحشية الحادة قد تؤدي. وان صوت البندقية يجعل معظم الكولي يهرب طالباً ملجأ.

اما الاعداء الاخرون فان الكولي يواجهها، ولكن ليس خطر ضجة مجهول.

لذلك ترددت «لاسي» عندما ترددت اصداء الرعد عبر الجبال، واندفعت سيول المطر نازلة في واحدة من العواصف الوحشية في اسكتلندة الشمالية.

فحاربت مخاوفها لفترة طويلة. ، ولكن ذلك كان كثيراً عليها

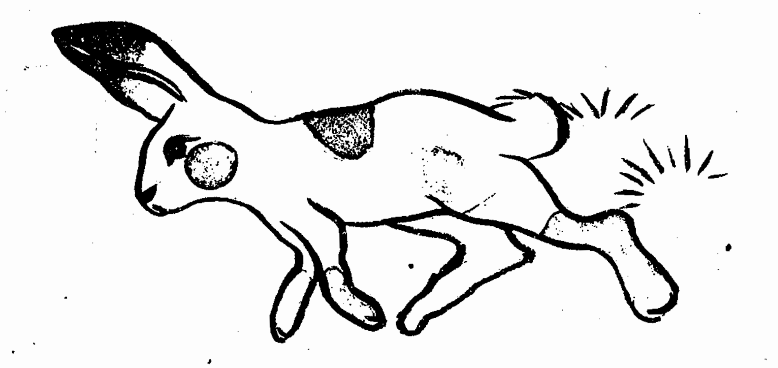
وفي الآخيـــر. هرولت الى مكـان فوق جلاميـد منشـورة، حيث جعلت منه الافاريز المدلاة كهفاً جافاً.

فجثمت هنـاك، ضاغطـة نفسهـا ضد الصخـرة. بينمـا كان الرعد يدوي، ويسمع صداه مثل وابل من نيران المدفع.

لكنهـا إذا اوقفت رحلتهـا، فليس ذلـك لوقت طويـل. وعند ماراحت العـاصفـة تدمـدم مبتعـدة نحو سلسلة الجبال نهضت على أقـدامها ووقفت للحظة. ورأسهامرفوع، متشممة الهواء. وعاودت ثانية، هرولتها الطويلة المتأرجحة.

ان المطـر والارض المـرشـوشـة، جعلت فروتهـا الجميلة ـ ملطخة ـ بيد انها استمرت في ذهابها ثابتة، متجهة نحو الجنوب.

الفصل الحادي عشر



القتال من أجل البقاء

في الأيام الأربعة الأولى ، سافرت «لاسي» من غير توقف ، تستريح لفترة قصيرة في أثناء الليالى بينما شعلة السفر جنوباً ، كانت تستعر في داخلها مثل حمى ، وما من شيء يمكن أن يستبدلها .

اما في اليوم الخامس فقد بدأ طلب جديد يضايق حواسها . لقد كان نداء الجوع . امر السفر قد أُحكم منذ البداية . ، والآن صار اصراراً .

لم تصادفها مشكلة في العثور على جداول تطفيء بها ظمأها؛ بيد ان مشكلة الحصول على طعام بدأت تتحرك في حياتها المصانة. منذ وعيها إذ لم يكن الطعام من مسؤوليتها. ففي الاوقات المحددة كان يجهز لها. يضعه لها الانسان في طبق أمامها. لقد علمت بصورة دقيقة ان ذلك كان حصتها، ويجب عليها أن لاتأكل أي طعام موضوع في أي مكان آخر.

وسنة بعد سنة، كان ذلك الدرس يعتمل في داخلها. الطعام لم يكن مسؤوليتها فالانسان يجهزها به.

أما الآن، فان التدريب وتكيف سنوات العمر اصبحا لايجديان. لم يعد هناك انسان يضع أمامها طبقاً من الطعام كل مساء. فعلى هذا الحيوان المترف ان يتعلم ليبقى. وعليها ان تجد الوسيلة، لكنها لم تستطع تفسير ذلك كما يفعل الانسان فللانسان مخيلة، وهو يستطيع ان يتصّور الحوادث والظروف قبل أن يواجهها اما الكلاب فلا تستطيع أن تفعل هذا. بل عليها أن تنتظر بصورة عمياء، وحتى تواجهها الظروف، ثم تعمل ما بوسعها لملاقاتها.

ثم كيف تستطيع «لاسي» ان تقابل هذه المشكلة الجديدة؟ انها لاتملك دماغ انسان لتجد تعليلاً له. كما انها لاتستطيع ان تبني صلة على تجربة سابقة لآخرين من نوعها، والتي هي اسلوب بشري آخر إذ ليس على الطفل أن يجتاز العديد من التجارب الخطرة في الحياة ليكتشف النتيجة. لان ابويه وبقية

الاشخـاص البـالغين يخبرونه من معرفتهم المكتسبة نتيجة مثل هذه الحالة ولا يستطيع حيوان أن يعطي شيئاًمعتمداً على معرفته المكتسبـة إلى صغيـره لذا يجب على كل حيـوان ان يلاقي أيـة تجـربـة جديدة وكأنها لم تواجه نوعه من قبل في تاريخ العالم. كيف إذن، تستطيع «لاسي» ان تتعلم كيف تحصل على طعامها.

ان لهـا تلك النـوعيـة الموجودة لدى الحيوانات، والتي ربما كانت عند الانسان مرة، لكنها لم تعد لديه: الغريزة.

فبالغريزة ودروس التجارب السابقة.، تدبر الحيوانات أمرها في الوصول إلى استنتاجات، يصل اليها الانسان بوساطة قوة تفكيره.

لقـد كانت الغـريزة هي التي تدفع «لاسي» في اتجاه واحد. ولقـد كانت تجـربـة سابقـة. علمتهـا ان تحـذر من المخلوقات البشـريـة. وهي الغريزة التي اخبرتها إيضاًأن تبتعد عن أنظارهم وان تتبـع وهـاد الارض المنخفضـة كمـا ان الغـريزة علمتها أن تبحث عن الطعام.

في اليـوم الخـامس، وبينمـا كانت تواصـل السير، وباسرع هرولـة، بدأت حواسهـا تحـذرها. ثم توقفت عند اثر حيوان عبر المـرج البـري، وقد رفعت رأسها الى الأمام.. عيناها وأذناها، وأنفهـا.. كلهـا تقـرأ علامات جاءت واهية. تخبرها بأن انساناً سيكون عديم الحس تجاهها

لقد كانت حاسة. شمها هي التي كشفت عن اللغز أولاً فقد كانت هناك رائحة حارة كثيفة، انها رائحة طعام.

عادة العمر أجبرت «لاسي» على الجري نحوها. غير ان الغريزة تغلب العادة. ربضت، وبجسمها الذي خفضته إلى الأرض بدأت تزحف معَ الريح باتجاه الرائحة وتحركت ساكنة عبر الشجيرات وهي تقترب أكثر فأكثر. ثم فجأة، شاهدت على الطريق ماحذرها انفها منه. اسفل الطريق فبجسمه الشبيه بالحلزون الذي يتلوي، ظهر ابن عرس. كان رأسه مرفوعاً عالياً. وبجانبه رمى جثة ارنب قتله للتو. كانت طريدته أكبر من حجمه. غير ان القاتل القوي كان يسحبها بسرعة مذهلة. ثم حذرته حواسه ايضاً واستدار في حالة تحد. وبعد ان القى فريسته أرضاً، استدار ليواجه الخطر. كانت اسنانه المتوحشة البيضاء ظاهرة، ثم صرخ صرخة حادة، اظهرت انها تنم عن غضب جريء.

حدقت «لاسي» فيه، وقد خفضت رأسها. انها لم تشاهد مثل هذا الحيوان من قبل. كما لا توجد في سلالتها غريزة نوع «الترينر»، الذي يندفع أسرع من تفكير الرجل، في أي شكل من حياة القارض. كانت من سلالة كلاب العمل، كلب مسالم، وبرغم ذلك قادتها الغريزة إلى ذلك.

وببطء، انتصب شعرعرفها ولوت شفتيها وبسطت اذنيها فوق رأسها، واستجمعت طرفيها الخلفيين تحتها.

غيـر انهـا نهضت في لحظـة وكأنهـا تعـرف متى تكـون هذه اللحظـة الصحيحـة، انتحى ابن عرس الذي كان يزعق، جانباً بسرعة خاطفة. ومن ثمّ وبسرعة البرق، شق طريقة عبر الخليج المتشابك، ذاهباً بصمت، وبخفة، طافياً مثل الماء فاستدارت «لاسي» لتنظـر اليـه، غيـر ان حواسها أنتقلت: الى شيء آخر- الى الرائحة الحارة لدم الارنب المطروح على الأرض.

راقبته لفترة طويلة، واقتربت منه أكثر، ومدت رأسها بحذر، وكأنها مستعدة للقفز مبتعدة. إذ بالرغم من ان رائحة الدم كانت هنـاك، إلا ان رائحـة ابن عرس ماتـزال هنـاك أيضـاً. وبعناية، اقترب أنفها أكثر فأكثر، حتى لامس الطريدة المقتولة حديثاً الا انهـا تراجعت ثم سارت حولهـا. ثم اقتـربت أكثـر، واحنت رأسها، والتقطت الصيد ورفعت رأسها ثانية، وانتظرت.

بدا الأمـر وكأنـه، في الارض الـمـوحـشـة، بعيـداً عن المخلوقات البشرية فقد كانت تتوقع نداءً مفاجئاً من سيدها:

- «لايا «لاسي»! ارميه! ارميه!»

ولكن لم يأت صوت. فوقفت متـرددة مدة نصف دقيقـة، ثم انتهى كل شيء.

فقد حملت الأرنب وراحت تهرول، وكانت تبحث يميناً ويساراً وهي ذاهبـة. ثم شاهـدت ما كانت تبحث عنه. أجمة متشابكة من نبات الوزال، صنعت نوعاً من الوكر.

سارت نحوها، وكورت نفسهاملتصقة، حتى تستطيع ان تحمي

جسمهـا من ثلاثـة جوانب . نزلت إلى الأرض، تاركـة الأرنب يسقط أمامها حيث تشممته ثانية . ان رائحته طيبة .

لقد كان طعاماً على كل حال .

بعـد ذلـك، اكتسبت حاسة جديدة، فتعلمتِ رائحة الارنب وان الغـريـزة أخبـرتها بالبقية . وعندما ارتحلت، وحيثما يخبرها انفها الحساس، بقرب طريدة، تصبح صيادة . كانت تستكشف الامـور وتـركض وتمسكهـا، فتأكـل . لقد طبقت قانون الطبيعة المـدرك . لـم تكن تقتـل بتعمـد، كمـا يفعـل الانسان غالباً بل كانت تقتل لتعيش، وليس اكثر .

مثل هذا الطعام كان كافياً لادامة الحياة لفترة ولكن . لاتوجد الآن عيـون ثاقبـة تراقب «لاسي» ؛ وتلاحظ وزنها، لتشاهد لون لثتها، وتحدق في ردائها . لايوجد أحد يقول :

ـ «نقص وزنها باونين ـ اعطها القليل من لحم الكبد في غذائها !»

ـ «حاسة شمها لاتبدو على ما يرام ـ من الافضل البدء بأن تعطى اناء حليب في الصباح .

كما تستطيع ان تضع فيه بيضة نيئة، لو تتقبله ! : .

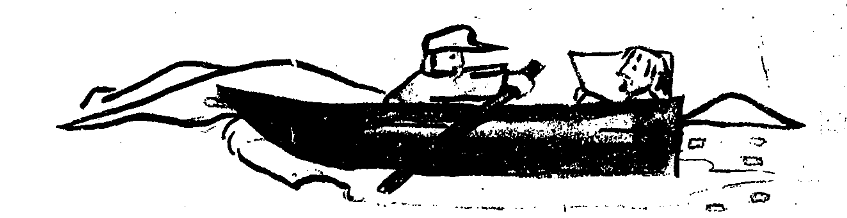
ـ «هم م م ـ لا احب تمـامـاً لون لثتهـا . أظن من الافضل أن تعطى ملعقـة شاي من زيت كبـد سمـك القـرش، مرة في اليوم فذلك سيجعلها في صحة جيدة !»

لم تعد الان هذه الرعاية، تشمل ذلك الكلب المترف الذي يضطجع في المكان الرطب وبدلاً من ذلك صار كلباً ذا اضلاع

ذابلة هزيلة ورداء ملطخ ممزق، خشن، غير انه مايزال كلبا عاش حياة رعاية وحب، لذلك لم يعرف المرض. وها هي ذي سنوات الرعاية تظهر الأن. فقد كان ـ هيكلها صلباً، وعضلاتها قوية، وهذا مايجعلها تسير ميلاً بعد ميل، كل يوم.

اما القلب فكان شجاعاً والغريزة كانت صحيحة. لذلك ذهب الكلب، يوماً اثر يوم، بثبات نحو الجنوب، في الاراضي المرتفعة. ، فوق السراخس والخليج، يمر في اراضي التلال والسهول، وعبر الجداول والغابات فهو دائماً يسير بثبات. . ودائماً نحو الجنوب.

الفصل الثاني عشر



ماشاهده رسام

كان الــوقت يتحــول إلى أعمــاق الصيف حين اضطجــع «ليسلي فريث» بكسل، في مقدمة الزورق. نفخ غليونه برضا، وراقب الـدخـان الذاهب بهدوء في هواء الصباح الدافيء، وهو يرتـد عائـداً الى حيث «مـاك بين» يسحب المجـذافين بطـريقة نظامية. . قال:

ـ «من الأفضل أن اجلس في الخلف، ايها السيد «ماك بين» . »

ـ «لا . انـه يعمـل على أحسن مايـرام ـ ايهـا السيـد «فـريث» .

اخبرتك انه زورق فريد . »
قال المجذف .
نفخ «فريث» بهدوء ، وانسحب . ليس هناك من نتيجة مع هؤلاء الاسكتلنديين الغنيدين . ومع ذلك ، فان «ماك بين» لو اراده معه في المقدمة . . .
انسحرت عيناه بالمشهد الاسكتلندي الطبيعي الخلاب . وهكذا كان «فريث» سعيداً . فلقد كانت البحيرات ـ مناطق الصيد المفرحة للصيادين البريطانيين ـ تعني شيئاً آخر بالنسبة له » . انها الاماكن التي اختزن الاسكتلنديون جمالها طويلاً ، ليجذب اليه أيضاً الرسامين الانكليز . و«لسلي فريث» كان واحداً من اولئك الذين لايتعبون من تغيرالضوء والظل الأزلي ، الذي يتحرك حول الحياة العريضة ، والمياه الارجوانية . ففي كل صيف ، يجيء ثانية ليرسم ويستأنف الاتصال الارضي مع «ماك بين» ، الذي رحب به بشدة وفرح بالعودة إلى كوخهما ، واعطاه غرفة رسم في مخزن الغلة الحجري اللطيف . لذلك كان مسروراً باليوم الذي اضطجع فيه في مقدمة الزورق حتى راح هذا يحتك بحصى جزيرة صغيرة . ساعد «ماك بين» في تفريغ الحمولة ، وهي حمالة الرسم وقماش الرسم وصناديق الرسم المعدنية . ثم نشر القماش ، والكرسي المطوي . ورفع رأسه في جانب واحد ، وراقب الرسم غير المنتهي .
ـ «حسن . . ساعود اليك عصراً . . »

قال «ماك بين» .
ـ «حسن ، ياسيد «ماك بين» سأقضي عدة ساعات في هذه .
كيف تراها؟» سار «ماك بين» متثاقلاً إلى مكان أفضل ، واغلق عيناً ، وبدأ يرفع رأسه من جانب الى جانب . وخلال فصول الشتاء الطويلة ، وفي حانة صغيرة بمحاذاة البحيرة ، فان السيد «ماك بين» سوف يجادل لمدة ساعات لو احتاج ذلك ويؤكد ان صديقه السيد «فريث» كان واحداً من أعظم رسامي المناظر الطبيعية في بريطانيا ، حتى ان المدرسة الالمانية والفرنسية ، تنحنيان أمامه ولو كانتا ماتزالان على قيد الحياة . ولكنه بحضور الرسام ، لايدع «ماك بين» رأيه المتباهي يظهر في الحال .
ـ «حسن . . لأنك قد سألتني ، أقول انه صغير جداً في جانبه الملمع . ان الماء عنيف جداً ، والغيوم مرعبة . . وبرغم ذلك فهو يسيّر أموره . »
ابتسم «لسلي فريث» لانه كان معتاداً على نقد «ماك بين» . اضافة إلى ذلك فهوقد استفاد منه ، لان الاسكتلندي الصارم يملك عيناً بصيرة ، وحسن تثمين لأرضه الجميلة ، . لذلك أومأ «فريث» برأسه . بينما عيناه تنتقلان من لوحة الرسم إلى المنظر الطبيعي ، جيئة وذهاباً . كان يفكر . كيف كان الجمود سائداً . لاحركة في أي مكان ، ماعدا طية الماء الرقيقة ، التي تصفق اسفل الزورق ، بمحاذاة الشاطيء . ولا حركة ، فيما عداها . . ظلل عينيه . .

ـ «اتشاهد ذلك ياسيد «ماك بين» ـ غزال؟»

حدق الرجل الاسكتلندي إلى حيث تؤشر يد «فريث» الممتدة. بحثت عيناه في الشاطيء، عند البر الرئيس الشمالي. انزل الحاجبان الرماديين، وكأنهما يحميان العينين الزرقاوين الرماديتين. اللتين تحتهما. .

ـ «غزال؟»

اعاد الفنان السؤال.

هز «ماك بين «رأسه من غير ان يتكلم. عيناه كانتا ابصر من عيني الانكليز.

ـ «حسن. . أنا أبداً، . »

قال اخيراً فجأة وبقوة.

ـ «ماهو؟»

ـ «كلب. »

قال الرجل العجوز.

ظلل عينيه بيديه وكذلك فعل الرسام الشيء نفسه.

ـ «انه كذلك. استطيع أن أرى الآن. »

اقتنع الآن. عمل «فريث» وكأنه عائد لرسمه، بيد ان الرجل الاكبر سناً، ظل يحدق بثبات وان انتباهه اعاد الفنان إلى تحديق ثابت. . قال «ماك بين» :

ـ «كولي. والان. . ماذا يفعل. . . . »

ـ «او. . ربما انه واحد من الجوار ـ كلب مزرعة. »

هز الاسكتلندي رأسه . وبعد أن حدق بثبات ، شاهد الحيوان يأتي إلى حافة الماء ، وخاض فيه عدة أقدام ، ثم عاد راجعاً . راكضاً بمحاذاة الضفة عدة ياردات ، وحاول ثانية . وظل يكرر هذا ، وكأنه يريد اكتشاف بقعة جديدة ، اختفى الماء ، وظهرت ارض يابسة تحت اقدامه .

- «لقد عملها ياسيد «فريث» . يبدو وكأنه يبحث عن معبر . »

- «ربما يريد أن يتبعنا إلى الجزيرة . »

- «لا ، انه يبحث عن مكان يعبر منه . »

وكأنما اريد ازالة كل ذلك الشك فقد سمعا انيناً متذمراً ـ سلسلة من الصيحات القصيرة المرتفعة ، مثل التي يحدثها كلب عند ما يجد نفسه معاقاً بشيء ما يتجاوز فهمه .

- «نعم . انه يريد العبور . »

قال الاسكتلندي مردداً .

- «أظن انني سأجذف الى هناك و . . . »

عندما تكلم ، سار نحو الشاطيء ، ورفع مجذاف الزورق . راح المجذافان يحدثان صوتاً مكتوماً في مسند المجذاف . وراحت الضجة تدوم عبر مسطح البحيرة الساكنه . في تلك اللحظة شاهد «لسلي فريث» الكلب وهو يرفع رأسه ويستدير مبتعداً . . فقال :

- «انه يذهب ياسيد «ماك بين» . »

نظر الاسكتلندي . واستقام لقد راقب الرجلان الكولي وهو يستدير نحو شجيرات نامية كبيرة . في لحظة ولمرة واحدة ، لمحا

كلباً يهرول بثبات بمحاذاة حافة البحيرة نحو الغرب. ذهب بثقة وكأنه قد قرر أمراً لتوه.

- «انه في طريقه الأن وعلى المسكين أن يقطع طريقاً طويلاً في رحلته.»

قال «ماك بين» ذلك.

- «اتعني انه سيسير حول هذه البحيرة؟ لماذا.. انها أميال وأميال....»

-«عليه ان يقطع مائة ميل لأنه لايستطيع ان يتجنب الماء..»

حدق الفنان في الرجل الاكبر سناً، بقليل من الشك.

- «تعني انك تريد أن تخبرني ان ذلك الكلب عازم على السير مائة ميل ليستدير حول البحيرة. لماذا....»

بدأ «فريت» يضحك، غير ان نبرة «ماك بين» اوقفته..

- «ياسيد «فريت».. الكولي في الاساس كلب اسكتلندي الاصل. وفي داخله شجاعة والحاح هذه الأرض.»

قالها «ماك بين» باستنكار، وفهم «فريت» النبرة التي خلف الكلمات، فتحرك دماغه:

- ايها السيد «ماك بين».»

- «نعم؟»

- «أتظن انه العبور؟ لماذا يفعل ذلك؟»

وقف الاسكتلندي من غير حراك، فترة طويلة، ثم قال:

- «من يستطيع ان يعرف ذلك الأن؟ شيء واحد فقط، انه ذاهب لان لديه عملاً في مكان ما، وهو ذاهب لعمله من غير طلب

مساعدة من أي شخص على وجه هذه الأرض. و. . . »

وهنا رجع «ماك بين» الى زورقه وتسلقه بجهد. ثم استمر قائلاً.

ـ « . . . انه مثال يجب ان تفعله بقيتنا وتتبعه. »

ابتسم «فريت» مع نفسه. فللرجل العجوز العنيد عادة تحويل كل الاشياء في الطبيعة الى درس صارم على السلوك البشري فقد عاد بفكره الى رسمه، وعينه لم تشاهد سوى نصف الزورق، وهو يصغر أكثر فأكثر، بينما يسحبه «ماك بين» عبر الماء، تاركاً اياه في عزلة.

الغريزة تشبه طيران طير، اذ ان إتجاهاته في خطوات مستقيمة حادة.

لذلك، عملت «لاسي» عند ذهابها الى البيت ان تسير في اقرب المسالك نحو قرية. «كرينول بريدج»، بعيداً نحو الجنوب.

واحياناً تتحول أو تنحرف عن طريقها حين تقف في طريقها عوائق المدن او الجبال المتعذر اجتيازها، وهي دائماً تعود الى الخط الغريزي، نحو الجنوب. لذلك جاءت الى الجنوب عبر الاراضي المرتفعة يوماً بعديوم، في رحلة متعبة لاتنتهي لان وجهة سيرها كانت ممتدة.

غير انها لم تملك طريقة، التنبوء بالأرض التي أمامها. ولم تكن تعرف ان غريزتها في سلوك الخط المستقيم نحو بيتها سيدفعها الى عقبة. البحيرات الكبيرة في اسكتلندة. يستطيع الواحد منا أن ينظر الى خريطة

ويشاهد أية عقبة هذه، اذ انها اجسام كبيرة طويلة في الماء، تجري شرقاً وغرباً وتشطر البلد غالباً الى شطرين. وعلى الرغم من انها مثل اصابع نحيفه. على الخريطة. الا انها في الحقيقة ليست نحيفة. بل هي اجسام عريضة ممتدة من الماء، ولا يمكن لحيوان أن يقطعها سباحة. كما ان البحيرات حاجز مرعب ويستطيع الانسان أن يعبرها بزوارقه وعباراته، ولكن ليس الحيوان.

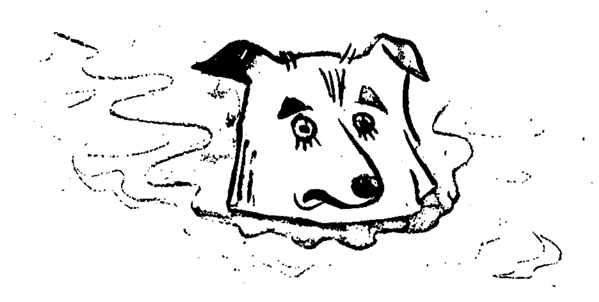
ورغم ذلك، فان «لاسي»، حين وقفت على ساحل البحيرة الكبيرة، لم تستسلم لأمرها فقد أخبرتها غريزتها أن تتجه جنوباً. ولكن لوكانت هناك عوائق في الطريق فانها ستبحث عن طريق آخر. لذلك بدأت في رحلتها الطويلة.. لتدور حول البحيرة. يوماً بعد يوم، كانت تندفع نحو الغرب، شاقة طريقهاالى امام حيث تدور حول القرى الصغيرة والقرى الأكبر. لكنها دائماً تعود بعد ذلك الى حافة البحيرة، وتتجه غرباً.

وكان يبدو الحاجز أحياناً مدوراً والطريق سالكاً. ولفترة، وسوف تهرول «لاسي» في خطواتها الثابتة غير المضطربة. في الاتجاه الجنوبي المطلوب.

ولكن الالسنة البحرية هي التي تنتأ. انها لسان يتصل بالماء. ودائماً كانت «لاسي» تعمل الوصول الى قمة اقصى الجنوب فهي تخوض في الماء، وبرأسها المستدير نحو الجنوب، سوف تطلق أنيناً قصيراً. ثم كان عليها دائماً ان تتجه نحو الشمال ثانية، بمحاذاة الساحل. وللضغط نحو الغرب مرة اخرى في

بحثهـا عن طريق حولهـا. عشـرات من الخلجـان والألسنـة البحـريـة. . والعـديـد من خيبات الأمل! ولكن بعد اسبوع من مشـاهـدة «لسلي فريث» و «ماك بين» للكلب فانها كانت ماتزال تتجـه غربـاً. ومـا تزال البحيـرة العظيمة تمتد كحاجز لا يستطيع الكلب أن يفهمه.

الفصل الثالث عشر



عندما يمرض كلب

هرولت «لاسي» من رغل متجهة الى الشاطىء وانها تتحـرك الآن بصـورة ابطأ لأن كفـوف اقـدامها اصيبت بكدمات وآلام كما ان الغشاء الشفاف الرقيق الذي بين هذه الكفوف وفي القـدم الامـاميـة اليمنى، كان يتقيـح . حتى ان رأسهـا لم يعـد مرفـوعـاً الآن، كما ان طريقة عودتها أصبحت الآن أقلّ ثقة مما كانت عليه .

واحياناً بدت وكأنها قد نسيت لماذاهي في رحلتها هذه التي

لاتنتهي . غير ان هذا لم يستمر طويلاً، اذ عادت خطواتها الآن ثابتة، من جديد، وقد تسارعت، حاملة نفسها، حتى يتحمل كفها المصابة ثقلاً اقل واستدار رأسها بأمل، إذعلى يسارها الآن، اخيراً، لم يعد خضم عظيم من الماء لايمكن اجتيازه. وقد تقلصت البحيرة الى نهر. الا انه كان عنيفاً، سريع الجريان، يسترسل متدفقاً بضراوة فوق الحوض الصخري.

جاءت «لاسي» الى حافة الماء. وادارت رأسها نحو الغرب، ثانية. غير ان مدينة كانت هناك، ليست بعيدة عن اسفل المنطقة التي هي فيها وقرب جسر، كان هناك أولاد ـ يصطادون السمك وهم يصرخون ويملأون الجو بصراخهم. ماتزال «لاسي» حذرة من المخلوقات البشرية، وهكذا نظرت نحوهم بنظرات ثاقبة.

ثم نظرت مرة اخرى الى الماء الابيض الساقط ان هديره رن في اذنيها بطريقة مزعجة. غير انها لم تتردد سوى لحظة. ثم، بقفزة شجاعة، القت نفسها بعيداً في الماء.

أمسك بها التيار كورقة مرمية من قطار متحرك، وتلقفها الهواء، لذلك حمل الماء جسم «لاسي» باتجاه مجرى النهر عندما استقرت فيه كما ان قوة النهر جعلتها تسقط، غير انها جاءت إلى السطح وبدأت تضرب نحو الشاطيء البعيد. كان رأسها ممدوداً، واقدامها تضرب الماء بثبات، فتدفعهاإلى أمام.

ومرة بعد مرة، كان التيار يسقطها بقوة محطمة، وغالباً ما

كانت تغطس في الدوامات الخاطفة. غير انه في كل وقت لم تتخلّ عنها حاسة الاتجاه العجيبة الموجودة عند الكلب، وحالما تظهر على السطح، كانت ما تزال تصارع نحو الاتجاه الصحيح. ان الرجل الذي يركل الكرة بعنف في الساحة قد يدفعها في الاتجاه الخاطيء، غير ان حاسة الاتجاه عند الحيوان، لايمكن ان تهزم بسهولة. لذا بقيت «لاسي» تضرب دوماً نحو الضفة الجنوبية.

غير ان الجدول الآن قد حملها نحو القرية. فالأولاد شاهدوا منظر كلب يلفه التيار. فصرخوا وهتفوا للفت الانتباه اليهم وللتشجيع. وبقساوة الفتيان، التي يطلق لها العنان أحياناً التقطوا حجارة من بدن الطريق وقذفوها نحوها. وعندما كان جسدها يدور تحت الجسر ركضوا في اتجاه مجرى النهر واستمروا في ضربهم الذي لايرحم، من غير انقطاع.

ماتزال «لاسي» تصارع وانها، الآن - قرب االضفة الأخرى وكان تحتها شلال. فاسرعت تعمل باقدامها - غير انها لم تكن من القوة بما يكفي وهكذا أمسك بها التيار، وشعرت بنفسها تدور في الفراغ وكان جسمها يساق بقسوة الى الصخور، وطعنات الألم تجري في جانبها مثل النار. ثم رماها التيار الى الأسفل، فاختفت. اما الاولاد الذين كانو يقفون على الجسر وينظرون باتجاه مجرى النهر فقد اطلقوا صيحة، كأنها صيحة انتصار مجنون، ثم سكنوا جميعاً. غير انهم وقفوا ليحدقوا في الماء الساقط. وأخيراً، بعد أن بدا وكأن وقتاً طويلاً قد انقضى،

صرخـوا ثانيـة. هناك في موضع ماء خلفي منعزل، غالب رأس «لاسي» الماء ثانية لانها كانت ماتزال تسبح باقدامها وقد اصبح الماء الآن ساكناً، واصبح بمقدورها السيطرة عليه. وبالصراع، والسبـاحـة، والقيـادة بكـل قوتهـا، وصلت الى اليـابسـة حيث لامست أقـدامهـا الأرض وكـان الماء العالق بجسمها عبئاً ثقيلاً جداً عليها لانها ترنحت في تلك اللحظة، وبدا وكأن عضلاتها المتعبة، لاتقوى على حملها.

الا انها بدأت تجر نفسها بعيداً. غير انها الآن، ولأول مرة، اصبحت تحـذر من خطـر آخـر؛ كانت مجمـوعـة الأولاد تندفع نحـوضفـة النهر يصيحون مثل فرقة نشيد متوحشة. فاستجمعت ما تبقى من قوتها ودفعت نفسها إلى أعلى الضفة، ولم تنتظر ان تهز جسمها لتزيل الماء عنه. لم تتردد بسبب الالم الذي اصاب قدمها الأمامية، ولابسبب الالـم الحديث الذي يلفح جانبها مثل النار. فقد كان عقلها يحمل شيئاً واحداً.

وأخيـراً عبـرت. بعـد أيـام مضنيـة من الصـراع مع حاسـة، الاتجـاه العنيـدة فقـد تحررت اخيراً وصارت حرة لتتجه جنوباً. بعد ان اجتازت الحاجز.

وثبت وثبة لاتناسبها حتى ان اصوات الصبية الذين خلفها قد تلاشت.

لقـد طوت الآن حاجـز البحيـرة الكبيـر، وأخيـراً، سارت «لاسي» في اتجـاههـا الـذي تريد، بقوة اكثر وضوحاً اذ سرعان ماتـركت القـريـة وصياح الأولاد خلفها. وراحت تسير من خبب

الى هرولة بطيئة وبهذا تستطيع ان تحتوي معظم الارض بأقل جهد .

لم يخطر ببالها الألم الذي في جانبها وفي كفها الأمامية . فهي قد قوّمت مشيتها على أحسن ماتستطيع حتى تقلل من آلام جروحها .

وفي الحال تركت الطريق خلفها ، وبدأت تشق طريقها عبر المروج والأراضي المنبسطة .

وعند الغروب ، كانت ماتزال في رحلتها ، وكأنها تستطيع الآن ان تتبع خط الجنوب ثانية ، وبعد أيام عديدة قضتها في السير غرباً ، لم تستطع ان تقطع مسافة طويلة لترضي مايعتمل في داخلها . وفي وقت متأخر من الليل ، ارتمت وسط مجموعة من نبات البوزال ، جنب جدارالحقل ثم اضطجعت لصيقة بالارض حيث برودة الارض المحمية من الشمس ، كانت جيدة للالم المحرق في جانبها وراحت تلعق كفها الأمامية ، محاولة بلسانها ان تصل الى الغشاء الرقيق بين الكف لتخرج الشوكة . وبعد عمل استغرق ساعة . ظلت الشوكة في مكانها .

وبتنهدة تشبه تنهدة انسان متعب مررت خطمها فوق ساقها الامامية الممتدة واغلقت عينيها .

لم يطلع الفجر بعد ، عندما استيقظت . فتثاءبت ثم حاولت أن تنهض فأرتفع طرفاها الاماميان ، من الارض ، غير ان الطرفين الخلفيين لم يتحركا . جلست للحظة . وكأنها قد استغربت من حدوث هذه المشكلة المحيّرة الجديدة . فقامت

ثانيـة وراحت تسحب بوسـاطـة، عضلات كتفها. حتى تدبرت أمر الوقوف باعتدال ثم خطت خطوة واحدة نحو الأمام وحجلت حجلة بقدمها الخلفية التي لاتؤلمها بينما الثانية لم تعمل.

في خلال الليــل، تصلب جانبهــا واشتـد ألمـه نتيجـة في الانهيـار الاخيـر ضد الصخـور في النهـر الهـائـج والتي كسرت ضلعـاً من ضلوعهـا واصـابت عضلات ومفاصل ساقها الخلفية برضوض وكدمات. لقد تصلبت الآن لحد انها لم تعد تتحرك. استدارت «لاسي» حول الملجأ الذي تحت الوزال، وهي تعرج بصـورة سيئـة. ثم سقطت متثاقلة على الأرض فكورت نفسها، واضطجعت بصمت، امـا عينـاهـا فكـانتـا تحـدقان من خلال السـويقـات والحـوالق باتجاه الحقل، حيث بدأت لمحة الفجر الأولى بالظهـور ولكنهـا لا تستطيـع ان تسـافـر أكثـر. فالغـريزة أخبرتها بذلك اذن يجب عليها أن تبقى هناك.

وعنـدمـا يمـرض البشـر، فأنهم غالبـاً ما يظهرون توجعاتهم ويعـرضونها، فلربما يمنحهم الناس العطف. وهذا على الضد مما هو جارٍ مع الحيوانات التي تعيش بأصالتها البرية. لا طلب لأية شفقة، وكل ضعف انما هو نوع من شيء مخجل، وهكذا يزحف الحيـوان المـريض بعيـداً، الى ركن قصيٍ مخفيٍ، وحيداً، بانتظار ما يأتي - اما الشفاءوأما الموت.

هذه القوة نفسها هي التي قادت «لاسي» الى الوكر الذي يقع أسفـل الـوزال. ان رغبـة السفـر قد حطمتهـا، غيـر ان قانـون الحيوان في الاختفاء اثناء الاصابة بجرح، سيطر عليها.

فظلت مصطجعة لعدة أيام، ملتفة حول نفسها، ومختفية بعيداً. عيناها تلمعان ولكنهما لاتتحركان! أما في الخارج، فكان العالم يسير دورته.
الظلام والنور يتعاقبان.
والطيور تغردومرّ عمال الحقل مرة. وكانت الريح تجلب احياناً حرارة لا تخطيء قريبة من رائحة أرنب. وفي مرة اخرى اقترب ابن عرس وكان يبحث من خلال الوزال، عن الوكر. شاهدت عيناه الحادتان الشكل المكور الفرائي. فارتعش انفه. وتوقف للحظة، ساكناً لايتحرك؛ ثم استدار بهدوء وذهب في طريقه، وكأنه يعرف ان لارغبة عند الحيوان المريض في مطار دته
مرّت كل هذه الأشياء. غير ان «لاسي» لم تتحرك فقد تفشت الحمى فيها، وتملكت جسدها. وهكذا اضطجعت لمدة ستة أيام، من غير حركة، تقريباً. ولكنها في يوم من الايام وكان الوقت عصراً، وكانت الشمس تنحدر نحو المغيب، رفعت رأسها أخيراً. وراحت تلعق كفها الأمامية ببطء وضعف. حيث فعلت الطبيعة فعلتها. فقد خرجت الشوكة من ذلك الشق. فلعقته «لاسي» قليلاً قليلاً ونظفت الجرح ثم نظرت حولها وتصارعت مع نفسها لتقف فتعلقت قدمها الخلفية، المصابة، ولم تعد تلامس الأرض وهكذا ضلعت قليلاً من مخبئها. وراحت تحجل عبر الحقل، حتى نزلت اسفل التل، حيث اخبرتها حاسة الشم بوجود ماء. لقد وجدت
نهيراً صغيراً. فأحنت رأسها ولعقت. انها المرة الاولى التي

تشـــرب فيهـا المـاء منـذ اسبـوع . شربت المـاء بشـراهـة . ثم اضطجعت، في النهير، غير ان رأسها بقي هذه المرة منتصباً. كما ارتفع انفها وصرخت صرخة احتجاج حادة ووقفت قبالة الجنـوب . ثم نظـرت نحـو مجمـوعـة الوزال . وأخيراً استدارت وراحت تضلع ثانية نحو اعلى التل .

زال منهـا الآن بعض التيبس ، وراحت تدبـر امـرها في السير بحـريـة على ثلاث سيقـان وبعد ان عادت الى مجموعة الوزال زحفت نحـو الملجأ واضطجعت هنـاك ، وبصبـر، راحت تنتظـر حلول الليل .

ارتــاحت هنــاك ليـومين آخـرين ، وصــارت تقـوم برحـلات قصيرةالى النهير لتطفيء، ظمأها .

غيـر انهـا لم تحصل على أي طعام ، كما انها لم تعد تملك أية رغبة فيه .

مضت تسعـة أيـام بعـد عبور النهر الهائج ، حين خرجت فيه من وجـرهـا وشقت طريقهـا الى مكـان الشـرب . انها تبدو الآن وكأنها تستخدم أقدامها الأربع ، غير ان القدم الخلفية الرابعة لم تكن تحمل أي وزن .

لعقت من المـاء الصـافي ، وكمـا كانت تفعـل سابقـاً رفعت رأسها ونظرت باتجاه الجنوب ، ان في دماغها شيئاً كان يتحرك . لقد كانت حاسة الوقت .

وبـوهن ، في عمق تفكيـرها ، استيقظت حاسة الوقت ثانية . انها الحاسة التي دمرت خلال مرضها .

لقد كان وقت ـ وقت الذهاب ـ وقت الذهاب إلى . . .

ثم عرفت «لاسي» مرة أخرى ان هذا هو الوقت الذي يجب ان تحفظ منه الموعدفي المدرسة. غير ان المدرسة ـ كانت هناك ـ في ذلك الاتجاه البعيد في ذلك الطريق الذي يجب أن تسلك.

أدارت رأسها مرة ونظرت الى الحقل، تجاه مجموعةالوزال تجاه الحائط. لكن ذلك كان للحظة، ثم عبرت الجدول. وراحت تقطع الطريق نحو الجنوب، ببطء. لقد كانت «لاسي» في طريقها مرة أخرى.

لم تعد الآن ذلك الكولي يعرض بفخر، والذي يهرول بشجاعة. انها الآن كلب انهكه السفر. جسدها ضعيف ناحل، ممزق بسبب أيام الجوع الطويلة. ، والحمى التي عانت منها. لقد كان خلطاً مؤلماً اكثر منه هرولة متباهية. ، ذلك الذي يجعل الكلب يغذ السير.

بعد غروب الشمس، بفترة قصيرة، توقفت «لاسي» ثانية.

توقفت هذه المرة عند مكان مسّور مريح دافيء. لقد كانت موقع صيد، حيث يختبيء فيه الصيادون، عندما تطير فوقهم الطيور في موسم الصيد، غير ان «لاسي» لم تعرف هذا وكل ماعرفته انه يوفر لها حماية ودفئاً.

كما انها لم تكن تعرف انها تبعد ثلاثة أميال عن وجرها الذي تحت نبات الوزال.

ان عظمة أو صغر المسافة لاتتحدد في أدمغة الحيوان لان

كل ماعـرفتـه أنهـا تشعـر بالـرضـا . فلقد سارت في طريقها في الاتجـاه الـذي تريـد أن تذهب فيه أكثر من أي شيء آخر ترغب فيه في حياتها وهكذا تنفست بسعادة .

رفعت أذنيهـا ، وتحـركت ارنبه أنفها لان رائحة ارنب اقتربت منها بوضوح .

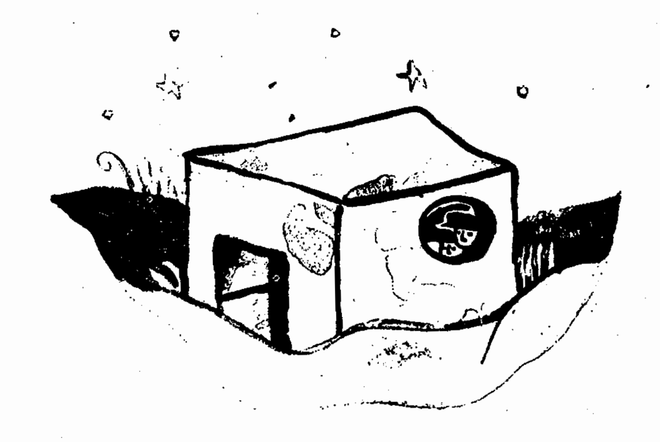
انـه طعـام ! وأخيـراً انهـا ترغب فيه لان جوعاً ضارياً استيقظ فيهـا ، وسـال لعـاب من فمهـا فتقـدمت قليلاً للأمام من احدى زوايا موقع الصيد حيث ستأكل حالاً ، ومن ثم ستسافر ، بقوة مستردة .

ثم تقدمت الى الأمام بصمت .

لو كانت ضعيفـة وبطيئـة الآن الى الحد الذي لا تستطيع فيه ان تصطـاد طعـامهـا ، فستمـوت . اذ انها سرعان ما ستضعف أكثر بسبب الجـوع . ولـو كانت قويـة وسريعة بما فيه الكفاية لتمسك بالطعام ، فستصبح أقوى .

ومن اجل هذا زحفت نحو الامام ، منطلقة مثل شبح نحو طريدتها .

الفصل الرابع عشر



من أجل قتل الوحوش

ثم رجلان في كوخ حجري أجرد وكان ضوء القمر يأتي من خلال كوة في الجدار فوقهما، ويكشفهما قليلاً. كانا يرتديان ملابس متشابهة، مصنوعة من قماش نسيج يدوي، فيما عدا الأصغر الذي كان يرتدي قبعة شاحبة بينما يرتدي الآخر قلنسوة صوفية. لم يكن هناك شيء لفترة طويلة، سوى انفاسهما، ثم تحركٍ الأصغر في تلك اللحظة، فمد اليه الأكبر يده ليهدئه، قائلاً

ـ «اسكت .»
وجمدا في سكون ثم همس الأصغر
ـ «هل سمعت يا «اندرو»؟ »
ـ «ظننت . . .»
نهضا بصمت وحدقا في الفتحة المثلثة الموجودة في الجدار كانت تحتهما ارض يغمرها ضوء القمر، والحقول المعشوشبة، التي تشبه متنزهات قد اعتني بها، في ضباب خفيف لونه ازرق رمادي .
حدقا لفترة طويلة، في حين أن عيونهما وآذانهما كانت حذرة يقظة .
ـ «لا، يا «اندرو» . لم أسمع شيئاً .»
أومأ الأكبر برأسه، فتمايلت الخصلة الموجودة على قلنسوته ذهاباً ورجوعاً .
ـ «ظننت انني قد فعلت ذلك .»
سحب الاصغر الشارد العقل غليونه من جيبه بينما راقبه الآخر بامتعاض .
ـ «لن ادخن يا «جوك» . ستشم الرائحة بجلاء .»
ـ «نعم . الامر كذلك . لكنني في توق شديد للتدخين وستشم الدخان أولاً أليس كذلك؟»
أومأ «جوك» برأسه نحو حظيرة كبيرة في الحقل الذي يقع أسفلها اذ هناك، في ضوء القمر، وقف قطيع الخراف الكبير من غير حراك انه ساكن . فلقد تجمعت متقاربة جداً، لدرجة ان

ظهورها صنع بحراً من اللون الرمادي .
ـ «وستسمعنا من بعيد . »
استمر «جوك» في حديثه ، مؤشراً ورأسه خلف كتفه .
ـ «في الاقل سيفعل «دوني» ذلك . »
بعد ان سمع اسمه ، رفع احد الكلبين الموجودين في المخبأ رأسه مترقباً وتنهد الآخر وهو يراقب بحذر ليرى ان كانت المراقبة الطويلة هذه قد انتهت أخيراً .
ـ «لا ارى مبرراً للاحتفاظ بهما هنا ، على أية حال يا «أندرو» . من الافضل أن نتركهما مع الخراف ، خارجاً . »
ـ «لا ، لا ، يا «جوك» . لو نتركهما خارجاً ، فلن يعود الشيطانان . انهما مخادعان ، ايها الولد . »
ـ «نعم . . انهما مخادعان . . هذا صحيح» .
قال الاصغر موافقاً .
ـ «تركناهما ست ليال يراقبان ، ولا اشارة منهما اما في الليلة السابعة فذهبنا الى بيوتنا لننام ، وفي الحال اغمضت عيوننا ، ولم تأت الينا ، وبعدها حدث الذبح :
سبعة حملان وشاتان! سبعة حملان ، اتصدق ذلك؟ لماذا لا تأتي هذه الحيوانات المتوحشة في الليالي التي تستعد فيها لها؟»
تجاهل الرجل الأكبر السؤال الأخير.
«يجب ان تكون ممتناً يا «جوك» . فلقد خسر «ارجي فورسايث» ستة عشر واحداً ، يوم السبت ، و «ماكنزي» ثلاثة عشر في الليلة

التي تلتها.»

ـ «آه.. المتوحشون. السبت وكل الايام الاخرى سواسية لهؤلاء الشياطين.

مخلوقات الشيطان ذات القلب الاسود! آه لو امسكت بواحد منها...»

لم يكمل الرجل الاصغر كلامه.

ـ «ماذا يجعلها تفعل ذلك يا «اندرو»؟»

ـ «آه ايها الولد. ذلك من الاشياء التي ربما لن نفهمها. غير انني افترض ان الكلاب مثل المخلوقات البشرية، يا «جوك». معظمها أمين وثقة. ورغم ذلك يولد واحد شرهاً وقاسياً وغير امين. وعندما ينهي نهاره كحارس رائع، سرعان ما يخفيه الظلام، ويظهر على حقيقته: شيطاناً أشرا.»

ـ «نعم يا «اندرو». انت تعرف، اقسم لك بالسماء التي فوقنا انني احب الكلاب. وكنت اعني بكلبي، هذا الوحش. غير ان هذه الكلاب شياطين انها قتلة الخراف. انها ليست كلاباً. هل تعرف بماذا أفكر أحياناً يا «اندرو؟»

ـ «بماذا يا «جوك»؟»

ـ «حسن. قد تضحك. غير انني ظننت في بعض الاحيان ان قتلة الخراف ليست كلابا، بل انها اشباح قتلة قد شنقوا، ثم عادت وتنكرت في أجساد حيوانات!»

قال الرجل الصغير ذلك بنبرة مخيفة، ارتجف معها الاثنان، فقال الكبير:

ـ «لا ، لا يا «جوك» . انها كلاب ليس إلا ، وسوف لا نرحمها . »
ـ «لن أظهر الرحمة ـ لو رأيت واحداً . . »
ـ «اسكت ! »
جمدا ثانية . عندما اعطى الاكبر اشارته .
ـ «هناك ! »
ـ «أين ؟ »
ـ «هناك يا «جوك» ! احضر بندقيتك أيها الرجل ، بسرعة ! »
قبض الاصغر على بندقيته المتكئة على الجدار ، ثم انتظر وساد الصمت فترة طويلة .
ـ «هل كنت تشاهد أشياء يا «اندرو» . . . »
قال الاصغر أخيراً .
ـ «لا شيء هناك ، ولن يكون ، مادمنا هنا . والشياطين . . تعرف اننا ننتظر انها تعرف هذا ! »
ـ «اسكت يا «جوك» . الزم الهدوء ، اتفعل ذلك ؟ »
أذعن الاصغر . غير ان الدقائق الطويلة مرت متثاقلة واصابه الضجر ، فتكلم ثانية .
ـ «اندرو . »
ـ «نعم ؟ »
ـ «انت تعرف انني كنت افكر . لقد كانت ذكية جداً عندما تساعدنا . أما الان فاصبحت ذكية ايضاً في ايذائنا عندما تحولت الى شريرة . وأي واحد منها يستطيع ان يتحول الى شرير أيضاً ، يا «جوك» . لا تنس ذلك . حتى كلبك الخاص الذي تعتز

به كثيراً جداً فانه اذا تذوق، دم الخروف مرة، فانه يصبح قاتلا.
- «ولكن ليس مع كلبي «دوني»! »
- «لا، ولا اظن مع «فيلك». غير انها حقيقة. لو قام احدها بالقتل مرة واحدة، فانها البداية، اذ ستستمر في القتل لا طلباً للطعام، وانما تلذذاً بالذبح الدموي»
- «لن يفعل ذلك كلبي «دوني»! »
- «لاتستطيع ان تقول ذلك يا «جوك». هناك بعض الكلاب الآن، جيدة وفي أحسن حال مع قطيعها. ثم تأتي ليلة، سترحل فيها بعيداً - وتلتقي أحياناً وكأنها على موعد مع انواع من جنسها. ثم مثل قطيع من الذئاب، ستنزل بالقطيع مفترسة اياه افتراساً وستمزقه وتخترقه فهي تقتل وتذبح، ثم تبتعد قبل قدوم النجدة. حيث تتفرق، ويرجع كل منها الى البيت خلسة. ويأتي اليوم القادم، وعندها ستقوم بحراسة قطيعها الخاص، وكأن الزبد لم يذب في افواهها.
- «آه.. ولكن ليس الأمر مع «دوني». لو فكرت في انه يفعل....»
سكتا للحظة، ثم تكلم «جوك» مرة اخرى.
- «يبدو الامر محزناً اننا المولعين بالكلاب، علينا ان نقضي عليها.»
- «نعم. ولكننا سنقضي على القليل لو بقينا نتحدث طوال الليل. انها إذن لا تأتي.»
حل الصمت ثانية. وبقعة من ضوء القمر تحركت فوق ارض

الحقل الصغير.
ثم، أخيراً، تكلم الاكبر ثانية، وهذه المرة كان يرتعش مندفعاً بالعاطفة.
- «ها هي قد جاءت»
قفز الآخر ليتخذ موضعاً، جعل بندقيته تتكىء فوق صخرة ناتئة. ثم حدّق الاثنان، وقد قطعا انفاسهما، في المشهد الذي على يسارهما.
- «نعم، هناك!»
صوب «جوك» بندقيته. كانت هناك حركة عند الجدار الحجري. ثم شاهد كلباً، جاء يركض، فبان واضحاً أمام العيان.
لقد كانت «لاسي». لقد مضى اسبوع منذ ان غادرت المخبأ، غير انها كانت ما تزال تعرج. جاءت الى الحقل، في ضوء القمر المنير، متدفعة بصورة مستقيمة، وثبات، وكأنها تتبع بوصلة طريق.
في الكوخ الحجري، أطلق الرجل الأكبر نفساً حبيساً.
- «دعني اقتله يا «جوك». »
صاح بهمس أجش.
احتضن الاصغر بندقيته، لكنه لم يطلق النار.
- «أين البقية؟»
- «ما الامر؟ فليتلقها»
- «انه كولي - هل تظن انه هو؟»

ـ «لا . انه ضال انه احد المتوحشين . ليتلقها . لا تخطيء ، الآن . »

ثم أدار «جوك» رأسه

ـ «سلّمت واحــداً من هذه الاشيـاء في الحـرب ، يا «انـدرو» . لانني لا أخطيء ـ ولم أدفع ثمن ذخيرتي الخاصة . »

«اطلق إذن يا «جوك» ! »

احتضن الاصغر مقبض بندقيته ثانية وحبس انفاسه ، وسدد نحو الكولي الذي يهرول ، لقد تحرك الكولي .

ـ «اسرع يا «جوك» ، الآن ! »

رفع «جوك» رأسه ، ووضع البندقية على الارض .

ـ «لا استطيع يا «اندرو» . »

ـ «اطلق يارجل ، اطلق ! »

ـ «لا ، لا يا «اندرو» . انه لا يبدو شيطاناً مثل البقية . لنرَ ان كان سيـذهب قريبـاً من الخـراف . انه يبدو وكأنه لا يعير لها اهمية ، ابداً . انظر . »

ـ «انه ضال ولنا الحق في رميه ! »

ـ «لنرَ ان كان يقترب من الخراف ! لو فعل ! ! . . »

ـ «اوه . . اطلق عليه ! »

انطلق صوت الـرجـل الاكبـر حاثـاً ايـاه عاليـاً حتى ان الصرخة ترددت تشـق سكــون الليــل ، فوصلت الى اسمــاع «لاسي» المهـرولـة وعنـدهـا توقفت ، وادارت راسها ثم سمعت اصوات رجـال ، وشمّت رائحتهم ، وحركتهم من كوة الكوخ الحجري .

لقـد كان رجـلاً، رجـلاً سيسلسلهـا ـ رجـلاً يجب ان تتجنبـه.
وهكذا استدارت ووثبت وثبة مفاجئة.
ـ «هناك. لقد شاهداها اذن لتتلق مصيرها!»
ثم رفـع البنـدقيـة بسرعة، واحتضن مقبضها واطلق النار فقفزت «لاسي» مبتعدة، اما ازيز الاطلاقة التي مرت بالقرب من كتفها الايسـر، فجعلهـا تسرع كثيراً نحو اليمين. وكانت هناك اطلاقة اخرى، فأحست بحرقة في خاصرتها.
ـ «اصبته.»
ـ «لم تفعل. انظر اليه وهو يذهب!»
داخـل الملجأ الصغيـر، امتـزجت اصوات الرجلين مع اصوات الكلاب، التي راحت تصيح في صخب وجلبة.
ـ «دعها تخرج!»
اسـرع الـرجـل الكبيـر نحـو الباب وفتحه. اندفعت الكلاب ثم الرجلان يتسابقون في أثر «لاسي».
ـ «هيا، احصلوا عليه!»
زعق «اندرو».
انـدفعت الكـلاب، وهي تنبـح اثنـاء المطـاردة. نزلت أسفـل المنحدر، وجاء خلفها الرجلان، وسرعان ما تخلفا الى الوراء. وانحـرفت الكـلاب فجأة، ونبحت بصـوت اعلى، اذ انهـا قد التقطت الاثرـ رائحة دم طازجة.
امـامهـا كانت «لاسي» تخب وقـد توقفت لمـرتين فجأة وعضت خاصرتها حيث جرحت الرصاصة عضلات ساقها جرحاً خفيفاً.

كانت تسمع اصوات كلاب تطاردها، غير انها لم توسع من خطواتها. انها لا تخاف من الكلاب. لقد كان الرجل الذي رغبت ان تتركه خلفها واخبرتها حواسها ان الرجال ليسوا قريبين. انها الآن تخاف الانسان أكثر من اي وقت مضى. ليس فقط لان يديه تحبسان وتضعان السلاسل، وانما يمكن ان يصنع اصواتاً مرعدة تؤذي الاذنين، وهي نوعاً ما تؤذي مثل السوط، وتؤلم.

وفي الحقيقة ان الرجل يمثل خطراً شيطانياً.

ثم قفزت بثبات، وهي تشعر انها ربما ستترك الجميع خلفها. غير ان الكلاب الباقية كانت في نشاطها، فهي لم تكن في سفر ولا نصف جائعة ولم تقطع مئات الاميال. وهي الان على مرمى بصرها. وهكذا نبحت الكلاب بنبرة اعلى وبالرغم من السرعة الكبيرة التي انطلقت بها «لاسي» فانها اصبحت بجانبها في الحال.

وراح احدها يعض خاصرتها ويضربها على كتفها ليسقطها ارضاً.

غير ان «لاسي» كانت ما تزال تملك شيئاً واحداً قد تكون متعبة وجائعة إلا انها ليست جباناً فاستدارت مثل البرق ووقفت من غير خوف وقد انتصب عرفها، وتدلت شفتاها الى الخلف وبرزت انيابها.

موقفها هذا جعل الكلبين يتوقفان في طريقهما، إذ بالرغم من انهما من سلالة أكثر خشونة إلا انهما من دم الكولي، ايضاً.

وقد فهما التحذير.
هناك يوجد كلب هجين يطارد كما يطارد ارنب. وكأنما قد نبذت جانباً قلقها الضئيل استدارت «لاسي» ممتثلة للقوة الدافعة العظيمة التي تعتمل في داخلها. يجب ان تمضي في طريقها ـ جنوباً وابداً نحو الجنوب.
غير ان الكلبين الباقيين ظنا انها علامة الخوف، فهاجمها الاثنان، وكما يفعل الكولي مرقامن قربها بسرعة، وجرحاها بوحشية، ان الكولي لا يندفع ويهاجم ويظل ملتحماً في القتال، كما يفعل «البلدوك»، ولا مثل «الترير» الذي يراوغ. ولكنه يركض امام العدو، ويعضه عندما يمر من امامه، ليسقطه ارضاً.
لقد كانت هذه طريقة «لاسي» في القتال. وهي تعرف غريزياً، كيف تقابل ذلك. وعلى اية حال، فانها عندما استدارت لتواجه خصماً واحداً، فان الآخر اسرع، وجاء من الجانب الآخر، غير ان «لاسي» استدارت في مكانها، منتظرة ملاقاة العدو الاقرب لقد وقفت ورفعت راسها، تراقب في ضوء القمر. هاجمها الكلب الذي بجانبها، غير انها تفادته، واستمرت في طريقها وبينما كان الثاني يسرع نحوها. استدارت ثانية ـ لكنها تأخرت ثانية واحدة لأن الارهاق بدأ يظهر عليها، فاصبحت نصف واقعة على الارض ثم هاجمها الثاني قبل ان تقف على اقدامها واشتبك الثلاثة، وصاروا على شكل كومة وهنا شعرت «لاسي» بانها طليقة وبدأ كل شيء من جديد؛ كلب يهاجم، والآخر

يندفع نحوها عندما تستعد لملاقاة الاول.
كانت المعركة طويلة، وكانت ما تزال محتدمة، عندما وصل الرجلان، يلهثان بسبب ركضهما مسافة طويلة، ثم وقفا وراحا يراقبان.
- «لاتطلق النار الآن يا «جوك». . ربما تصيب كلبي «فيكي». »
قال «اندرو» ذلك وهو يلهث!
هز «جوك» رأسه. ووضع البندقية على ذراعه. كان رأسه مندفعاً الى امام لقد راقب - عن كثب - المعركة بين كلب واحد متعب من السفر، وكلبين قويين خشنين وثقيلين وصلبين بسبب سني عملهما، وفكر ان الاثنين سيفوزان حتماً. غير ان «لاسي» كانت تملك شيئاً، لا يملكه الاخران. انها من سلالة كريمة المحتد. . لقد كانت نقية، ومن ذرية، من احسن الانواع.
هذه النظرية، نظرية الدم، لم تكن بلا جدوى، ويعرفها كل محب للحيوان. ففي الوقت الذي نرى فيه الحصان الهجين يذعن ويتخلى، ولا يبدي شيئاً، نرى الاصيل يجيب، ويعصف بسرعة تدل على شجاعته وشهامته، حتى لو اقتضاه الامر ان يعطي آخر رمقٍ يملك من قوة الحياة، فبينما سيئنّ الكلب الهجين وينسل مبتعداً، سيقف الكلب العريق من غير ادنى ذرة من الخوف.
وكان هذا هو الدم الذي يجري في «لاسي»، فعندما هاجمها احد الكلبين، فانها قد لاقته، غير مبالية للآخر القادم نحو خاصرتها، فاسقطته ارضاً، وظل للحظة مستسلماً.

ثم فعلت «لاسي» شيئاً غريباً؛ فبدلاً من ان تحقق نصراً سهلاً وتندفع نحو حنجرته، فانها وضعت كفها الأمامية بصلابة فوق جسمه، كما يفعل المصارع. وطالما ظل ساكناً لا يبدي حراكاً، فإنه لن يقاسي من شيء. وبينما ظل هذا ساكناً من غير اي احتجاج، واجهت «لاسي» الكلب الآخر حيث رفعت رأسها بينما التمعت الانياب البيض. ومن صدرها، ندت دمدمة خفيفة بطيئة للتحدي.

نظر الكلب الآخر اليها، ثم ـ هو أيضا ـ اضطجع على الارض، وبدأ يلعق جرحاً في كفه. لقد كانت هدنة.

لذلك توقف الكلبان ـ الواحد المنبطح تحت كف «لاسي» القوي، والثاني الذي ينظف نفسه، وكأنه يقول:

ـ «لا علاقة لي بأي شيء مما يجري!»

لقد ظلت تلك الصورة للحظة فقط، اذ سرعان ما غادر «لاسي» جنون القتال.

فقد ماتت الزمجرة في حنجرتها وتذكرت ما فعلته ثم استدارت بهدوء وراحت تهرول مبتعدة.

وعند ذلك راح احد الرجلين يرقص ورفع صوته قائلاً:

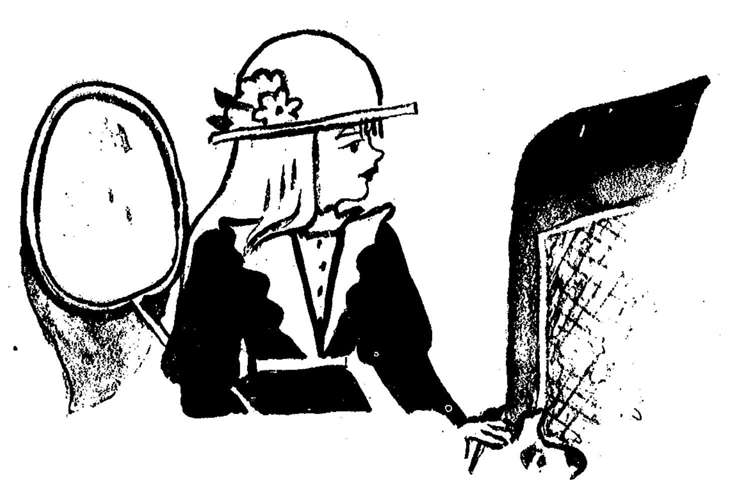
ـ «الآن ـ الآن يا «جوك»! اطلق النار عليه!»

بيد ان الرجال الأصغر لم يتحرك، اذ انه رأى في مخيلته رجالاً، لا كلاباً. كان يتذكر يوماً معيناً. وعندما وقف، غاب الكلب الذي من نوع الكولي عن البصر.

ـ «لماذا لم تطلق النار يا «جوك»؟»

ـ «لم استطع يا «اندرو» . »
ـ «لم لا؟»
ـ «كنت افكـــر في آذار ـ آذار ١٩١٨ يا «انـــدرو»، عنـــدمـا قام «كولي» بانقاذنا من موت محقق . »
ـ «وهذا؟»
ـ «حسن . . كان ذلك كولياً شجاعاً يا «اندرو» . وكان ذاهباً الى مكان ما، و، و. . . لم اطلق النار، لانني نسيت ان أملأ البندقية . »
ـ «آه . . نسيت، نسيت!»
ـ «لدينا اشياء اخرى يجب تذكرها يا «اندرو» . »
قال الرجل الاصغر.
ثم عندما استدارا راجعين، ضرب مؤخرة بندقيته برفق، واخرج الخـرطـوشـة من مخـزن البنـدقيـة، ووضعهـا بصمت في جيبه وهكـــذا عاد الـــرجـلان، يتبعهـمـا الكلبـان، الى الملجأ على المنحدر الذي يغمره ضوء القمر.

الفصل الخامس عشر



سجين في الاراضي المنخفضة

تغير الريف الآن ولم تعد هناك اراضٍ مرتفعة ونبات الخلنج ، كما لم تعد هناك تلال متموجة ومراعي خُراف . وبدلاً من ذلك ، كان الريف متسعاً ، وفيه هضبة فقط ، وذلك لكونها مخلفات مناجم الفحم .

هنا العديد من المدن وهنا طرق عديدة أكثر . ولم يعد بمستطاع كلب ان يمر حول اي مدينة من غير ان يرى ، ولا يمكنه ان يختفي عن أعين الناس ، اذ ان الناس في كل مكان . ولم تجد

محاولات «لاسي» التي يمكن ان تجربها لتراوغهم، اذ انها ستكون في مرمى بصرهم، وهي ترحل جنوباً.
لذلك فانها طورت طريقة جديدة نحوهم. لقد حافظت على ابتعادها قدر ما تستطيع، ولكن لو تحتم عليها ان تمر بالقرب منهم، فانها ستتجاهلهم.
وفي الحقيقة، بدا لها الامر سهلاً مع سكان هذا البلد، اذ ان لهم اساليب عديدة في طرق حياتهم فهم يشبهون الناس الذين عاشت بينهم. فغالباً ما كانت وجوههم سوداً ملطخة بالسخام، كما هو حال سكان «كرينول بريدج». كانت ملابسهم مغطاة بالروث. وفي ايدي الرجال أو على رؤوسهم توجد مصابيح.
وأكثر من ذلك، فانها شمت من المدن والناس، رائحة رجال يعملون تحت الارض، ان هذه الرائحة تشبه رائحة الملابس التي يرتديها سيدها، غير ان هؤلاء الناس ليسوا كسيدها، لكنهم كانوا يشبهون سكان القرية.
وراحت «لاسي»، رغم انها الآن أكثر حذراً، تعامل هؤلاء الناس كما تعامل اهل قريتها: فلقد قبلتهم، لكنها لم تستجب لاي واحد، ولم تذهب الى حيث يلاطفونها، ولم تطع أي امر من أوامرهم. ولو امتدت اليها أيدٍ بالقرب منها فانها تختفي وتزوغ من بين ايديهم مثل الزئبق. ولو ألحوا في ذلك فانها تجعل جسدها المتعب المنهك يتحول من الركض، الى قفز يجعلها بعيداً عن ايدي المطاردين ذوي الساقين.
وعندما يهدأ الامر، فانها تعود الى هرولتها، متجهة نحو الجنوب

ان الهرولة الان اصبحت أكثر بطأ كما ان هناك شيئاً آخر في هذه الارض المتغيرة. وهو انه لا يوجد فيها طعام. كانت هناك، سابقا ارانب، غير ان هذه اصبحت اكثر ندرة، حتى صار من النادر ان تشم الرائحة الحارة.

لقد بدأت تشعر بالتعب والارهاق الشديد، حتى صار من الصعب عليها اطاعة التحذير في الابتعاد عن الناس كما ان ارهاقها الشديد جعلها متعبة بشكل لا تستطيع تفادي انسان الا بعد ان تقترب يده منها كثيراً جداً.

غير ان هناك حافزاً واحداً لم يزل ينبض ولم يمت ـ وهو الحفاظ على الترحال جنوباً.

ولا اتجاه آخر، سوى الجنوب ـ وهكذا، جاءت «لاسي» على مهل، عبر الاراضي الاسكتلندية المنخفضة. وصار طريقها عبر ذلك الريف الصناعي الاسود، عندما امتثلت لتلك الشعلة التي تتقد في داخلها.. الرغبة في السير جنوباً ـ جنوباً دائماً. وفي طريقها ذلك، تركت العديد من القصص ـ والكلمات التي تحكي في البيوت والاكواخ.

قالت زوجة شابة وهي جالسة مع زوجها على مائدة الطعام، في بيت احدى مدن المناجم الصغيرة، كانت تراقبه وهو يتناول طعام العشاء:

ـ «شاهدت أغرب شيء اليوم يا «ايفور»، مع كلب.»

ـ «كلب؟ لمن؟»

ـ «لا اعرف لمن يعود. كنت جالسة مع الطفل، اقضي دقائق

تحت الشمس، عندما جاء هذا الكلب عبر الطريق. لقد كان ملطخاً بالطين ويبدو مرعب الشكل، لكنه بطريقة ما لطيف الشكل.»

ـ «كيف يكون لطيف الشكل ومرعب الشكل؟»

ـ «لا اعرف، الآن. لكنه كان كذلك. ويبدو متعباً جداً. يبدو مثل الرجال العاملين الذين ينهون وجبة عملهم فهو متعب ومنهك لدرجة كبيرة، ورغم ذلك ظل يسير. فناديته، غير انه لم يأت. لقد توقف بعيداً ونظر الي ـ لفترة قليلة يا «ايفور».

لذلك ذهبت داخل البيت واحضرت اناء ماء ووضعته أمامه. ثم جاء ولعقه.

وبعدها احضرت اناء من فتات الطعام ووضعته على الارض، فنظر اليه طويلاً، واخيراً شمه وبدأ يأكل. لقد كان صعب الارضاء، غير انني اقسم انه كان جائعاً. ومسكيناً ونحيلاً. ثم بينما كان منهمكاً في تناول الطعام توقف، ورفع رأسه، واتجه نحو الطريق وكأنه تذكر موعداً....»

ـ «حسن.. ماذا اردت منه ان يفعل؟ أيقف ويقول لك شكراً؟»

ـ «لا. ولكن يقطع طعامه ويذهب! لماذا يفعل ذلك؟»

ـ «وكيف لي ان اعرف ذلك يا «بيكي»؟ كل ما اعرفه انك تطعمين كل الكلاب الضالة والضالين في العالم لو تسنى لك ذلك.»

ثم ضحك الرجل، وضحكت المرأة أيضاً، إذ انها من حرارة صوت زوجها

عرفت انه كان مسروراً معها . لذلك نسيت الكلب الضال الذي اظهرت له عطفاً.وفي مدينة تبعد خمسين ميلاً جنوباً، كتبت امرأة نحيلة الوجه رسالة الى زوجها الذي كان بعيداً في رحلة عمل وكانت الرسالة تقول :

ـ «حدثت لنا تجربة ـ مرعبة ـ في اليوم الاخير كان عندنا كلب مجنون في القرية. شاهده اولاً العريف «ماكريكور» وشك به، اذ كان يسيل لعاب من فمه . فأراد ان يمسكه، لكنه خدعه . رأيته نازلاً من الشارع ـ فقد كنت في زيارة للسيدة «تامسن» ـ لقد كان مخلوقاً مرعباً ، بفتحة فمه الفاغرة وهرولته المجنونة . كان العريف والعديد من اولاد المدينة وراءه . ركضت باتجاه محل «جاميسون» للألبسة الجاهزة، ولم أخرج الا بعد ساعة فقد خفت منه .

وسمعت فيما بعد انهم قد حاصروه في شارع «فنل» وظنوا انهم قد نالوا منه لكنه قفز في اللحظة الاخيرة فوق حائط عال، والذي كما تعرف، يبلغ ارتفاعه ست اقدام في الاقل . انه مجنون حتماً، اذ لا حيوان سليم العقل سيحاول ان يعمل مثل هذا الشيء .

ـ «ومنذ ذلك الوقت ندر عندنا «داء الكلب» ، فقد جمعت كل الكلاب الضالة واخذت الى الزريبة واظن انهم سيقتلونها اذ لا يعرف المرء أي ضرر قد تسببه كما أخبرتك انني كنت عصبية جداً حول الشيء كله، لذا آمل ان تسرع في العودة قدر ما تستطيع وتنهي رحلتك . . .»

انها قصص عن الجبن والرعب ـ اضافة الى الطمأنينة والحب ـ كانت تقال في رحلة الطريق الطويل الذي كانت تشقه «لاسي» وهي متجهة نحو البيت.

عند المدينة الصناعية الاسكتلندية الكبيرة، يصبح النهر عريضاً وعلى ضفتيه، توجد جدران عالية واسيجة، والفسحة على موقع النهر مهمة، لقوام الحياة عند الجماعة

وهناك، عند النهر، تلتقط الرافعات البرجية قطعاً عملاقة من المعادن وتحركها نحو هياكل منتصبة من الفولاذ. حيث يقضي الرجال كل يومهم، يتسلقون بجهد، يثقبون ويوصّلون.. لكي تولد السفن العظيمة التي راحت مؤخراً تمخر عباب الاطلسي.

انتشرت مصانع السفن في المدينة فوق كل بوصة من النهر العريض. وعبوره يتم بوساطة عبارات تحدث اثناء تحركها اصواتاً انفجارية قصيرة خافتة ـ اما المدينة فتوجد الجسور القديمة التي توصل الشمال بالجنوب منذ عدة قرون.

وفوق واحد من هذه الجسور المزدحمة، هرولت «لاسي». طافت لعدة أيام، في الضفة الشمالية، باحثة عن طريقة تعبر بها، ولكن ما توصلت اليه أخيراً هو ان عليها ان تسير بين الناس.

عندما راحت في طريقها، كان الناس المزدحمون على الارصفة يديرون رؤوسهم ويقولون كلمة ما بها؟ غير انها لم تكن تعير للأمر أهمية. بل راحت تشق طريقها وسرعان ما اختفت وسط الزحام عن النظر.

غيـر ان رجلين لم يدعـاهـا تغيب عن النظـر. كانـا في شاحنـة صغيـرة، يعبـران الجسـر. احدهما، في المقعد الامامي، لكز صاحبـه الـذي كان يسـوق، مؤشراً نحو كلب كان يسير بعزم اما الثـاني فلم يجب وانمـا أومأ برأسـه وكأنه يوافق بسعادة، واسرع بعجلته على نحو يسمح لهما متابعة «لاسي».

وفي نهـايـة الجسـر، خطت «لاسي» نحـو الامـام بثبـات. ثم اسـرعت في هرولتهـا قليلاً لانها شعرت بطمأنينة مع رغبتها في الـذهـاب جنوباً. . كان النهر خلفها وللحظة طغت عليها ومضة من النشاط، فرفعت ذيلها الى الاعلى قليلاً، حتى تبدو جذلة.

وسـارت بمحـاذاة الـرصيف الى الجنوب ولـم تنتبه الى الشاحنة الصغيرة التي توقفت بجانبها.

اذ انها وسط هذه الضوضاء المتعددة المصادر وروائح المدينة، لـم تستطـع اذنـاها المرهفتان او انفها ان تحذرها الا في اللحظة الاخيرة فقط، حين حذرتها حواسها الحيوانية، فوثبت.

فلقـد تحـرك شيء ما في الهـواء فاندفعت غير انه لـم تكن هناك فائدة اذ احاطت بها شبكة حددت كل حركاتها.

صارعت لمدة دقيقة بكاملها، بوحشية عنيفة ضد الشبكة التي سجنتها.

غير انها كانت تشد عليها أكثر. والآن، انحنى عليها احد رجلي الشاحنة الصغيرة.

وراح يمسـك بهـا بيـدي خبيـر. وربـط حول خطمهـا شريطـاً جلدي، بقسوة، فكمم فكيها وأغلقهما وشريطاً آخر نحو عنقها.

وكان هناك آخر، يربط سيقانها سوية.
وهكذا وقفت «لاسي» ساكنة، ها هي قد طوقها الناس الآن.
شعرت بان الشبكة قد رفعت. ارادت ان تخرقها بقوة شد عظيمة.
تحررت قدماها الاماميتان. وصارت إحدى ساقيها الخلفيتين طليقة!
لقد كانت تخرج من الشبكة!
كانت تسحب وتندفع مصارعة الرجل الذي يحملها بينما راح الآخر يرمي بنفسه عليها. ولو ان الشريط الذي حول فكيها قد تخلصت منه لهان الامر الا انها شعرت باجهاد عندما قبض رجل على ساقها الامامية. ثم ضربت على رأسها.
فسقطت «نصف دائخة»، ثم توقف الرجلان عن ضربهما، عند سماعهما صوتاً، واضحاً جلياً قادماً من الزحام. لقد كان صوت امراة ينطلق بنبرة سريعة:
ليس من حقكما ان تعاملا ذلك الكلب تلك المعاملة الوحشية!»
فنظر أحد الرجلين الى اعلى وهو يظهر انحناءة، وتساءل:
- «عمل من هذا؟»
بدأ احد الذين في الحشد يضحك ضحكة نصف مكبوتة، غير ان ضحكته ماتت، عندما تقدمت المراة الشابة الى الامام وصار صوتها حازماً:
- «وإذا ظننتم ان وقحاً ما سيأتي لمساعدتكم، فأنتم على خطأ فلقد راقبت كل هذه العملية وجئت لاقول لكم: انتما وقحان

وقاسيان . »
وعندما تكلم الرجل ثانية وقد تغيرت نبرته .
ـ «آسف جداً يا سيدتي . غير ان هذا واجبي . يوجد هناك العديد من الكلاب المسعورة في الجوار ـ وماسك الكلاب انما يؤدي واجبه . لان في ذلك حماية للناس . »
ـ «هراء ـ لا توجد في هذا الكلب علامات مرض الكلب . »
ـ «لاتستطيعين ان تقولي ذلك . على اية حال ، انه ضال ـ وعلينا التقاط كل الكلاب الضالة . فلا يوجد اسم على جلد ياقته .
بدا وان المراة ارادت ان تتكلم ، غير ان الرجل الذي بجانبها لمس ذراعها :
ـ «جاب» على حق يا «أثيلدا» . لا نستطيع ان نجعل حشوداً من الكلاب الضالة تجري هنا وهناك بل يجب السيطرة عليها ، كما نعرف . »
ـ «هذا صحيح يا سيدي ، »
قال ماسك الكلاب .
نظرت الفتاة حولها ، ثم قالت :
ـ «حسن . يجب الا يسيطروا عليها بتلك الطريقة انهض . سأضعها انا في شاحنتك .
ـ «ستهرب منك يا سيدتي . »
ـ «هراء . انهض . »
نظر الرجل المنحني الى الحشد ، وكأنه يقول ان النقاش مع امرأة عقيم ، وخصوصاً تلك التي تحمل أفكاراً حمقاء . وعندما

نهض، انحنت المرأة. وللحظة شعرت «لاسي» بيدين هادئتين تلمسانها، وتمسح عليها بلطف وتنغمها بصوت رقيق

ـ « حسن. اعطني المقود ـ وابعد تلك الشبكة. »

أطاع الرجلان. فوضعت الفتاة سير الجلد. بلطف حول رقبة «لاسي». وباحدى اليدين راحت تمسح وتهدي منها وبالأخرى تدفعها.. وقالت:

ـ «تعالي ـ قفي...

فعلت «لاسي» ماعلمته اياها سنوات التدريب فأطاعت وتبعت المرأة.

وسارت نحو عربة الشحن الصغيرة. وعند ما فتح الرجل الباب. رفعت الفتاة الكولي النحيل ووضعته في الشاحنة ثم صلصل الباب ذو القضبان الصلبة. وقالت بقساوة:

ـ «انه هناك ويجب الا تعاملوا حتى الكلاب الضالة، مثلما تعاملون الوحوش البرية. »

ثم استدارت وذهبت من غير ان تعير أي انتباه للرجل الذي بجانبها.

وقال اخيراً... انه مشهد مرعب يصنع أمام الناس يا «اتيلدا».

ولكنها لم تجب وسارا عبر الجسر وفي منتصف الطريق، نظر اليها ثم توقف، وقال:

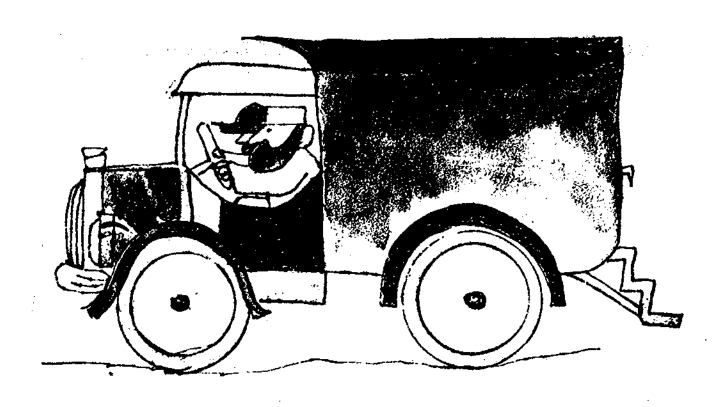
ـ «سامحيني انك كنت لطيفة جداً. »

توقفا وحدقا بصمت اسفل النهر المزدحم. وقال:

ـ . . اتعجب لماذا يصاب الرجل بالرعب وهو يقدم عرضاً أمام الناس . غالباً ما يريد أن يفعل شيئاً حسناً مثلما فعلتِ بالضبط ، ولا يفعل انه نوع من الجبن ، كما افترض اما النساء فهن أشجع ولقد كنت لطيفة جداً ـ هذا ما أردت أن أقوله في المقام الأول . »
فوضعت المرأة الشابة يدها في كمٍّ سترته في حركة تدل على انها فهمت . وقالت :
ـ «لست أنا . انه الكلب . أنت تعرف ، انها ذكرتني كثيراً بِ «بوني» أنت تذكر «بوني» الكلب الذي امتلكناه عندما كنت صغيرة؟»
ـ «آه ، نعم . لقد نسيت . . حسن . كانت مخلوقاً رائعاً يا «أثيلدا» . » ـ «وهكذا كان هذا ، نوعاً ما يا «ميشل» . لقد كانت تتضور جوعاً وهزيلة ، غير إنها ذكرتني بطريقة ما ب «بوني» .
أومأ الرجل برأسه ، وسحب غليونه . واستند كل منهما بذراعيه على حاجز الجسر .
ـ «ماذا سيفعلون بها؟»
تساءلت المرأة الشابة أخيراً .
ـ « من؟ اولئك الملاعين الذين في الشاحنة؟»
ـ «نعم» .
ـ «أوه سيأخذونها إلى الزريبة . »
ـ «اعرف . ولكن ماذا يفعلون بالكلاب الضالة هناك؟»
ـ لا اعرف . يبدو انهم يحتفظون بها هناك ـ ولربما لفترة محددة من الزمن .

واذا لم يظهر صاحب لها، فعليها السلام.»
- «يقتلونها؟»
- «أوه.. انـه عطف تمـامـاً. في حجرة غاز أوشيء يشبه ذلك. من غير ألم، كما يقولون. مثل الذهاب الى النوم.»
- «ولا أحد يستطيع انقاذها - اقصد لو ان صاحبها لم يسمع بها؟»
- «لا أظن ذلك.»
- «ألا يوجد هناك قانون - أوشيء - لوذهبت إلى الزريبة تستطيع أن تضم كلباً؟ تدفع التكاليف وأي شيء آخر؟»
نفخ الرجل غليونه، ونظر إلى الفتاة وقال:
- «يبدو هناك شيء مثل هذا. تعالي.»

الفصل السادس عشر



لاتثق بكلب ابدا يا «دونل»

دخلت الشاحنة الصغيرة الى الساحة، واوصدت الابواب الموجودة في الحائط الكبير والمصنوعة من الحديد.

وفي زاوية بداخلها، اضطجعت «لاسي» هادئة كانت هناك كلاب أخرى في الشاحنة. وفي اثناء ركوبها في المدينة، رفعت صوتها بصخب، بيد انها الان قد اضطجعت هادئة، انها مثل ملكة أسيرة بين سجناء أقل منها شأناً. اضطجعت هناك، ولم تتحرك منها سوى عينيها وراحت تتفحص العالم الخارجي،

كما فعلت بالضبط عندما اضطجعت مريضة اسفل شجيرات الوزال.

انهـا لـم تتخـل عن نبلهـا حتى عنـدمـا فتحت ستـارة الشـاحنـة الخلفيـة امـا بقيـة الكلاب فكانت من سلالات خليطة. امسك بهـا الـرجلان وراحا يستحثانها للذهاب نحو غرفة كبيرة مصنوعة من الخـرسـانـة المسلحـة. غيـر انهـا لـم تتحرك. وهكذا بقيت وحدها في الشاحنة.

ربمـا ان هدوءهـا وتصـرفها الفخم هما اللذان خدعا الرجل. أو ربمـا، أيضـاً. تذكـر السهـولـة التي وضعت بهـا المـرأة الشابة الكلب في العربة.

دخـل احـدهـم الشـاحنـة ومعـه شبكـة صغيـرةبينما اضطجعت «لاسي» هادئة ولكونها أبية جداً فلم تصارع وتنبح طلباً لحريتها كمـا فعلت بقيـة الكـلاب، بل راحت تعاني الآن، بهدوء، من الأيـدي التي تضـع الشـريـط الجلدي فوق رأسها. ثم نهضت ممتثلة عنـدمـا جاءهـا الرجل وأراد أن يقودها. وكما تعلمت منذ الصغـــر، فقـد تبعتـه. لـم تسحب «لاسي» الشبكـة ولم تدفـع شيئاً. وهـذا ماجعـل الـرجـل يطمئن.. وعنـدمـا وصل الى المكان حيث فتح مساعده الباب، انحنى ليرفع الشبكة وفي تلك اللحظة، صارت «لاسي» طليقة.

فوثبت بعيداً، مثل شعاع ضوء عابر. قفز الرجل ليعيق طريقها، غيـر ان تنسيقـه الانسـاني كان مثـل الحلزون بطئـاً لو قارناه بما

للحيوان ثم استدارت «لاسي» طائرة بسرعة، عندما راح يتحرك ورمت نفسها بين ساقيه والجدار.

وعندها ذهبت الى اسفل الرواق، ثم توقفت. لقد كان طريقها مغلقاً ولا يوجد شيء امامها سوى مدخل الشاحنة الواضح، الذي قد غادرته للتو.

وهكذا رجعت واندفعت الى الخلف، مباشرة في وجهي الرجلين اللذين طارداها.

وكان على اليسار سلم. تسابقت اليه وفي الاعلى رواق ممتد على نحو مستعرض. واحد الاتجاهين كان يذهب جنوباً. فاسرعت اليه تركض.

ومن خلفها، بدأت البناية تعج بالصياح فقد كان هناك اناس في الرواق وراحت الايدي تمتد نحوها عندما كانت تركض. ثم توقفت ولقد انتهى الرواق بجدار وكان هناك شباك، غير انه كان موصداً.

فاستدارت «لاسي» بينما تجمع الناس في اقصى القاعة الطويلة، وصاروا يتقدمون.

ونظرت حولها حيث كانت هناك ابواب عديدة في كل جانب من طريقها، لكنها كانت موصدة جميعاً. لم يكن هناك مجال للهرب.

فبدا لمطارديها انهم مقتنعون الان، اذ ظهر الرجلان وهما يلبسان قبعتين مستدقتين. وارتفع صوت ماسك الكلاب:

ـ «ليبق كل واحد منكم في مكانه، من فضلكم. فسنمسك بها

الآن. ابقوا في اماكنكم فقط، حتى نفوت عليها فرصة الرجوع الى الرواق. انها لن تعض أحداً. فهي ليست كلباً سيئاً.»
ثم تقدم الرجل ببطء وبجانبه كان يقف مساعده مع الشبكة واقتربا أكثر فأكثر.
بينما وقفت «لاسي» بكبرياء وفي وضع حرج، تضطر معها الى الدفاع عن نفسها بضراوة.
وهكذا انتظرت ورأسها مرفوع.
ثم جاء الفرار. اذ على يمينها، فتحت باب محظورة، وسمع منها صوت والظاهر انه كان صوتاً مهماً ـ صوتاً رسمياً:
ـ «ما الذي يجري هنا؟ هل تعرفون ان اعضاء المحكمة يجلسون. . . . .»
ذاك كلما استطاع ان يحصل عليه من فرصة، اذ في تلك اللحظة، اندفع بسرعة جسم أسمر مصفر أمامه، فاقلقه ذلك عندما مرق من بين ساقيه، فاصفر وجهه رعباً، وازيل عنه ذلك الوقار ثم القى لمحة واحدة على رجلي الشبكة، وبعدها اغلق الباب.
وفي داخل الغرفة. كان الصوت يتردد في الهواء، فقد كانت «لاسي» تتراكض، باحثة عن طريقة للفرار ولكن يبدو ان لا منفذ لها في تلك الغرفة الكبيرة. فكل الابواب موصدة.
واخيراً، وقفت في زاوية على اهبة التحفز، مستعدة للدفاع عن نفسها بضراوة.
ثم تحرك الناس بعيدين عنها وتركوها وحدها اخذت اصوات

الضجيج واندفاع الكراسي والصيحات تختفي ببطء، ولم يبق سوى صوت المطرقة الضخمة. ثم تحدث صوت كئيب:
- «هل أفهم من هذا ان هذا هو الشاهد المفاجأة الذي وعد به الدفاع؟»
وفي الحال ارتجت القاعة بالضحك بينما ابتسم الشباب الذين يرتدون ملابس كئيبة ابتسامة عريضة امّا الشخص الوقور الذي يرتدي شعراً مبتعاراً ضخماً ابيضٍ اللون، فسمح لنفسه ان يبتسم ايضاً، فقد كان مشهوراً جداً بذكائه الحاد. اضافة الى ذلك، فان هذه القضية قد مضى عليها زمن طويلة وهي مملة كما ان ملاحظته ستكرر وستطبع في الصحف، في طول البلاد وعرضها:
«تقرير آخر جاء اليوم حول المزاج المتألق للمفكر القانوني المشهور القاضي «ماك كواري» الذي كان جالساً...»
أومأ الرجل العظيم برأسه بدماثة، حتى تدلى شعره المستعار فوق جبهته.
في تلك اللحظة، نبحت «لاسي» لفترة قصيرة فابتسم الرجل مبتهجاً.
- «اظن ان ذلك كان جواباً بالايجاب. ويمكنني ان اضيف ان هذا هو اكثر الشهود ذكاء شاهدته امامي منذ عشرين سنة، اذ ان هذا هو اول من يقدر ان يجيب ب «نعم» او «لا» من غير غموض ومراوغة».
وثانية ارتجت الغرفة الكبيرة بالضحك لان الرجال الشباب

الــذين يرتـدون عبـاءات ، أومأوا برؤوسهم كأي موظفين كبـار،
واستدار الواحد نحو الآخر!
ان العجوز « «ماك كواري» كان في هيئة ممتازة اليوم!
والآن، وعلى الرغم من انه وحده الذي يقضي فكم ستستمر فترة
الضحـك، قفـز القـاضي وبيـده المطرقة فقطب حاجبيه وعبس
بنظراته . . وزمجر.
- «ايها الحاجب، ايها الحاجب!»
فأسرع رجل يرتدي زياً موحداً الى المحكمة ووقف منتبهاً.
- «ما الذي هناك، ايها الحاجب؟»
- «انه كلب، ياسيدي . »
- «كلب!»
ادار القـاضي نظـره نحـو الحيـوان الـذي كان ما يزال في وضـع
التهيؤ في الزاوية .
- «لقد ثبتً شكوكي ، ايها الحاجب . انه كلب . »
قال القاضي بدماثة . ثم انفجر صوته في هدير:
- «حسن . ما الذي أفعله به؟»
- «اظن انني اعرف ما يجول بذهنك يا صاحب السعادة . »
- «ماذا يدور بذهني ، ايها الحاجب؟»
- «ترغب في ان نبعده، ياصاحب السيادة . »
- «نعم! ابعدوه! ابعدوه!»
نظر الحاجب حوله في ذهول ، اذ طوال سنوات خدمته ، لم تنشأ
مثل هذه المشكلة ،

بداً ولربما لم تحدث في تاريخ القضاء كله .
ولــربمـا لا يوجـد أي اجـراء رسمي معـروض ومسجـل في اي كتاب ، لمثل هذه الحال .
لقـد تم التفكيـر بكل شيء آخر محتمل ولكن ـ كلاب؟ ذلك ما لم يستطع الحاجب ان يتذكره .
(كلاب ـ من قاعة المحكمة ، تبعد .)
لربمـا سجـل ذلـك في مكـان ما . غيـر ان الحاجب لم يستطع تذكـره . واذا لم يكن هنـاك عمـل يجب ان يتخـذ رسمياً وكيف يستطيع أحد . . .
وفجأة أشـرق وجـه الحاجب . لقد حل المشكلة . سلم السلطة والقضـاء واتجـه نحو الرجل الذي فتح الباب وسمح لـ «لاسي» ان تدخل .
ـ «ڤاك لوش» ! ابعد هذا الكلب من اين اتى؟»
نظر حارس الباب ذو الوجه الاحمر مؤنباً الى الارفع منه وظيفة .
ـ «لاشـــك انهـــا قد فرت من «فيـركسن» و«دوئيـل» . انهمـا في الخارج مع الشبكة والحبال . »
استدار الحاجب وترجم ذلك بصيغة رسمية الى القاضي :
ـ «هـرب الكلب من السلطـات الرسمية ، ياصاحب السيادة وان اثنين يقفان خارجاً . ولطالما يأتي حجز وسجن الكلاب الضالة ضمن واجبات . . . . »
ـ «لا اريد ان اصدر حكماً رسمياً حول ذلك ، ولكن غير رسمي ايها الحاجب ـ غير رسمي . »

ومرة ثانية، ابتسم الرجال الشباب كل بوجه الآخر.
ـ «. . . . بصورة غير رسمية اقول اسمح لهما وآمرهما بان يبعدا هذا الحيوان!»
ـ «جيد جداً، يا صاحب السيادة.»
ابتعد بسرعة، متجهاً نحو الباب.
ـ «اخرجاها من هنا، بسرعة، قبل ان يفقد أعصابه.»
همس بصوت أجش.
دخل الرجلان الى القاعة. وهما يحملان الشبكة. تحول النظام القانوني الى شوق شديد انتظاراً لما يحدث.
لقد كان بالتأكيد متنفساً من الحديث الجدي لهذا اليوم الكئيب.
زحف الرجلان نحو الزاوية، ببطء ـ وحذر.
«انها سرعان ما ستكون خارج هذا المكان، يا صاحب السيادة.»
قال احدهما بلهجة استرضاء
غير انه حالما تكلم، استدارت «لاسي» مبتعدة. فهي تعرف الشبكة. فلقد كانت عدواً بغيضاً لها ويجب ان تهرب منها.
ومرة اخرى، ساد الهرج والمرج في الغرفة. بينما استغل الرجال الشباب كل لحظة من الموقف، ومثل اولاد المدارس رفعوا اصواتهم في صرخات حادة.
ـ «هيَ! لقد ذهب!»
ـ «انظر! يا «والشن». هناك عند المنضدة!»

ـ «هي ! آه . عظم ساقي . »
هتفـوا بفـرح ، وبمـرح طاغ فعلوا كل ما في وسعهم ليعتـرضـوا سبيـل الرجلين اللذين يحملان الشبكة ، ليدبروا امر تفويت كل فرصة بهما وهم يتظاهرون بانهم يساعدونه في حجز الكلب في زاوية .
واخيراً انتهى دور المرح ، فقد سجنت «لاسي» عند الجدار وان حلقة الرجال بدأت تطبق عليها مقتربة . فوقها كانت توجد نافذة مفتـوحـة . وثبت نحـو حافتها ـ ثم وقفت هناك مترددة ، اذ كانت تقف اسفلها عربة الشحن الصغيرة ، في الساحة .
كانت المسـافـة بينهـا وبين الارض المسلحة بالخرسانة حوالي عشـرين قدمـاً ثم تقـدم الـرجلان منها بثقة . انهما يعرفان ، انها أبعد من ان تثب ، فنشرا الشبكة .
وهنـا اهتـزت «لاسي» وهي على الحـافة . في اليسار كان سطح الشـاحنـة . انهـا عشـر اقدام فقط ـ غير انها كانت بعيدة ايضاً .
فربضت واهتـزت كفوفها وكأنها تريد الحصول على وقفة افضل ثم ارتجفت عضلاتها .
ان الكلب ليس مثـل القطـة . ولكنـه كالانسان ، تعلم ان يخاف من الارتفاعات .
ورغم ذلك لم تكن هناك وسيلة أخرى .
ولكنها ربضت ، ثم استجمعت عضلاتها ووقفت» .
ثم وثبت الى ابعـد ما تستطيـع نحـو قمة الشاحنة . وحتى عندما كانت في الهـواء ، فانهـا عرفت انها ستسقط بعد فترة قصيرة كما

حاسة الوقت والتوازن أخبرتها بانها لن تستطيع الهبوط بسلام . وعندما لامست الارض بقدميها الاماميتين . وللحظة قصيرة ، تعلقت هناك حتى لامست قدماها الخلفيتان الجانب . ثم سقطت على الارض بتثاقل . وهناك اضطجعت دائخة .

في الاعلى ، في قاعة المحكمة ، اصطفت النوافذ بالوجوه بينما ندت عن ماسك الكلاب صرخة حادة :

ـ «لقد أمسكنا بها الآن . »

استدار مع صاحبه ، غير انهما توقفا عندما سمعا أمراً حاداً . قطب القاضي في وجهها ، وعندما تحدث ، فانه بدا وكأن كل المزاح قد ذهب منه اليوم .

ـ «هذه قاعة محكمة . ستذهبون بهدوء ، ايها الرجال ، من فضلكم . »

رنت المطرقة ، وقف الجميع عندما ندت صرخة الزمن القديم «آه نعم»

خرج الرجلان من الغرفة ، وهما يدمدمان ثم ركضا بمحاذاة الرواق .

ـ «ذلك الكلب الملعون . . سأريها انتظري حتى . . . . »

قال الاكبر وهو يلهث . غير انهما لما وصلا الى الساحة ، نظرا حولهما في ذهول . فقد كانت هناك الشاحنة . وكان هناك المكان الذي سقطت فيه «لاسي» ملطخاً بينما الساحة فارغة .

ـ «حسن . . لو لم تكن هذه نهاية اليوم اللعين ، يا «دونيل» ، »

نفخ الاكبر . .

- «فانها ستكون ميتة هناك - ولكن اين هي؟»
- «ذهبت من فوق الجدار، ايها السيد «فيركسن»! »
أليست هي هامة[1]، باجنحة؟»
- «بالضبط يا «دونيل». ذلك ما قصدته. يحتاج الحيوان الى أجنحة ليعبر ذلك الجدار.»
حك «دونيل» رأسه، وقال:
- «شاهدت مرة احد الافلام التي تتحدث عن الهامة.
قال الاكبر بصرامة:
- «والآن انا هنا يا «دونيل»، احاول ان استجمع ذهني حول هذه القضية»
وهي قضية مهمة.. انت تهذي بشأن السينما. فلن تتقدم وتصبح من اعضاء المجلس البلدي لو داومت على هذا المنوال. السؤال الان هو: ماذا سنفعل بشأن هذا الكلب؟»
زمّ «دوئيل» شفتيه.
- «لا اعرف».
- «حسن. فكر. ماذا كنت تفعل لو كنت وحدك؟»
استغرق «دونيل» في تفكير عميق. واشرق وجهه أخيراً مثل شعاع شمس.
- «نأخذ الشاحنة ونذهب خارجاً ونبحث عنها من جديد!»
هز الآخر رأسه وكأنه يمثل يأس الانسانية.

(١) الهامة: جثة يعتقد انها تفارق القبر ليلاً لتمتص دماء النائمين.

ـ «دونيل» . . الا تتعلّم أبداً؟»
ـ «اتعلم؟ ما الذي لم اتعلمه الآن؟»
ـ «مضيعة للوقت! مضيعة للوقت!»
قال «فيركسن» ذلك بنبرة تأكيد.
ـ «كم مرة أخبرتك؟ انت تنسى! دائماً تنسى! حسن، لا تنس. ليكن مثالك أنا، ايها الفتى.»
نظر الاصغر وهو خجل.
ـ «فكر قبل ان تقدم على شيء وان ما نفعله الآن هو ان نكتب تقريراً.»
أخرج ورقة وقلماً. منذ فترة طويلة كان يمتص نهاية القلم.
ـ «هذا شيء صعب يا «دونيل» . . »
قال أخيراً . .
ـ «انها لطخة سوداء في لوحة القسم. فمنذ اثنتين وعشرين سنة كنت هنا، ولم يحدث في خدمتي ان هرب كلب. ولا اعرف كيف اكتب هذا التقرير، الا بالكاد.»
حك «دونيل» رأسه، فقد جاء، الالهام.
ـ «حسن، انظر. الا تستطيع ان تنساها؟ لا تقل شيئاً عنها.»
نظر الآخر اليه باعجاب.
ـ «لا بد انك تملك شيئاً هناك يا «دونيل» وقد بدأت ان تتعلم أخيراً ولكنك نسيت شيئاً مهماً جداً. لقد حدث الامر في المحكمة وانهم سيثيرون ضجة حولها، من غير شك!»
ـ «نعم،»

قال «دونيل» باستثارة .
ـ «ولكن يمكنك ان تقول اننا قبضنا على الكلب هناك . »
ـ «نعم الرأي يا «دونيل»! »
ابتدأ الاكبر يعمل بهمة وراح يكتب لنصف ساعة، بألم . وكان قد انتهى لتوه، عندما رن الجرس . فتح الباب ودخل شرطي . وقد تبعته المرأة الشابة خلفَه، والرجل الذي كان واقفاً عند الجسر. . قال الشرطي :
ـ «هذا هو الجنيه ياسيد . »
تقدم الرجل، وقال :
ـ «لقد أخبرت انك عندما تدفع جنيهاً فانك تستطيع الحصول على اي كلب ليس له صاحب هنا؟»
ـ «هذا صحيح ياسيد . »
ـ «حسن اذن أنا ـ هم م م، هذه الشابة ـ تريد انقاذ ذلك الكولي الذي امسكتم به هذا الصباح . »
ـ «كولي ؟»
قال «فيركسون» وهو يفكر بسرعة :
ـ «كولي . لا . لم نمسك كولياً هذا الصباح، ياسيدي . »
خطت المرأة الشابة نحو الامام .
ـ «اسمع انت . . ماذا تحاول ان تفعل الآن؟ انت تعرف جيداً، انني كنت حاضرة عندما أمسكت الكولي هذا الصباح، وقبضت عليه بقساوة، لقد فعلت ذلك، أيضاً .
ولو كنت تحاول المراوغة فان الكابتن «ماك كيت» هنا وشاهد

الحادث . »
وعندها حكّ «فيركسون» رأسه .
ـ «حسن ـ سأقول لك الحقيقة ـ لقد هربت . »
ـ «لقد ماذا؟»
تساءلت .
ـ «لقد هربت ياسيدتي . كل واحد سيخبرك بذلك . لقد حلت وثاقها ، ودخلت قاعة القاضي «ماك كواري» وقفزت من النافذة ، وعبرت الجدار ، وذهبت . »
ـ «ذهبت ! »
ظلت الفتاة تحدق لبرهة من الزمن . ثم غمرت وجهها نظرة سعادة .
ـ «لا ادري ان كنت تقول الحقيقة أم لا ، »
قال الرجل الشاب .
ـ «ولكن لآ تأكد من ذلك ، ساقدم طلباً تحريرياً للحصول على الكلب . »
ثم دون ملاحظة في دفتر جيب صغير ، وذهب وذهبت معه الفتاة فرحة .
ـ «أنا آسف يا «اتيلد» ، »
قال وهما يصعدان السلم .
ابتسمت المرأة الشابة .
ـ «كل شيء على ما يرام . أنا سعيدة . الا ترى ، انها حرة مرة اخرى حرّة ! حتى لو لم أحصل عليها ، فهي حرة ! »

تحت السلم، في الغرفة الموجودة تحت الارض، كان «فيركسون» يتوعده أمام مساعده.

- «عليّ الآن ان اكتب تقريراً عن هربها. لأن اولئك الفاسدين سيقدمون طلباً - بلا شك - للحصول عليها، وعليّ ان اشرح لماذا لا استطيع ان أعطيهم الكلب.

وبوحشية، مَزّق تقريره الزائف.

- «كل ذلك العمل الجيد للاشيء بل ليلقنك ذلك درساً، يا «دونيل». أي درس تستخلصه من كل هذا؟»

- «لا تكتب تقريراً زائفاً.»

قال «فيركسون» بسخرية.

- «أنت لا تحرز تقدماً في خدمتك يا «دونيل» وان النتيجة المستخلصة هي:

لاتثق بكلب، أبداً! خذ تلك الكلبة. لقد تظاهرت بانها مثل طفل محمول بذراعيه، كما قد تقول. لقد وثقت بها للحظة واحدة فقط، فتحولت الى ما يشبه كرة من ناريوم الحساب. كان من المفروض ان تخاف هناك من القفز - فماذا قامت به؟»

- «قفزت.»

أجاب «دونيل».

- «هذا صحيح. كان من المفروض ان تكون قد هلكت هناك وماذا حل بها؟»

- «انها حية.»

- «صحيح مرة ثانية. ثم كان من المفروض ألاّ تثب فوق ذلك

الحائط، وماذا فعلت؟»
- «وثبت».
- «صحيح مرة اخرى.. وهكذا يا «دونيل»، ما دمت بهذا العمل، فلا تثق بكلب ملعون، أبداً. انها ليست.. حسن.. انها ليست انساناً. الكلاب ليست كذلك. لأنها ليست مخلوقات بشرية!»

الفصل السابع عشر



لاسي تأتي الى الحدود

جاءت «لاسي» عبر حقل، تمشي متمهلة، بثبات.
انها لا تهرول الآن. لقد كانت قادمة في سير مؤلم حيث كان رأسها منخفضاً، وذيلها يبدو عديم الحياة اما جسدها النحيل فيتحرك من جانب الى جانب، وكأنها تبذل قصارى جهدها لتجعل سيقانها تؤدي وظيفتها.

غير ان سيرها كان متواصلا الى امام باتجاه الجنوب. جاءت تسير عبر المرج، في حالة متعبة. لم تعر أي اهتمام للقطيع

الـذي كان يرعى في الأرض الخضـراء التي حولها، والذي رفع افراده رؤوسهم ليراقبوها وهي تمر.

وكـان الحشيش ينمـو أكثف ويبـدو اكثر خشونة، كلما غذّت السيـر في الطريق، الذي اصبح موحلاً. فقد اصبح هذا الطين بركة ماء موحلة صغيرة. . وكانت هذه البركة حافة نهر.

وقفت في مكـان قد وطأتـه الأقـدام ولقـد كان المكـان مورد الماشية تشرب منه وتتبرد من حرارة اليوم. ووراءها وقفت بعض المـاشيـة الآن، مغمـورة الى ركبتيهـا في المـاء الضحل الراكد فاستدأرت وراقبتها وكانت فكوكها تتحرك في تواصل مستمر وهنا أنّت «لاسي» أنينـاً خفيفـاً ورفعت رأسهـا وكأنهـا تريد الامساك برائحـة من الضفـة البعيـدة ثم دارت حول اقـدامهـا للحظـة. وخاضت الى الامام، بتردد، ثم ذهبت الى مكان أعمق فأعمق حتى لم تعـد تشعـر أقـدامها الآن بالقعر. بدأ الماء يحملها الى أعلى النهـر، ضد التيـار وبـدأت تسبـح وذيلها يدوّم خلفها. لم يكن هذا نهـراً مضطـربـاً، مثـلِ ذلـك الـذي تركتـه خلفهـا في الأراضي المرتفعة ولم يكن قذراً، تحتشد المصانع على ضفافه مثـل ذلـك الـذي يبعـد وراءها العديد من الأميال، في المدينة الصنـاعيـة. غيـر انه كان عريضاً، وتياره ينساب قوياً وهو يحمل «لاسي» في اتجاه مجراه.

وراحت سيقـانهـا المتعبـة تضرب في الماء، وتحرك طرفيها الامـاميين بثبـات. الضفـة الجنـوبيـة تجاهها ولكن يبدو انها لا

تقترب منها .

ان الضعف خدّرهـا ، وضـربـاتهـا اصبحت أكثر بطأ ورأسها المـرفـوع بدأ الآن يغطس تحت الماء . وكأن هذا قد ايقظها من نوم ، فبـدأت تضـرب المـاء بوحشية . حتى ارتفع رأسها عالياً . وراحت وقـدمـاهـا الأمـاميتان ترسلان رغوة أمامها إلا انها كانت تسبح بألم .

لقد صفا فكرها ثانية ، ومرة اخرى ، بدأت تستقر وتعمل على دفـع نفسهـا بثبـات ، الى امـام . لقـد كانت سبـاحـة طويلة . . سبـاحـة شجـاعـة ، وعندما وصلت أخيراً الى الشاطيء الآخر ، كانت من الضعف لدرجـة انهـا لـم تستطـع تسلق الضفـة . في البداية ، ولكنها تشبثت بقدميها الاماميتين ثم سقطت فقد كانت الضفـة عاليـة جداً وبـدأ المـاء يحملها نحو اعالي النهر الا انها حاولت ثانيـة ، وأخيـراً لامست أقدامها القعر المنحدر وخاضت نحو الشاطيء .

وكأن وزن المـاء الـذي امتصـه شعـرهـا كان وزناً اضافياً لـم تستطـع حمله ، فتعثـرت . ثم بدأت تجـر نفسها أكثر مما تسير ، فزحفت الى الضفـة . واخيـراً ، سقطت هنـاك . ولـم تستطـع ان تذهب أبعد من ذلك .

ومـع انهـا كانت في انكلتـرة ! فإنها لـم تعرف ذلك فقد كانت مجـرد كلب ذاهب الى بيتـه ـ وليست انســانـاً يفهم اسـاليب ومضـامين الخـرائـط . لـم تكن تعـرف انها قد شقت طريقها عبر

الأراضي المـرتفعـة، والآراضي المنخفضة، وذلك النهر الذي عبرته هو «التويد»، الذي يفصل انكلترة عن اسكتلندة.

انهـا لا تعـرف كل هذه الأشيـاء وكل ما عرفته هو انه عندما. زحفت نحـو أعلى الضفـة، لم تعد أقدامها تستجيب كما ينبغي لهـا، وحين كانت تحـرض نفسهـا للتقـدم نحو الأمام، تمردت عليها عضلاتها وأخيراً. غاصت للحظة، ثم سقطت على جانبها.

أنت لثـانيـة وبقدميها الأماميتين خربشت الارض، وهي لما تزل متجهـة جنوباً. انها فوق حشيش خشن الآن. فقد سحبت نفسهـا ـ ياردة ـ قدمـاً ـ والقليل من البوصات الاخرى. وأخيراً، توقفت عضلاتها عن العمل. فاضطجعت على جانبها وامتدت سيقـانهـا مثلمـا تكـون عليه عند «الكلب الميت». بينـ ـت عينـاهـا تلمعان واما الحركة الوحيدة التي تند عنها، فكانت في الصعود والنزول المتقطعين لخاصرتها النحيلة.

قضت «لاسي» كل اليوم مضطجعة هناك وكان الذباب يطن حولها ولكنها لم ترفع رأسها لتنشه.

حل المسـاء، وفي الجـانب الآخر من النهر كان هناك صوت راع وخـوار ابقـار. رجـ ـت آخر الحان الطيور انها سمنة تغرد في الغسق المتبدد.

ثم جاء الظلام باصـر ـ الميـ ـه، نعيب بوم، وتموج قضاعة خلسة، خرجت لتصطاد، ونباح كلب مزرعة بعيد، وهمس في

الأشجار.

وبعده جاء الفجر بأصوات جديدة ـ ارتطام ماء احدثته سمكة «تروت» قافزة، بينما كان النهر مغشىً بالضباب. ثم نهضت طيور الزاغ بصياحها التحذيري الخالد. ثم اشرقت الشمس، وتراقصت الظلال بوهن على الحشائش، عندما راحت رؤوس الأشجار تتمايل بحذر مع أول نسيم اليوم الجديد.

نهضت «لاسي» ببطء، عندما وصلتها الشمس كانت عيناها كثيبتين ولكنها انطلقت تسير ببطء، بعيداً عن النهر، نحو الجنوب.

كانت الغرفة صغيرة ومتواضعة. في سرير بجانب منضدة، حيث كان مصباح يتوهج وقد جلس «دانيال فادن»، يقرأ جريدة، ببطء. وقريباً من نار فحم الموقد، جلست زوجة في كرسي هزاز، تنسج وراحت تتأرجح من غير توقف، الى الأمام والخلف، بينما كانت اصابعها تعمل في الصوف والابر، فبدا ان كل الحركات كانت ذات علاقة ببعضها. هزة واحدة في الكرسي، ثلاث طعنات في الابرة.

كان الاثنان عجوزين، وبدا انهما سوية منذ فترة طويلة في الحياة، لذلك لم يعودا بحاجة الى كلام. كانا راضيين ان يكون كل واحد منهما قريباً من الآخر.

واخيراً رفع الرجل اطار نظارته الفولاذي الى جبهته ونظر نحو الموقد. وقال: ـ «سيكون كل شيء على ما يرام لو أضفنا القليل

من الفحم للنار.»

فأومأت زوجه برأسها، بينما كانت تهتز، وخرج صوتها على شكل عد من غير ضجيج. لقد كانت تنسج «كعب الجورب» وفي حياكتها ارادت ان يكون عدها دقيقاً. نهض الرجل ببطء. وبعد أن أخذ مكيال الفحم، وذهب الى المغسلة، حيث الخزانة الواقعة تحتها كان موضع صندوق الفحم. وبمجرفة صغيرة، غرف شيئاً منه - «انه على وشك ان ينفد.»

نظرت اليه زوجته وراح الاثنان يعدان - الكلفة - لفحم اضافي. يا للسرعة التي استخدما فيها ال «١١٢» باونداً. كانت حياتهما معتمدة تماماً على هذه الأشياء. فالنفقة تصرف بسرعة وكل ما يملكانه كانت المنحة الصغيرة التي يتسلمانها من اجل ابنهما الذي قتل في فرنسا. كما يأخذ كلاهما عشرة شلنات اسبوعياً منحة من الحكومة لكبار السن. لم تكن هذه ثروة. غير انهما كانا يتدبران بها امورهما بعناية، ولذا لم يقترضا من أحد.

كان الكوخ الصغير الواقع على الطريق الرئيس، البعيد عن أي مدينة؛ مكاناً رخيص الثمن، للعيش فيه. وفي القطعة الصغيرة التي حوله، صار «فادن» زارع خضراوات. كما كان يملك قطيعاً من الدجاج، وعدداً من البط، وإوزة «كان يسمنها لعيد رأس السنة». والاخيرة كانت اعرض وأخلد ضحكة لهما. فقبل عدة سنوات، قايض «فادن» عشر بيضات بفرخ اوزة واحد صغير. وقد رباه بعناية، وهو يفخر بالطير الريان الممتليء

الجسم الذي سيكون عليه عند عيد الميلاد.

وقد صار فعلاً كذلك، ممتلئاً بصورة مذهلة. وقبل أيام قليلة من حلول عطلة العطل، أخذ «فادن» الاوزة الصغيرة، وجلس داخل الكوخ فترة طويلة، يراقبها، واخيراً، قالت زوجته التي فهمت الامر:

- ((لا اظن يا «دان» اننا نفضل الاوز هذه السنة، فلو ذبحنا دجاجة بدلاً منها، و. . .))

- ((نعم يا «دالي». . انه تبذير مرعب، إوزة كبيرة لشخصين وان دجاجة واحدة مناسبة لنا تماماً. . .)).

وهكذا تم الحفاظ على الاوزة. في كل سنة تلت تلك السنة، كانت تسمن لعيد الميلاد. وكان «فادن» يصرح دائماً:

- «هذه السنة سيذهب. . تسمين الاوزة طول السنة، انه لينفخ نفسه ويتهادى وكأنه يملك كل شيء. ولكنه سيذهب هذه السنة.»

ودائماً كانت الاوزة تبقى حيه ترزق. وزوجته تعرف دائماً انها ستعيش. وعندما يصرح «فادن» انه سيأخذها الى الفرن، فانها تقول بطاعة: «نعم يا دان»، وعندما يتنحنح ويتلعثم في الدقيقة الأخيرة، ويعلن ان اوزة اكثر بكثير مما يحتاجه اثنان، فانها ستقول: (نعم يا «دان»). بينما كانت تقول في نفسها غالباً، ستعيش الاوزة فترة أطول.

من البـديهي ان اوزة كبيـرة جائعـة، تكلف كثيراً لاطعامها، لكن الواحد قد يدخر بطرق اخرى بنساً من هنا، وبنساً من هناك وعندها يستطيع دائماً ان يشتري ويدخر بعناية كما يجمع القطع النحاسية.

وهكذا تواصلت حياتهما، بنبل وقناعة عظيمة. لكنهما دائماً كانا يفكر ان بالبنسات الثمينة، كما كان الأمر عليه في مثل هذه الليلة.، عندما لاحظا كمية الفحم، وكم من الوقت مضى عليها

ـ«آه، لا يهم أن تصلح الناريا «دان». . اصلحها بالرماد، فنحن سنذهب للنوم. فلقد سهرنا فترة طويلة، على أية حال.»

ـ ((اجلسي هناك لحظة.))

قال «دانيـال»، لأنـه يعـرف ان «دالي» تحب جداً ان تهتـز وهي تحوك أمام الموقد، لساعتين في المساء.

ـ «مـا يزال الـوقت مبكـراً وسـاضـع قليلاً من الفحم فوقها. الله وحـده الـذي يعـرف كم هي باردة هذه الليلة. ،مؤذيـة فيهـا برد ومطر شرقي.»

فأومأت «دالي» برأسهـا. وبينمـا كانت تتأرجح في كرسيها، أصغت للريـح وهي تصفـر، شرقي البيت الـواطيء، وصـوت المطر وهو يتساقط بعنف على مصراع الباب والنوافذ.

ولكنها راحت تحوك، تطرز وتتأرجح.. تحوك، تطرز، تتأرجح.

ثم أوقفت كرسيهـا، وجلست منتصبة الرأس، تسمع اجيج النار كمـا كانت هنـاك هسهسـة الفحم. . وحفيف الجريدة، وبعيداً كان هنـاك صوت آخـر. . خارجـاً مع ما تكنسه الرياح. اوربما كان محض خيال بسبب تفكيرها بابنها؟

- رمت رأسها. ثم جلست ثانية.

- «يـوجـد شيء يا «داني»»، - «آه يا «دالي» أنت تتـوهمين أشياء بصورة دائمة»

قال مستنكراً.

-«لا يوجد شيء سوى الريح. وذلك المصراع المفكك قليلاً وسأثبته.»

واستغـرق في قراءتـه، غيـر ان زوجته ذات الشعر الأشيب قليلاً ظلت رافعة رأسها.

ثم قالت ثانية:

- «! يوجد هناك شيء ما!»

ثم نهضت.

- «إذا لم تذهب لتـرى ما حل بدجـاجـاتـك يا «دانيـال فادن»، فسأذهب أنا!»

وأخذت لفاعها، غير ان زوجها نهض. وهو يدمدم:

- «الآن، الآن، الآن. اجلسي، لو اردتني أن اذهب، فسأذهب لاجعل نفسك تطمئن. سأنظر الآن في الجوار.»... ثم قالت توبخه وتنهره:

ـ «لف لفاعك حول رقبتك أولاً، ثم، »،

راقبته وهو يذهب وقد اصبحت وحدها في البيت. وبعد لحظات عاد وهو يركض. فقفزت وواجهت الباب قبل أن يفتح.

ـ «احضري لفاعك وتعالي لقد وجدته. اين المصباح؟»

اسرع الاثنان خارجين، في الليل، ينحنيان أمام عصفات الريح والمطر. ثم توقف العجوز بجانب سياج الخليج الذي يحد الطريق الرئيس بينما كانت زوجته تحمل المصباح. هناك رأت ما وجده زوجها انه كلب، يرقد في حفرة.

ـ «يا للمسكين، المسكين. من الذي يدع كلبه يخرج في ليلة مثل هذه؟»

ورغم ان الريح مزقت الكلمات، الا ان العجوز سمع الصوت.

ـ «انه لا يستطيع المشي. ارفعي المصباح عالياً!»

صاح عالياً.

ـ «هل اساعدك؟»

ـ «ماذا؟»

انحنت وصاحت:

ـ «هل اساعدك؟»

ـ «لا! استطيع أن اتدبر الأمر وحدي!»

رأته ينحني ويلتقط الحيوان بينما سارت بجانبه حاملة المصباح وهي تقبض على لحييها ضد العاصفة،

ـ «سر الآن يا «دان». آه، يالشيء المسكين. يا للمسكين!»

ركضت أمامه، لتفتح الباب. فتصارع الرجل ليدخل وهو يلهث ثم صفقت الباب.
ثم جلب العجوزان «لاسي» الى حرارة الموقد، ووضعاها فوق البساط.
وقفا الى الخلف لحظة ينظران اليها. وهي مضطجعة وعيناها مغلقتان..
قال الرجل:
- «اشك في انه سيعيش حتى الصباح.»
- «حسن، ولكن ليس هذا سبباً يدعو لأن نقف هناك. نستطيع أن نحاول، في الأقل. انزع ملابسك المبتلة، بسرعة يا «دان»، أو سأطرحك أرضاً، أيضاً.
انظر. انه يرتجف. انه غير ميت. احضر ذلك الكيس من بطن الخزانة يا «دان»، وجففه.»
انحنى الرجل، وهو يمسح شعر الكلب المبتل.
- «إن الوحل يغطيه بشكل كبير يا «دالي» وان بساطك اللطيف النظيف سيتلطخ بالطين.»
- «سيكون لديك عمل اذن صباحاً! لشرّ البساط.»
أجابت بلهجة لاذعة.
- «لا ادري، هل نستطيع أن نطعمه؟»
نظر الرجل الى اعلى، فوجد زوجته تحمل في يدها علبة الحليب المركز. افكارهما الصامته راحت ورجعت كمن

يتحدث بصمت. لقد كانت تلك العلبة آخر ما يملكان من حليب.

- «حسن. سنتناول صباحاً شيئاً في الافطار من غير أي شيء.»

- «ادخري قليلاً منه يا «دالي» فانت لا تحبين أن تشربي شايك من غير حليب.»

- «هه.. هذا لا يهم.»

وبدأت تدفيء الحليب بالماء. أما هو فراح يمسد جسم الكلب البارد، ثم راحت زوجته تحرك الحليب الموضوع في اناء، فوق نار الموقد وكان هناك صمت يلف الكوخ بينما اضطجعت «لاسي» هناك، من غير حراك. في نصف وعيها، وانهاكها المرعب، سطا عليها شعور من الطمأنينة الغامضة. اشياء عديدة من الماضي جاءتها، فأراحتها.

ان رائحة المكان كانت تقول «صحيح» كما كان هناك خليط من شذا دخان الفحم، والخبز المخبوز وأن الايدي التي لمستها، لم تسجنها ولم تسبب لها ألماً. بل راحت تلاطفها، وتهديء ألم عضلاتها الممض.

كان هناك دفء أيضاً. اكثر شيء وقد عرفت «لاسي» بصورة مشوشة بوجود إناء الحليب الدافيء الموضوع بجانب رأسها ولكن لم ترجع اليها حواسها، من حالة نصف الوعي. فحاولت

أن ترفع رأسها، غير انه لم يتحرك. ثم أحست برأسها وهو يرفع. وبدأ الحليب ينزل في حنجرتهاوقد تجرعت منه مقداراً وافياً، مرة، مرتين، ثلاث مرات. حتى سرى الدفء في جسدها. غير انها ظلت مضطجعة. والحليب الذي يوضع في فمها سال خارجاً، مرة ثانية، على البساط.

وفي الكوخ، نهضت المرأة، ووقفت بجانب زوجها.

ـ «هل تظن انها تموت يا «دان». انها لا تزدرد أي شيء.»

ـ «لا أعرف يا «دالي». قد تعيش هذه الليلة، واننا فعلنا ما بوسعنا.»

حدقت المرأة فيها.

ـ «اظن انني سأجلس معه يا «دان».»

ـ «لقد فعلت يا«دالي» ما بوسعك، و....»

ـ «لكنه قد يحتاج بعض المساعدة و... انه كلب هزيل جداً يا «دان». لم أر مثله كلباً هزيلاً أبداً.»

جلست المرأة العجوز على كرسيها الهزاز، وهيأت نفسها للمراقبة الليلية.

❊ ❊ ❊

وبعد اسبوع كانت السيدة «فادن» جالسة في كرسيها وضوء من اشعة الشمس تسلل من خلال النافذة. وذكرى العاصفة بدت وكأنها حلم مضى عليه وقت طويل. نظرت نحو«لاسي»، المضطجعة فوق البساط، وإذناها منتصبتان..

ـ «انه هو . انت تعرفين ذلك، أليس كذلك؟»
قالت بصوت مرتفع .
وقد جاء وقع خطوات زوجها، ثم فتح الباب .
ـ «تعرف يا «دان» انها تعرف وقع خطواتك . »
قالت المرأة مفتخرة .
ـ «آه . »
قال بنبرة شك . . أما هي فواصلت قائلة :
ـ «انها تعرف . في اليوم الآخر، عندما جاء ذلك البائع المتجول، صعدت الى السطح . سأخبرك . أقسم لك . انها اخبرته ان احداً في البيت، بينما كنت في المدينة! غير انها لم تحدث أي صوت، عندما سمعتك وانت قادم ـ انها تعرف وقع خطواتك إذن . »
ـ «آه . »
أجاب الرجل ثانية .
ـ «إنها ذكية، ولكنّهاهزيلة»
مخاطبة الكلب اكثر مما تخاطب الرجل .
ـ «هل هي هزيلة يا «دان»؟»
ـ «نعم . انها كذلك . »
ـ «في البدء قلت انها بشعة المنظر» .
ـ «نعم . لكن ذلك كان قبل . . . »
ـ «انظر لقد اخذت مشطاً قديماً، وسويت شعرها . »

نظر إلى «لاسي»، وهي رابضة الآن برأسها المرفوع، في وقفة تشبه وقفة الأسد، التي يقفها الكولي غالباً.
خطمها الدقيق كان مرتفعاً بابهة وشعرها بدأ من جديد يظهر بياضاً ناصعاً.
تساءلت المرأة مفتخرة:
ـ «ألا تبدو مختلفة؟»
ـ «نعم.. هذا صحيح يا «دالي».»
قال الرجل بحزن وكأنما أحست المرأة بنبرة الشؤم
ـ «ما الأمر؟»
ـ «انه يا «دالي»، كما ترين.. في البدء ظننت انها كلبة همجية غير انها الآن... حسن.. كلبة ممتازة.»
ـ «بالطبع انها كلبة ممتازة.»
قالت المرأة بسعادة.
ـ «كلما كان يعوزها هو القليل من الحرارة، والقليل مما تأكل، وشخص يكون شفوقاً عليها.»
هز الرجل رأسه وكأنه قد سخط من زوجته التي لا تفهم ما يرمي اليه.
ـ «نعم.. ولكن ألا تفهمين يا «دالي»؟ انها كلب ممتاز وستنظف الآن، وتتحسن حالها، وكما ترين فإنها كلب ثمين جداً.و...»
ـ «وماذا؟»

ـ «حسن. للكلب الثمين أصحاب في مكان ما.»
ـ «أصحاب؟ اصحاب يتركون هذا المسكين في الخارج وهو يتضور جوعاً في الليل.
أصحاب، حقاً!
هز الرجل رأسه، وجلس في كرسيه بتثاقل، ونفخ في غليونه الطيني:
ـ «لا يا «دالي». الامر ليس جيداً. انها كلب ثمين، واستطيع أن أشاهد ذلك الآن. فلا تجعلي قلبك يتعلق بها، لأنه قد يأتي صاحبها، في أي يوم.....
جلست المرأة، وقد تشوش فكرها بسبب هذه الفكرة المرعبة..
كلبها الجميل..
كلبها!
حدقت في النار، ثم، لفترة طويلة في «لاسي». وتكلمت أخيراً:
ـ «حسن إذن. لو اخذت منا يا «دان» ـ وان هذا سيحدث عاجلاً أم آجلاً. آه لو يريندها أي أحد! اعرف ذلك، فهل ستفعل يا «دان»؟ اذن اذهب وسل في الجوار.»
أومأ الرجل برأسه، وقال:
ـ «انها أمانة وسأذهب الى المدينة غداً وأسأل.»
ـ «لا يا «دان» بل اليوم. اذهب الآن مباشرة ولن يهدأ لي بال، ولن يغمض لي جفنٌ إلى أن اعرف. اذهب اليوم وسل كل واحد

في الجوار وإذا تطلب الأمر أن تذهب، فلتذهب. واذا لم يكن احد يملكها، فإننا نكون قد قمنا بواجبنا ونرتاح.»

نفخ الرجل غيلونه، غير ان المرأة لم تمهله ليرتاح، الى أن وافق على الذهاب في ذلك اليوم.

وهكذا انطلق خارجاً، عصراً، يسير ببطء في الطريق نحو المدينة، التي تبعد أربعة أميال وطوال الفترة كلها، كانت المرأة تتأرجح كما كانت تذهب أحياناً الى الباب وتنظر نحو الطريق الرئيس.

لقد كان عصراً طويلاً وكانت الدقائق تمر ببطء بالنسبة للمرأة العجوز وكان الغسق قد بدأ يحل، عندما سمعت وقع خطوات.

وحتى قبل ان تفتح الباب بدأت الكلام قائلة:

- «نعم؟»

- «سألت كل الذين حول هذا المكان - كل واحد، ولا يبدو أن أحداً قد أضاعها.»

- «انها لنا اذن!»

تألقت المرأة بفرح، ونظرت نحو الكلب الفخور، الذي ما يزال نحيلاً، غير انه كان بالنسبة لها احسن سلالة كلبية.. فكررت:

- «انها لنا لقد منحناهم فرصة. والآن، فهي لنا.»

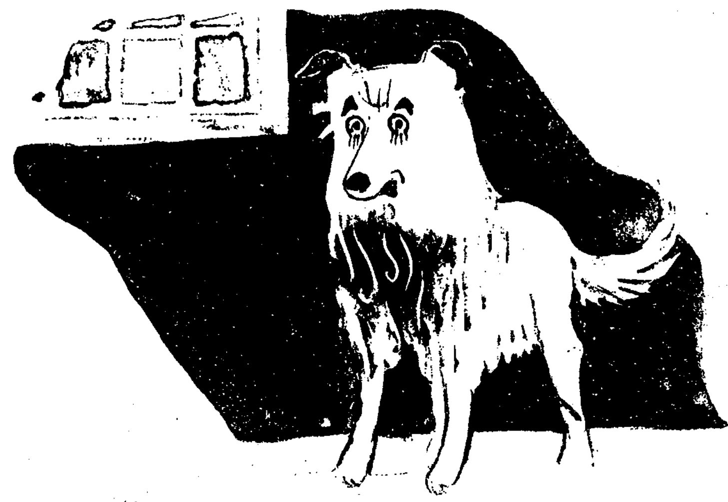
- «ربما يا «دالي» سيمرون مصادفة ويشاهدونها، فلا...»

- «انها لنا الآن.»

قالت المرأة معيدة كلامها بحس متبلد.

سيبقى الكلب دائماً معها في الكوخ. ولن تدعها تهرول في الجوار، لكن أجل ذلك المالك المرعب المجهول، ان يراها وهو يمر من هنا!

الفصل الثامن عشر



ارفع هدية الحرية

اضطجعت «لاسي» فوق البساط بعد أن استعادت قوتها في الاسابيع الثلاثة التي قضتها في بيتها الجديد. وعادت حواسها الى حالتها الاعتيادية. وصارت عضلاتها قوية، كما كانت عليه دائماً لانها عندما كانت خائرة القوى مريضة، صارت هذه الاشياء وكأنها نسياً منسياً.

لقد ضعفت قوة حيوتها الدافعة، فلم تتركها تعيش بسلام. انها دائماً تصير أسوأ عند العصر، وعندما تتحرك الساعة مقتربة

من الرابعة، فانها تجن.

لقد كانت تلك حاسة الزمن.

انه وقت ـ وقت الذهاب ـ وقت الذهاب الى الولد!

نهضت «لاسي» وذهبت الى الباب حيث أنّتْ ورفعت رأسها.

ـ «آه، الآن أيتها الفتاة!»

لقد كانت المرأة العجوز.

لقد كنت خارجة معي في نزهة لطيفة. ولا تحتاجين الى الخروج ثانية. فعودي الى هنا، واريحي نفسك.

غير ان «لاسي» لم تمتثل بل راحت تضرب الباب بخطمها وبعدها سارت نحو النافذة، ووقفت على قائمتيها الخلفيتين. ثم عادت للأربع متجهة الى الباب، ثم، مثل حيوان في قفص، بدأت تخطو، تروح وتجيء واستمرت على ذلك الى ما لا نهاية، تسير الى الباب وتعود، وتسير الى النافذة، وتعود وهكذا استمرت على ذلك، أقدامها تسير بخطوات خافتة على ارضية الكوخ الحجرية وصوت براثنها كان متناغماً، مثل صوت ابر حياكة المرأة العجوز.

وبعد ساعة، أنهت «لاسي» دوريتها. وذهبت ببطء إلى بساط الموقد. فلقد مرّ الوقت. ثم اضطجعت وراقبت النار بعينين لا تطرفان.

الحيوانات مخلوقات لها عاداتها ولكن قد تتكون لها عادات جديدة. وقد كانت الفرصة الحقيقية مواتية لأن تنسى «لاسي»،

وترضى ببيتها الجديد. فالزوجان يعاملانها بكل الحب، وكانت هي تطيعهما، وتأتي عندما ينادونها، وتسمع لهما بان يمسحا عليها ويلاطفاها.

غير انها كانت تفعل ذلك بمعرفة كلب له سيد واحد حسب، وهو غائب. إذ ان «لاسي» لم تنسَى، بل بدلاً من ذلك؛ عندما استردت عافيتها، بدأت تتذكر أكثر فأكثر، وصارت دوريتها اليومية في وقت العصر المتأخر تطول وبهياج أكثر. ولم يفشل العجوزان في ملاحظة ذلك وان المرأة العجوز التي تثمن كثيراً هذا الشيء الجديد من العاطفة، الذي حل في حياتها، كانت حذرة وتراقب بانتباه كل حركة تند عن «لاسي».

مثل هذا الحدث الثابت، عندما تخطو «لاسي» كل عصر، بين النافذة والباب، لا يمكن ان يغفل.

لقد كانت المرأة تأمل، بل وتحلم ان الكلب سينسى العالم الخارجي، ويرضى بالبقاء في عالم الكوخ الصغير الدافيء المتواضع وبالدجاج والاوزة. غير انها أدركت اخيراً ان لا جدوى من ذلك، إذ بدأت «لاسي» ترفض حتى تناول الطعام. وقد عرفت المرأة ذلك

حين جلست طويلاً، في احدى الليالي، ثم خرجت عن صمتها قائلة:

- «دان»!

- «عن أي شيء؟»

ـ «انها ليست سعيدة هنا .»
ـ«سعيدة؟ من هي ليست . . . عن أي شيء تتحدثين؟»
ـ «أنت تعرف عن أي شيء أتحدث. عنها انها غير سعيدة . انها مغتاظة .»
ـ «آه ، الان اقول ان هذا هراء . تفكرين كثيراً بذلك الكلب . في كل وقت تقولين انها تطرف بحاجبها ، وانت تفكرين انها قد أصيبت بالحصبة أو وباء ـ أو ـ أو شيء لا اعرفه .»
ادارت المرأة عينيها عليها ، ثم هزت رأسها :
ـ «لا ، لم أخبرك ، ولكنها في الايام الثلاثة الاخيرة ، يا «دان» ، لم تعد تأكل .»
رفع الرجل نظارته الى جبهته ، وتفحص الكلب ، ثم نظر الى زوجته العجوز:
ـ «الآن ، الآن يا «دالي» ، انها على أحسن ما يرام . لقد اطعمتها كثيراً جداً ، فلا استغرب لو ادارت انفها حتى عن طعام ملك . هذا كل ما في الامر.»
ـ «لا ، انه ليس هراء، يا «دان» . وانت تعرف ذلك جيداً . لماذا تضيق عليها المقود عندما تخرجها ليلاً؟»
ـ «حسن . ذلك في حالة ليس إلّا ـ حسن ، الى ان تعتاد على هذا البيت وتعدّه كبيتها . لو أطلقتها حرة ، فقد تضل طريقها ، وهي لا تعرف هذه الضواحي جيداً ، ولن تستطيع أن تجد طريق العودة ، و. . .»

ـ «آه. انت تعـرف، ان تلك حكـايـة يا «دان»، كما أعرف أنا، انت تعرف انها لو كانت طليقة، فستذهب وتتركنا وحيدين هنا، ولن تعود، أبداً.»

لم يجب الرجل بينما استمرت المرأة:

ـ «انها ليست سعيدة يا «دان»، انت لا تلاحظها كما افعل أنا، في كل عصر، من النافذة الى الباب ومن الباب الى النافذة.»

ـ «أوه:. انه اسلوب الكلب في طلب الخروج للنزهة.»

ـ «لا يا «دان». لقـد جربت ذلـك. اخـذتهـا وتنـزهنا. وعندما عدنا، عملت الشيء نفسه ـ «دان»، هل تعرف بماذا أفكر؟»

ـ «ماذا؟»

ـ «انها تفعل ذلك وكأنها تأسف علينا. فلقد كنا عطوفين معها، وهي لا تريد أن تؤذي مشاعرنا. وكأنها مؤدبة جداً لدرجة انها لا تود أن تهرب الى ان تخبرها نحن بأن تذهب...»

ـ «لا يوجد كلب مليء بمثل هذه الأشياء ـ مثل الناس...»

ـ «لا. انها تفعل ذلك. انت لا تعرف ذلك الكلب.»

ـ «حسن؟»

وانخفض صوت المرأة العجوز

ـ«ألا ترى، أعرف شيئاًعن هذا الكلب. اعرف شيئاً.»

ـ «ماذا؟»

ـ «دان، انها ذاهبة الى مكان ما. انها في طريقها اليه.»

ـ «ايتها المرأة، اية خيالات هذه، التي تبنينها في مخيلتك!»

ـ «لا يهمني ذلك، يا «دان». أنا اعرف، وهي تعرف ـ كلانا نعرف. لقد كانت في طريقها يا «دان» ثم اصيبت بالتعب، وتوقفت هنا وكأنه مستشفى ـ أو حانة طريقٍ في قصبة. وهي الآن في حال أحسن، وتريد مواصلة طريقها. غير انها مؤدبة جداً، وتفهم، وهي لا تريد أن تؤذينا. ولكنها في قلبها تريد الذهاب. انها ليست سعيدة هنا.»

لم يجب الرجل العجوز بل ضرب بلطف على غيلونه الفخاري، في راحة يده، ونظر بتمعن نحو الكلب. وتكلم أخيراً:

ـ «نعم يا «دالي». . حسن. . حسن.»

هناك أناس، قلوبهم مليئة برعب شنيع، اذ انهم عندما يشاهدون حيواناً عطشان يمر وبقعة من لعاب على فكه الاسفل المتيبس، فانهم يجب ان يهرولوا ويصيحوا في خوف:

ـ «كلب مجنون!»

وهناك آخرون، يبدو لهم كل مخلوق مار عدواً، فيعدون نحوه يقذفونه بالحجارة. ولكن في عالم الكلاب، هناك آخرون بعاطفة وفهم عميق للذي يجلب العلاقة النبيلة بين الانسان والكلب.

وهكذا هي الحال مع العجوزين، اللذين راحا في عصر اليوم التالي، يراقبان الكلب. وعندما اقترب الوقت من الرابعة،

ونهضت «لاسي»، فتبعتها عيونهما.
وعندما أنّت وهي تنظر الى الباب، وخطت نحو النافذة، تنهد الاثنان.. ثم قال الرجل العجوز:
- «حسن.»
ذلك هو كل شيء. نهض كلاهما وفتحت المرأة الباب وجنباً الى جنب، تبع العجوز وزوجه «لاسي» خارجاً، الى الطريق.
وقفت الكلبة هناك، لحظة، غير قادرة على ان تعرف انها أخيراً، ستشبع رغبتها الملحة ثم نظرت الى المرأة، التي كانت يداها تمسحان عليها وهي تلاطفها وتطعمها.
كما رغبت المرأة للحظة، ان تستدعي الكلب - ان تستدعيها، وحاولت ثانية ان تمحو الذكريات القديمة. غير انها كانت أمينة جداً حيث رفعت رأسها وقالت بصوت العجوز الذي جاء واضحاً جليا:
- «كل شيء على ما يرام. لو يتحتم عليك الذهاب، فلتذهبي.»
وقد التقطت «لاسي»، من تلك الجملة كلمة «اذهبي». وكانت تلك كل امنيتها وعندها استدارت ونظرت الى الوراء مرة وكانها نظرة الوداع، ثم بدأت لا الى شرق الطريق، ولا الى غربه، ولكن مباشرة الى الحقل. انها ذاهبة الى الجنوب من جديد.
وهكذا راخت تهرول - نفس الهرولة التي قادتها بشجاعة عبر

الاراضي المرتفعة في اسكتلندة. لا هرولة سريعة. ولا بطيئة، بل خطوات ثابتة، تأكل الأميال، وتجعلها تستمر ساعة بعد ساعة. وهكذا ذهبت، عبر الحقل، فوق جدار، وأسفل منحدر.

في حين وقفت العجوز على الطريق، وقد قطب وجهها ثم حركت يدها، وقالت:

- «وداعاً.. وداعاً، وحظاً سعيداً لك.»

ظلت واقفة هناك طويلا، حتى بعد ان غاب الكلب عن البصر، الى ان وضع زوجها ذراعه حولها. وقال:

- «انها قارسة البرد الآن، يا «دالي». ومن الأفضل أن ندخل.»

ذهبا الى داخل الكوخ، ومجريات الحياة التقليدية، استمرت حيث جهزت المرأة عشاء المساء البسيط واضاءت المصباح، وجلسا الى المنضدة.

ولكن لا أحد منهما تناول شيئاً.

ثم نظر الرجل وقال بحنان:

- «سأضع المصباح في النافذة، يا «دالي»، لهذه الليلة، فلربما أحبت، مصادفة. أن تذهب في نزهة طويلة. ثم أرادت ان تجد طريق العودة... ولكنه كان يعرف ان الكلب لن يعود ابداً، غير انه ظن انه في ذلك ربما يجعل زوجته تشعر بحال أحسن. وعلى أية حال فقد توقف عن الكلام، اذ عندما نظر، رأى رأس زوجه محنياً. والدموع تساقط. نهض بسرعة.

ـ «الآن يا «دالي»، الآن. الآن، الآن!»
ثم وضع ذراعيه حولها ومسح عليها مواسياً.
ـ «ايـه. . لا تزعجي نفسـك الآن، يا «دالي»، سأخبـرك شيئاً. لقـد ادخـرت قرشين، وسأخـذ قليـلاً من البيض وابيعـه، ثم سأذهب الى السـوق، حيث أعـرف مكاناً يبيعون فيه الكلاب. وسأحصـل على واحـد. . هه؟ كلب صغيـر لطيف سيبقى هنا، معـك، ولا يرغب في الفـرار. ثم انهـا كانت كلبـة كبيرة أيضاً. والكلاب الكبيرة تأكل كثيراً جداً، على أية حال. و. . و، كلب صغير لطيف. . . . »

نظـرت المـرأة. ارادت ان تصـرخ بكلمات تنطلق دائماً من محب الكلب بعد أن يذهب حيوانه:
ـ «لا اريد أبداً كلباً آخر!»
ولكن تقديرها لزوجها جعلها لا تتفوه بكلمة.
ـ «نعم، يا «دان»، انها تكلف طعاماً كثيراً. »
ـ «بـالطبـع. كلب صغيـر، وربمـا قطـة، لماذا لا، ستكلف لا شيء، تقريباً. . »
ـ «ليكن ذلك، قطة يا «دان»! لو تحضر لي قطة لطيفة. »
ـ «نعم، واحـدة ستبقى مكـورة نفسهـا قرب المـوقـد، وتظـل بجانبك. ذلك هو! سأحضر لك قطة لطيفة ـ الطف قطة يتمناها كل واحد. ما رأيك بذلك؟»
نظرت المرأة.

- «انت رحيم بي يا «دان».

ثم مسحت دموعها وابتسمت.

- «والان، كل شيء قد برد.. الشائي هنا قد اصبح بارداً.»

- «لا استطيع أن آكل يا «دان.»

- «حسن، تناول اذن قدح شاي ملطف.»

- «ليكن ذلك. قدح شاي جيد سيسرنا نحن الأثنين.»

- «سيفعل ذلك. وفي يوم السبت. سأحضر لك الطف قطة وقعت عليها عيناك. ألا يكون ذلك لطيفاً؟»

ابتسمت المرأة بشجاعة، وقالت.

- «نعم. سيكون شيئاً لطيفاً.»

الفصل التاسع عشر



في الطريق مع رولي

انهى «رولِي بالمر» حلاقة ذقنه، ونظف الموسى القديم. كان رجلاً صغيراً مرحاً، ذا وجه احمر، يبدو نوعاً ما وكأنه مليء بالازرار. عيناه تشبهان زرين. شفتاه السعفاوان تشبهان زرين. وكانت على جبهته وذقنه نتوءات وثآليل تشبه الأزرار.

ذهب هذا الرجل الشبيه بالازرار، وهو يرتدي قميصاً فوقانياً مصنوعاً من الصوف، كان منقطاً بازرار مصنوعة من اصداف اللؤلؤ، في كل مكان ممكن. وفوق ذلك، ارتدى سترة غريبة

من قمـاش قطني متين مضلع ، ذات كمين جلديين ، وانتشـرت فوقها اعداد كبيرة من الأزرارالبرونزية .

كان وجـه «رولي» وهيأتـه معـروفين جيـداً في ارجاء شمالي إنكلترة ، اذ كان بائع فخار متجولاً . كان يعيش في عربة يجرها حصـان ، تحمـل بضاعة ، وتسير ببطء بمحاذاة الطرق . وعندما يصـل مدينـة أو قريـة ، فانه يخرج هراوة ، ويبدأ بضرب اكبر آنية فخارية عنده ، واعداد كبيرة من قطع صغيرة لماعة بنية وصفراء . فيُخرج صوتاً ، يشبه جلجلة جرس عظيم .

وكان «رولي» يرفع صوته وينشد :

«ها قد جاء البائع المتجول «بالمر» ، الخزاف لديّ آنية وقدور ، أحضرت منها الكثير . احضروا نقودكم ، والا فلن تحصلوا على شيء . آنية وقدور! »

كان يجب أن يجعـل دخـولـه المدن الصغيرة الشمالية عظيماً ، حيث يضـرب بقـوة في عرض كبير على الاناءالخزفي كان دائماً يضربها بفخرٍ لسببين

ليعلم بمجيئـــه ، وليظهـــر كيف ان خزفـــه قوي ، لا تكسـره الضربات القوية مثل هذه .

كان يجتـــاز طريقـه ، مرة واحـدة في السنـة ، وعنـدمـا تقـل سلعتـه ، فانـه يستدير راجعاً الى قريته ، حيث يعيش أخوه الأكبر «مـارك» ، الـذي يصنـع الفخار وسينظر «مارك» ويومئ من عجلة الفخـــار في المظلة الكبيـــرة حيث يشكـــل الآنيـة ذات الطـراز القديم . وسيتسوق «رولي» ثانية ما يحتاجه من آنية صغيرة تكفي

لشريد طفل الى الآنية. الضخمة التي يصل قطرها ثلاث اقدام والتي تحبها ربات بيوت المنطقة الشمالية، ليستخدمنها في عجن دقيق الخبز ـ وغالباً لاستحمام الطفل داخلها.

كما كان يحمل عربته باشياء بنية وصفراء، تلمع لدرجة كبيرة بسبب سطوحها البسيطة المطلية اللماعة، ثم ينطلق من جديد. وهو يقول:

ـ «حسن. . انتهيت. »

وسينظر اليه «مارك»، ويومي ء، ويستمر في عمله.

وبعدها سيبدأ «رولي» السير في طريقه، مسافراً في الصباح، وفي الليل يسحب «بيس» الى جانب الطريق في مكان مخيم صالح.

لقد كانت حياة مريحة هادئة سعيدة. اذ يملك «رولي» في عربته بيتاً كاملاً. وهو شيء لا يصدق. انه يوجد في هذه المساحة الصغيرة حياة مليئة تم تحقيقها بهذا التركيب. حتى ربات البيوت، يدهشن، عندما ينظرن داخل العربة، الى نظافتها وترتيبها.

كان «رولي» يحب السير مالم يكن الجو سيئاً جداً. غير ان الجو طيب الآن وهكذا ذهب الى الأمام في الصباح نصف الضبابي، وهو يغني:

«آه يا أبي . . يا أبي . . احفر قبري،

احفره بمسحاة حديقتك.

وضع على قمته قمرية ،
لتريهم انني مت من أجل الحب . »

لقد كانت اغنية حزينة ، بيد أن «رولي» لم يكن يعني ذلك . وفي الحقيقة انه لم يدركها . وبسبب وحدته ، كان صوته يرافقه من مدينة الى مدينة ولم يكن هناك من مصاحب له سوى «بيس» ، حصانه ، و «توتس» كلبته وكانت «توتس» تجلس على المقعد ، انها كلبة صغيرة بيضاء . ولربما كانت من نوع «البودل»[1] أو «ترير[2] الثعالب» او «بو[3] ميراني» أو «الترير الاسكاوي»[4] ؛ غير انها كانت جميعاً .

لقد كانت «توت» معروفة ، كما هي عليه الحال بالنسبة لـ «رولي» ؛ فهي تقف على قائمتيها الخلفيتين ، على آنية مقلوبة ، وتوازن آنية اخرى صغيرة على انفها . وكان تقدر على القفز فوق كرة من خشب وتدحرجها بالسير عليها محافظة على التوازن . وبمقدورها أيضا التقاط البنات من الارض وجلبها الى «رولي» . كما كانت تستطيع أيضا القفز من الاطواق .

وحالما يصل «رولي» الى أية قرية جيدة فانه يقدم عرضاً مع

«١» البودل : كلب ذكي كثيف الشعر ، أجعده .

«٢» ترير الثعالب : كلب صغير نشط ذكي من كلاب الصيد .

«٣» البوميراني : كلب صغير طويل الشعر .

«٤» الترير الاسكاوي : كلب صيد صغير .

المترجم

«توتس»، لا كما يفعل مشعوذ من اجل كسب المال، ولكنه كان يحب ان يسمع كركرات وسعادة الاطفال الذين يتجمعون هناك.

واثناء التنقل بين المدن، كانت «توتس» تجلس بصرامة في مقعد الحوذي، كما تجلس الآن، تراقب الطريق، بينما كان «رولي» يغني قصته الحزينة حول عذراء القرية قليلة الحظ.

لم يكن فكره مع الكلمات وبدلاً من ذلك كانت حواسه منسجمة مع العالم الذي حوله هذا الى ان السفر والعيش في الفضاء المكشوف، جعلا «رولي» يعرف الشيء الكثير عن عالمه. فهو يعرف أين تعشش طيور العقعق، ومتى يأتي السنونو ويرحل. ولا يوجد صياد في الأرض، له عين ثاقبة اسرع من «رولي» عند مشاهدة خصلة شعر حمراء.. انه ثعلب.

لذلك كانت حواسه هذا الصباح يقظة، وعيناه تنظران فوق الحقل، وتوقفت أغنيته.

لقد رأي كلباً قادماً بثبات عبر الحقل وهو ينحرف نحو الطريق جاءت من غير توقف، وكأن عربة الحصان لم تكن سوى شيء طبيعي مألوف، كشجرة أو غزال. عرف «رولي» ذلك، فاخفى جسمه. وظل يتمتم في نفسه:

ـ «ما الذي ترمي اليه، الآن؟»

جاء الكلب أقرب، وانسل من المستنقع غير المسيج الى الطريق، كما تفعل العربة.

ـ «حسن . . ماذا تريد؟»
تساءل «رولي» عالياً .
نظر الكلب، وعاد يعبر الحفرة .
ـ «ألا تحب صحبتي . . هه؟»
سأل «رولي» .
نزل «رولي» وراح يسير ثانية . كانت عيناه تتبعان الكلب . انه الان ذاهب الى أمام،
وإلى يساره . غير ان طريقه قد توقف بسبب وجود ساقية . فبدأ يتحرك عائداً إلى الطريق ثانية، حيث يستطيع العبور فوق الجسر .

تسلق «رولي» عربته بجهد، وخرج وهو يحمل بيده القليل من قطع الكبد بينما رفعت «توتس» انفها، وهزت ذيلها الغريب، الذي يصعب وصفه .
ـ «انه ليس لك يا فتاتي . »
قال «رولي» .
كان ما يزال يراقب الكلب انه سيصل الى الجسر، عند وصول العربة . . صاح عالياً :
ـ «سنتظاهر بأننا لم نلاحظك هذا الوقت . »
بدأ يغني بحيوية مفعمة :
«أبي العجوز، اعتاد أن يقول لي ،
هذه نصيحة . جيدة، سأعطيها لك .

انت بسيط جداً . . . »

ثم . .

«هناك يا «بيس» . لا ، ليس مباشرة إلى الحفرة . »

و . .

«رأسك مملوء بشيء .

ولكنه ليس مليئاً بالإحساس .

الوقت الوحيد الذي انت فيه ذكي . . . »

وهكــذا راح يغني ويــوقت سرعــة حصــانــه ، حتى وصــل الى الجسر ، عندما اقترب الكلب .

وراح يغني بحيـويـة ، متظـاهـراً بأنه لا يراه وهنا توقف الكلب ، وكأنه يدعه يمر أولاً . لم يدر «رولي» رأسه . بل عوضاً عن ذلك ، حرك قطـع الكبـد في يده ، كي تنتشـر الرائحة في الهواء . وبغير مبـالاة ، رمى واحـدة . ثم عبر الجسر ثم ادار رأسه نصف دورة ، ليرى ماذا يفعل الكلب .

امـا خلفـه ، بالقرب من الجسر ، فكانت «لاسي» تسير ببطء نحـو قطعـة اللحم . بدا وكأن نكهته قد ملأت الهواء وان جوعها جعـل غدد اللعـاب تعمـل ، فامتلأ فمهـا بالرطوبة حتى سارت مقتربة أكثر واحنت انفها لتلامس اللحم .

غيـر ان تدريب السنوات كان هناك ، أيضاً فلقد علمها «سام كارا كلوف» بدقة ، ألّا نلتقط طعاماً غريباً . ولقد فعل ذلك برمي قطع لحم صغيرة في أماكن مختلفة . وكان اللحم مملوء بالفلفل

الاحمر اللاهب. عندما كانت جروة وحين ابتدأت «لاسي» تأكل تلك القطع سرعان ما اكتشفت انها كانت تحتوي على كرات نارٍ حية.. واضافة. الى ذلك، عندما التهب فمها، فقد وبخها صوت سيدها.

- «انه شيء فظ صعب لا تعمليه.»

أخبر «سام كاراكلوف» ابنه «جو».

- «غير انه الاسلوب الوحيد الذي اعرفه، ويعلمها - انه سرعان ما اربي جرواً يتذوق الفلفل الحار وهذا افضل من ان يموت بلحم متسمم يضعه رجل مجنون لها.»

وظل الدرس مع «لاسي».

يجب على الكلب ألاّ يأكل قطعاً من طعام مجهول!

غير ان الجوع قد عضها وارتجف انفها حين مست به قطعة الكبد. ولكنها دارت فجأة وتركت اللحم، وعبرت الجسر.

أمامها كان «رولي بالمر»، في عربته، هز رأسه.

- «انه كلب جيد، ومربى جيداً وهذا أيضاً شيء جيد منك ياكلبي. غير اننا سنرى...»

سار وهو يغني، غير انه لما يزل يلوح بالكبد في الهواء، وعلى رائحة تلك القطعة من الطعام المرغوب فيه، سارت «لاسي» الآن. وبينما هي على الجسر، مرة، اعتملت في داخلها رغبة، ترك الطريق ثانية، لتذهب عبر الحقول. غير انها

لاتريد أن تترك اثر رائحة الطعام اللذيذ هذا . فهرولت، وعبرت الحفرة، وراحت تسافر بخفة خلف العربة .

غنى «رولي بالمر» بمرح لـ «توتس» التي كانت جالسة على المقعد .

ـ «هناك كلب خجول ومراوغ .
غير انني اظن انها تقترب . .
انها تبدو مرعوبة ،
غير اننا سنتغلب على خوفها . »

ـ «كيف هذا اللحن يا «توتس»؟ انك تحتاجين الى صحبة . حسن . حسن ، سنرى . »

وهكذا سار «رولي بالمر» بمحاذاة الطريق . واحياناً، عندما كان يدير رأسه ، فأنه يشاهد الكولي في الحقول، خلفه . أحياناً اخرى كانت تبتعد عن البصر وتغيب فترة من الوقت، غير انها دائماً تعود، تقودها رائحة اللحم ، فتتبعها بثبات . وكل مرة تعود فيها، تقترب قليلاً من العربة ومن الرجل الذي بدا وكأنه لا ينتبه اليها قط . عندما كانت الشمس مرتفعة ، اجتاز «رولي بالمر» الطريق بنجاح وشاهد الكلب يتوقف خلفه . فقال :

ـ «وقت لتناول لقمة يا «توتس» . »

وبسرعة أخرج مجمرة صغيرة، وأشعل ناراً وسخن ماء وعمل شاياً ثم سخن قدراً من الحساء وقطع الكبد، ووضعه في اناء أمام «توتس» .

وعند تناول الطعام فانه كان طوال الوقت يراقب الكولي الذي بدأ يقترب أكثر فأكثر. وبكل حذر، راح يطعم قطع طعام لكلبه الصغير لقد شاهد الكولي الآن، وهو يجلس على بعد عشرين قدماً تقريباً، تراقب عيناه كل حركة تقوم بها يده. نبح «توتس» عليها، بصوته الأجش، مرة أو مرتين، لكن «رولي» هدأ كلبه المدلل في الحال.

وعندما أنهى طعامه، نهض. وقال:

ـ «والآن، نعرف حيلة أو حيلتين، أليس كذلك يا «توتس»؟. وسنرى ان كنت تأكل أم لا.»

اخرج من بين مواده اناء عريضاً وملأه بقطع من الكبد. ومن غير ان يعير للأمر أية اهمية، وكأنه يقوم بعمل شيء يعمله يومياً منذ سنوات، فانه سار الى منتصف طريق الكولي، ووضع الاناء على الأرض، وقال:

ـ «هذا هو طعامك، تناوليه.»

راقبته «لاسي» وهو يعود الى المجمرة، ثم بدا وكأنه لا يهتم بها، فنهضت من جلستها. وبمهل سارت نحو الاناء.

ان على الكلب ألّا يأكل قطع الطعام المجهولة!

غير ان هذه لم تكن مجهولة. انها موضوعة في اناء. نعم. انها في اناء. وعندما يوضع الطعام في صحن أو اناء من قبل انسان فهذا يعني ان الكلب يستطيع تناوله من غير خوف.

ولن تكون هناك نار حية داخل الطعام.

رمت «لاسي» رأسها برقة. وباسنانها الأمامية، رفعت قطعة من اللحم. تلقفته الى الاعلى. ثم في لذة تناول الطعام مجدداً، بدأت تزدرد الطعام حتى نظفت الاناء، بل ولعقته. ثم جلست تنظر نحو الرجل، وكأنها تقول:

ـ «ذلك كان جيداً ومشهياً. والآن، أين الطعام الحقيقي؟»

هز «رولي» رأسه، وتكلم عالياً:

ـ «أوه، لا. تعالي معي لو أردت المزيد. ألم أقل انني اعرف حيلة أو حيلتين عن الكلاب يا «توتس»؟ لقد دربك احدهم تدريباً جيداً يا صديقي الكولي. كان وضعه في الاناء.. هو السر. وعمل الامر كما ينبغي لذلك. سننهض الآن، ونسير في طريقنا!»

أخرج «مخلاة» «بيس». رفع مجمرته وأطفأ النار بعناية: ورتب كل شيء باحكام.

وطوال ذلك الوقت، كان ينظر بزاوية عينه فيشاهد الكولي جالساً وكأنه ينتظر فيما اذا ستحدث معجزة الطعام اللذيذ من جديد.

نخر «رولي بالمر» بسعادة. لقد كان الكولي مسافراً معه انه ليس في الحقل الآن، انه قريب خلف العربة رغم انه لم يكن قريباً جداً، غير ان «رولي» لم يعر لذلك أهمية اذ سيحدث ذلك فيما بعد. وهكذا راح يغني بمرح:

«سيشنقونني من رقبتي حتى أموت،

نعم، سيشقنونني من رقبتي حتى أموت،

سيأخذونني من سريري ،
وسأقاد الى المشنقة ،
وسأشنق حتى أموت ، فلتذبل عيناك ! »
بعد أيام ، كانت «لاسي» ما تزال مع «رولي بالمر» . تركض بمحاذاة الطريق ،
دائما خلف عربة الآنية الفخارية ، باقدام قليلة .
لم تكن تحب الضجيج والجلبة عند ما يجيئون الى القرى ، غير انها كانت تعرف ان الأمر لن يطول . ولذا فهي راضية طالما كان «رولي» يتجه نحو الجنوب . ومرة ، في طريق متشعب ، سار «رولي» بعربته نحو الشرق واخبره احساس ما ان احد أفراد عائلته كان مفقوداً فنظر خلفه حيث كانت «لاسي» جالسة في ملتقى الطرق .
وفي كل مرة كان يناديها ، تقترب منه خطوات قليلة ، ثم تستدير ، وتعود القهقري ، وتجلس .
وأخيراً ، رمى «رولي» «ما بيديه» ، وصعد الى مقعده في العربة ، وادار «بيس» وبدأ يسير نحو الجنوب ، في الطريق المتشعب الآخر . . وقال بلطف :
- «هه . . استطيع الذهاب الى «كودزي» بدلاً من «فيليب» . »
غير انه استدار نحو «توتس» فيما بعد .
- «ارأيت كم هو مسكين الرجل بين النساء . انت و «بيس» وجلالتها . ماذا يستطيع رجل وحده ضد ثلاثتكن؟ هه . «بيس»

تريد الذهاب الى الشمال، لان البيت هناك. وهي تريدنا أن نذهب جنوباً، بسبب شتاء «الريفيرا»، بلا شك. وانت - راضية طالما كنت معي. نعم يا «توتس» انك الوحيدة التي تحبينني كي لا ابقى وحيداً!»

وحرك الكلب الصغير ذيله، الذي لم يكن مدوراً ولا مستقيماً، لا قصير الشعر ولا كثيفه.

لقد كانت حياة جيدة حياة السفر في الطرقات والممرات الضيقة غير المطروقة، في شمالي البلد، بعيداً عن الطريق الرئيس، حيث العربات والشاحنات والعجلات التي يبغضها، «رولي» جداً، والتي تتسابق مسرعةً. وكان «رولي» يغني والاميال تمر.

- «والآن يا صاحبة الجلالة - هل تسمحين لنا نحن العامة، أن تقوم ببعض الأشغال القليلة العادية؟»

خاطب «رولي» «لاسي» بهذه الكلمات، وهي تسير خلف العربة، ولكنها سارت، ولم تند عنها أية اشارة تدل على انها قد سمعت. . فقال «رولي» بتواضع:

- «أنا اعرف، يا صاحبة الجلالة، أن أذنيك الملكيتين يجرحان عند سماع أشياء كهذه، مثل النقود. غير اننا الناس البسطاء علينا ان نعيش. لو تسمحين، فسنقوم أنا و«توتس» بالحصول على قليل من نقود.»

رفع «رولي» قبعته، مسروراً بما مثله، وانحنى لـ «لاسي».

ثم استدار نحو عربته. وتناول اكبر آنيته وهرواته. وراح يضرب بقوة، عندما وصل الى أول بيت. فتردد الصوت الذي يشبه صوت الجرس، في القرية. وارتفع صوته:

- «آنية وقدور، لدي منها الكثير،

احضروا نقودكم أو لن تحصلوا على شيء!

آنية وقدور!»

احتشدت النساء عند الأبواب، وحياهن «رولي» بعد أن أوقف عربته في مركز القرية، وراحت ربات البيوت يتلمسن البضاعة ويساومن ويضحكن على الاسعار. بينما انشد «رولي»:

- «انها قوية، ولا تستطعن كسرها!»

- «كسرت الواحدة التي اشتريتها العام الماضي».

صرخت امرأة، فقال «رولي» وعيناه تلمعان:

- «علي ان أجعلها تكسر، مرة واحدة. لو صنعتها غير قابلة للكسر تماماً، فلن تشتري الجديدة التي جلبتها، وسأصبح عاطلاً عن العمل.»

ضجت النسوة بالضحك، وراحت تضرب الواحدة الاخرى. وقالت:

- «انه انسان «بالمر» بائع الفخار المتجول!»

قال «رولي»، بعد أن انتهى البيع:

- «والان، من يريد أن يشاهد الكلب وهو يقوم ببعض الحيل؟»

فصـرخ الأطفال، صفقوا بايديهم وهنا اخرج «رولي» كلبه، الـذي اعتلى المقعـد بحـذر وعنـدمـا صفق «رولي» بيـديـه لم يحدث شيء. فقد كان الكلب جالساً ينتظر وهنا قال «رولي»:
ـ «مـا الخطب؟ أتنتظـر أحداً؟. آه، عرفت. لم تحضر جلالتها لتشاهد العرض. انها ستأتي الآن.»

تمشت «لاسي» التي دربهـا «رولي» جيـداً، أمـام الحشد، وجلست عنـدمـا اعطاها «رولي» قطعة كبد صغيرة، مكافأة. ثم ثرثر قائلاً:
ـ «حسن.. جاءت جلالتهـا الآن، أخيـراً، نستطيـع أن نبـدأ، أليس كذلك؟»

وبـاشـارة من يده، نبحت «تـوتس» باستثارة، وبدأت عملها التقليدي. حيث قفزت من خلال الأطواق الا أن نباحها نمّ عن كبـر سنهـا ثم لعبت لعبـة «الكلب الميت»، وعينت الطف بنت في الحشـد ـ كل ذلـك جرى باشـارات خفيـة من «رولي». ثم أنهت العـرض بالقيـام بأحسن حيلهـا وذلك بالسير فوق كرة من خشب، وهي تحمل في فمها علماً وطنياً صغيراً..
ـ «ألا يفعل الكولي شيئاً؟»
صاح طفل..
ـ «لا. يبدو انها مضربة عن العمل.»
اتقدم «رولي» نحو «لاسي»، وهو يحمل «توتس» بين ذراعيه. وتساءل:

ـ «اتحبين القيام بعمل؟»
جلست «لاسي» من غير ان ترمش.
ـ «أترغبين ان تلتقطي الاشياء، بعد ان تنتهي النجمة من عروضها؟»
لكن «لاسي» ظلت جالسة.
ـ «التقطي تلك الاشياء!»
صاح «رولي» آمراً بلهجة مرعدة.
لم تتحرك «لاسي»، فزعق الاولاد بفرح. فحكّ «رولي» رأسه في رعب. ثم أشرقت عيناه، فرفع اصبعه نحو الاطفال، ثم استدار نحو «لاسي»:
ـ «ألا تتفضل جلالتك، بالمشاركة بالتقاط الاشياء من فضلك؟»
اعطى، هذه المرة، اشارة من يده، اذ ان الكلمات لم تجد نفعاً، فنهضت «لاسي» فخورة ورفعت كرة الخشب بوساطة خطمها الدقيق، الى العربة. ثم التقطت الاطواق واحداً بعد الاخر، ورتبتها في حزمة، عند الباب. فانحنى «رولي» لها بينما انحنت هي له انحناءة احترام، ومدت طرفيها الاماميين الى الأمام بصلابة، كما يفعل الكلب بعد ان يكون قد نام.
قال «رولي» للأطفال:
ـ «رأيتم. تذكروا ان تقولوا من فضلك، وستحصلون على أشياء أكثر في هذا العالم. حسن سنذهب. لا تنسوا البائع

الجوال «بالمر» بائع الخزف اذ سأعود السنة القادمة . وداعاً»
صفقت الايدي في القرية ، وذهبت القافلة مبتعدة وعندها غنى «رولي» بسعادة . وكورت «توتس» نفسها متضامة في المقعد الأمامي ثم تهادت «بيس» في مشيتها بينما هرولت «لاسي» في الخلف ، بلا مبالاة . كانت سعيدة لانهم عادوا الى الطريق من جديد لانها كانت تكره التوقفات في القرى . وما كانت تحب حقاً العروض التي تلعب فيها ذلك الدور الصغير انها على الضد من «توتس» التي كانت مسرورة بالالعاب والحيل ، وكانت لا تطيق صبراً على التأخير . لقد ولدت «توتس» كلبة ألعاب وحيل - اما «لاسي» فلم تكن من ذلك النوع . ان «رولي بالمر» عرف ذلك . فنظر الى «توتس» التي اضطجعت نصف نائمة .

- «نعم ، انهاكلبة رائعة قدمت من مكان ما ولكنها لن تكون بمثل ذكائك ، يا حبيبتي ، أليس كذلك؟»

فتلوت «توتس» باثارة ، وكانت حركتها هذه تعني حركة الذيل . وعندما انهى «رولي» العشاء ، جعل قافلته مستعدة حيث . . كان القمر صافياً ، غير ان في الجو كانت برودة .

- «سيحل علينا جو سيء حقاً ، كما أعرف ، وسيحل علينا الشتاء ، وعلينا أن نتوجه الى البيت . لذا سنندفع هذه الليلة ، ونفعل شيئاً . »

أدار عربته نحو الطريق ، وسرعان ما راحت تسمع خطوات

«بيس» على الطريق الصواني . نامت «توتس» بعمق في المقعد الأمــامي . وبسبب سعــادتهــا في العــودة إلى الطــريق، راحت «لاسي» تهرول خلف القافلة .

كان «رولي» يظن انه . بعد اربع ساعات أخرى جيدة، وقبل الســاعــة العــاشرة، سيكون في ذلك المخيم الدافيء، بجانب غابـات «ابـدن» وبعـدهـا سيكـون الجوباردا، وعندها سيتناول قدحــاً من الشـــاي المنعش، من فوق المجمـرة، ليسـره، ثم يذهب الى الفــراش، وبعــد ذلـك ينهض من جديـد مع شروق شمس صباح اليوم التالي .

الفصل العشرون



قلب شجاع، ووداعا

اقترب الرجلان بمحاذاة الطريق، حيث كانت الاشجار تلقي ظلاً قاتماً تحجب فيه ضوء القمر.

ـ «حسن، لو لا تحبه يا «سنيكرز»، انك تعرف ماذا تفعل!»

كان الرجل الذي تحدث ضخماً كبيراً. برز كتفاه من تحت سترته المصنوعة من جلد الخلد وقبعته ذات الرأس المستدق، نزلت فوق وجهه العريض ذي الفك الاسفل المربع. امّا الرجل الذي خوطب فكان أصغر وانحف وجهاً.

ـ «انظر يا «بكلز» !»

توقف الرجل الكبير عن تقريعهِ ونظر إلى حيث اشار الآخر. مسح «بكلز» ظهر يده ببطءٍ فوق انفه ونظر حوله. في الطريق حيث شاهد غصن شجرة قوياً. فحلّ سكينه، وراح يقطع بضربات متوالية، مشذباً الغصن الكبير. واقتنع به اخيراً. ثم وازن الهراوة بيده ورأى ان «سنيكرز» قد فعل الشيء نفسه. لم ينبس بكلمة واحدة.. كان «بكلز» نادراً ما يحرك رأسه، وهكذا انسل الاثنان نحو اسفل الطريق. وبعد خمس دقائق، كانا يضطجعان في أجمة ورائحة الخشب المحروق جاءت مباشرة الى وجهيهما.

«انه البائع الجوال «بالمر»، بائع الخزف..»

همس «سنيكرز»، وهو يقرأ علامات العربة.

ـ «لنعملها معه..»

ـ «تعال اذن»

نهض «بكلز» وتقدم مختلساً الى امام، ولكن قبل ان يتقدم عشر خطوات، مزق سكون الليل بنباح تحدٍ من كلب، منذراً..

ـ «لقد حصل على كلب»

قال «سنيكرز» لاهثاً.

ـ «من أي شيء أخاف؟»

قال «بكلز»..

وتخطا الى الامام بشجاعة تاركاً، الاختباء، ثم تقدم الى المكان الذي تتوهج منه النار في المجمرة.. وصاح «بكلز»:

ـ «كلبــك عجــوز يا صديقي . كل شيء على ما يرام . نحن لا نقوم بشيء . »

عندما جاء الى النار، نبحت «لاسي» فلوح لها بهراوته ، غير انها تفادته . وحاول «رولي » ان يمسكها ، غير انها راوغته ايضاً ، ووقفت عند دائـرة النـار المتـوهجـة . بينمـا ارتفع الآن ضجيج «توتس» ليضاف الى الضجيج . قال «رولي» :

ـ «هدوءاً! هدوءاً كلاكما . »

خضـع الكلبـان بدمـدمـة ، ثم كشر «بكلز» عن ابتسامة عريضة وسمع «سينكرز» يقف خلفه .

ـ «هذا شيء رائع منك يا صديقي . »

استمر «بكلز» يقول ، محاولاً ان يظهر انه صديق ومسالم .

ـ«مـاذا عنـدك ، شاي؟ انه شيء لطيف الآن . هل تعطي قدحين حارين لشخصين لا مأوى لهما ويبحثان عن عمل؟»

تقدم وهو يبتسم .

فنهض «رولي» من مقعـده فوق زنـد الخشب . وبـالرغم من كلمـات «بكلز» الا انـه لم يخـدع . انه لم يسافر وحده لسنوات عديـدات من غيـر ان يتعلم قراءة الشخصيـة ، ونقصها ، للرجال الذين يلتقيهم في اماكن الوحدة .

ـ «لا ، انت لا تفعل! »

صرخ «بكلز» .

ووثب بين «رولي» و العربة . ثم وازن الهراوة ، وهو يبتسم ان كل الادعاء الآن قد ولى حين قال متملقاً :

- «تعـال . . اين هي؟ لو تكـون لطيفـاً وتسلمنـا ايـاهـا من غيـر مشاكل، وعندها لا نؤذيك، اليس كذلك يا «سنيكرز»؟»

- «لا . . لا نؤذيه .

- «بالطبع اننا لن نؤذيه . ولكن لو اردت مشاكل، فنحن آسفون، لاننا سنذيقك اياها . تعال! اين هي؟»

- «لماذا اعطيها لك؟»

بدأ «رولي» حديثه . ثم وثب وثبة فجائية واصبح بجانب عربته . واستقـرت يده الآن على عصـاه القـويه التي ضمها بيديه ووضع ظهره على العربة . لم يتكلم، ولن يحتاج لذلك . قال «بكلز»

- «اذن انت اردت الطريق الصعب . . اليس كذلك؟ حسن . . حسن .»

ثم انـدفـع خارجاً بقوة مع سلاحه . فتفاداه «رولي»، وانقض عليـه يضـربـه، فاصاب مفاصل اصابع الرجل الكبير . وهنا زأر «بكلز» في غضب .

- «تعال يا «سنيكرز»، لاتقف هناك - تعال من جانبه الآخر، ايها الجبان . »

ثم اندفع الرجلان سوية . بينما كان «رولي» يحاول أن يجعلهما وراء نصف الـدائـرة التي يطـالها وهكذا بدأت الضربات تسقط على رأسه وكتفه فقد كان بلا عون

نظر الى «لاسي» بيأس، التي كانت تنبح خلف النار . فناداها :

- «تعالي . . هاجميهما . »

فانـدفعت «لاسي» بسـرعـة، على مقـربة، ثم اندفع الرجل

الكبيـر فجأة نحـوها بعصاه. فهوت الضربة على كتفها. وتوقف القتـال للحظـة، ثم استـدار الـرجـلان الى الكلب فشاهـداها واقفة، تنظر اليهما.

كانت البواعث في فكر «لاسي» تتصارع، غير ان أحدها قد ارتفع الى القمة. هاهم أخيراً رجال لهم أيدٍ شريرة، تستطيع ان تطالها وتؤذيها وتؤلمها. هذه أيدٍ تستطيع القاء القبض وتسجن. هاهم الـرجـال الـذين يجب تفـاديهم كمـا قد فعلت عدة مرات سابقـاً اذن على الكلب أن ينسـل مبتعداً ويختفي عن بصرهم. وفي تلك اللحظـة، تقـدم «بكلز» نصف خطـوة نحـو «لاسي»، وهو يرفع هراوته. . وصاح:

- «لقد ذهبت، قبل ان اضربها ثانية.»

لقـد انسلت «لاسي» مبتعـدة. ثم استـدارت نحو شجيرات نامية تحت أشجار كبيرة. وبعدها هرولت نحو منحدر في الغابات.

استدار «بوكلز» عائداً الى «رولي» وزمجر:.

- «يا له من كلب! شاهدت يا صديقي، حتى احسن صديق لك لم يبق معك. يا له من كلب لعين ذاك! تعال الآن، وأعطنا اياها بسلام، وعفا الله عما سلف.»

امـا عينـا «رولي» فقـد تبعتا «لاسي»، ثم استدارتا عائدتين الى الرجلين فبصق في يديه ثانية. واستعد من جديد.

- «تعال وخذها.»

قالها بعناد.

ثم زحف الرجلان نحوه وراحا يتحركان بنشاط يشوبه الحذر. تقدما خطوات باحتراس على ضوء النار. لم يكن البائع الجوال قليل الخبرة، اذ انه والعربة خلفه، يستطيع ان يجعل امامه شبه دائرة واضحة. وعندما كان يقاتل، يتفادى ويرد برشاقة بوساطة هراوته، كانت الكلبة الصغيرة «توتس» تعدو منطلقة بسرعة، على مقربة، تحاول الدفاع عن سيدها.

لقد كان مايفعله ذلك الكلب الصغير يرثى له. وكانت طريقته في الاندفاع بسرعة هنا وهناك ينبح ويصيح بصوت حاد؛ انه حزمة بيضاء من الطاقة. اندفعت بشراسة. واستطاعت أخيراً ان تغرز اسنانها الصغيرة في كاحل المهاجم الكبير. وفي لحظة مفاجأة، ضرب «بكلز» الكلب بقدمه، وقال:

- «انت ايها الجرذ الصغير الملعون.»

فاندفع الكلب الصغير مسرعاً، من جديد، وضرب «بكلز» الذي رفع هراوته الضخمة، بكل قوته. لقد ضرب الجسم الصغير، وسقط فاقد الحياة محطماً، في الشجيرات. وهنا انقض «رولي» وهو يصرخ غاضباً بسبب ما رآه، دافعاً الرجلين الى الخلف، بانقضاضه المسعور. فحرك هراوته بغضب جارف. غير ان غضبه هذا قد جلب له الخراب، اذ انه ترك الحماية التي كانت تؤمنها له العربة، وها هو يهاجم من كلا الجانبين. اندفع «بكلز» الذي كان يعاني الماً من ضربات هراوة البائع المتجول القاسية، وضرب بائع الفخار على كتفه، فجعلته الضربة يسقط

على ركبتيه إلا انه حاول النهوض وهو يحمي رأسه بعصاه وبيده المعقوفة .

ولكنه شعر بضربة من الخلف . وبعد ان استدار قبض على «سنيكرز» وتعلق به انه سيجعل احد عدوية يقيه من الآخر، حتى يستعيد وعيه لقد شعر بدم حار يقطر على عينه اليسرى، وعندها أحس ان فروة رأسه جرحت جرحاً بليغاً .
وحين اختفت «لاسي» أولاً في الشجيرات النامية تحت الأشجار، بتهديد هراوة «بكلز»، ركضت مهرولة، لتبتعد عن النار، ثم اتجهت بصورة آلية نحو الجنوب .
لكنها عندما انطلقت، لم تشعر بذلك الهدوء المطمئن الذي غشيها، عندما كانت تشق طريقها في الاتجاه المرغوب، ونوعاً ما، كان هنالك شيء ما ليس على مايرام .
توقفت في طريقها ونظرت الى الخلف . فشاهدت من خلف الأشجار، بالكاد، وهج النار . والتقطت اذناها بوضوح صياح الرجال ونباح «توتس» لقد كان ذلك النباح العالي الذي بدا انه يناديها، اكثر من أي شيء آخر؛ فلقد كان تحذيراً ـ حالة كلب يصيح غاضباً متحدياً .
وعندها استدارت «لاسي»، وانزلقت عبر الشجيرات، وعادت راجعة : حيث جلست على الضفة اخيراً ولم تعد تسمع صرخات «توتس» بل شاهدت الرجال يتعثرون هنا وهناك امام ظلالهم العملاقة، كما شاهدت «رولي» ساقطاً على الأرض . .

كانت هنـاك قوتـان متضـادتان، تتصارعان في «لاسي» ـ قوة تدعوها للابتعادعن الرجال وثانية تدعوها للدفاع عن بيتها. فلقد كانت العربة والمشعلة بيتها كما راودها احساس بذلك. وكانت هذه القـوة الأخيـرة، هي الاصـل فيها، انها القوة التي تعود الى اسـلافهـا. لقـد كان ابتعـادها عن الرجال شيئاً آخر، حصل في الأشهر القليلة الماضية فقط. وفجأة انتصرت القوة الاصل.

انها لم تهاجم رجلاً في حياتها، ولم تكن من سلالة ضارية، غير انها عندما تقتنع، فانها لا تتردد، ولا تذهب بحذر. وبالنباح العميق الذي ند من صدرها، وبارتفاع شعر عنقها بدأت تنحدر من الضفة.

الشيء الاول الذي عرفه الرجال الذين حول النار، عن عودة الكلب، عنـدمـا جاءهم شكل مكسوبالفراء، عبر رقعة الضوء، مثل الصاعقة حيث انزلقت في الهواء، ضاربة «بكلز» في صدره وبتأثيـر قوة الصـدمة الأولى تغلبت على الرجل الكبير ولكنها لم تتوقف بل خرجت من دائرة ضوء النار، واستدارت عبر الأجمة، وجاءت من اتجاه آخر، من أمام «سنيكرز» الذي ما زال «رولي» يمسـك به، فجـرجت ساقه عند مرورها به وشقت سكون الليل صرخة ألم أطلقها «سنيكرز».

ثم استدارت نحو «بكلز»من جديد، فتمتم:

ـ «عدت إذن.»

وهكذا اندفع نحوها وهوواثق انها ستهرب كما فعلت سابقاً. غيـر ان «لاسي» تجنبت هذه المـرة، حركـة الهـراوة النـاشطة،

ومرت مسرعة، ممزقة عضلة ساقه واستمرت تهاجم. وفي كل مرة تصل الى ظل الشجيرات، وبعدها تستدير وتأتي من اتجاه جديد.

وبعد أن راح يصيح مشجعاً، انطلق «رولي» بنشاط متجدد، يضرب بالأقدام. ضربهما هنا وهناك، ودفعهما حول النار. ولم يجد الاثنان مهرباً في اي مكان، فقد كان هناك الحيوان ذو الألوان الثلاثة الذي جاءهم من اتجاه جديد وباستمرار كانا لا يقويان على مثل هذه المناورات. وأخيراً، بعد ان انهكا وضربا، حاولا التراجع حيث كان «سينكرز» المتراجع أولاً، من غير ان يفكر بصاحبه اذ انطلق برعب من شاهد شبحاً أذاقه تلك الجروح في ساقيه. فانطلق مندفعاً عبر الشجيرات في ألم ممض. وفي الحال سمع خلفه انهزاماً آخر، لقد كان «بكلز» يتخبط خبط عشواء، نحو أي مكان وفي أي اتجاه، طالما يبعده ذلك عن العدو الذي يذيقه الضربات المؤثرة، من غير ان يعيدها هو.

ومن خلف الظلام، سمع «سنيكرز» صوتاً مرعباً مزعجاً. ثم سمع صوت البائع المتجول:

ـ «تعالي، تعالي! اتركيه وحيداً. ليس لانه لا يستحق كل شيء جلبه لنفسه، ولكنني لا اريدك أن تقتليه. تعالي!»

وهكذا اندفع «سنيكرز». بعد ان اصبح الآن وحيداً من غير صاحب لانه لم يرد أن يلتقي «بكلز»، الذي سيتهمه ـ بالتأكيد ـ بالتخلي عنه عند الحاجة. وهو بالتأكيد أيضاً، ليست لديه رغبة

أكثر في ملاقاة البائع المتجول، أو كلبه.

ثم قرر «سنيكرز» ان يسافر وحده لانه سيسافر اسرع. ولذلك انطلق نحو الغرب. وعودة الى المشكلة حيث نرى «رولي بالمر» جاثماً بجانب جسم أبيض صغير. وقد وقفت بجانبه «لاسي» متصلبة السيقان ولمسته بانفها.

جثم «رولي» فترة طويلة، من غير أن يتحرك وقد ازدحم فكره بذكريات أيام عديدة، عندما كان الكلب الصغير صاحبه الوحيد.

ثم نهض أخيراً، وذهب الى العربة، واخرج مسحاة وبدأ يحفر قبراً صغيراً. بينما وقفت «لاسي» عند مفترق الطريق تحت المطر الهاطل البارد وأنت مرة، وشاهدت العربة تتوقف حيث ناداها الرجل فحركت أقدامها بنوع من الرقص، غير انها لم تقترب بل قفلت أخيراً تسير عائدة.

- «تعالي هنا، يا صاحبة الجلالة..»

قال لها وحين سمعت الكلمة الاولى، سارت نحو الرجل الذي جثم على عقبيه في الطريق الموحل. لقد مسح عليها ولاطفها فترة طويلة..

ثم نهض.. وسأل:

- «لماذا لا تأتين؟»

رفعت «لاسي» رأسها وحركت أقدامها راقصة، غير انها ما تزال غير راغبة في أن تتبعه..

«نعم، ربما من الأفضل اختيار ذلك الطريق انني أرغب في

الـذهـاب معـك، غير ان البضاعة قد قلت، وعلي أن أعود الى «مـارك» من أجـل الشتاء. اضافة الى ذلك، فأنت لا تنسجمين معي مثل «تونس»، وستذكرينني بها. لعن لانك لم تكوني كلبة جيدة.»

أمسكت «لاسي» بالكلمتين الأخيـرتين وحـركت ذيلها تعبيراً عن الفهم.

- «نـعـم، لقــد فهمت كثيـراً، أليس هذا صحيحـــاً؟ حسن. سامحيني - في البـــدء ظننت انـك جبـان، ولكن لم يكن الأمر كذلك. فهناك شيء آخر شغلك، يا فتاتي، وأنا أرغب بتوق أن اكون داخل دماغك لأعرف ما هو. ايه، يا عزيزتي لقد قضينا أوقاتاً طيبة، نسير معاً على الطريق.. أليس كذلك؟ والآن، إذا انتهى كل شيء، فسأكون وحيداً، لا أنت ولا «تونس» غير أنني دائماً اقول: إذا لم يحب الرجل أن يكون وحيداً فعليه إذن ان لا يعمل بائعاً متجولاً. والا يجب ان أتوقع هذا.»

لم تفهم «لاسي» هذه الكلمـــات وكلمــا عرفتــه ان صوت الرجل لذي أطعمها ولاطفها، كان دافئاً وبلهجة ناعمة. لذلك شمت يده.. فقال:

- «أهذا هو الوداع.. هه؟ ليحالفك الحظ. اذهبي!»

سمعت «لاسي» كلمة «اذهبي».

وعنـدهـا خطت خطـوات واسعـة نحـو مفتـرق الطـرق، ثم استـدارت، ومن هنـاك نظـرت الى الخلف حيث حرك الـرجل يده.. وصاح:

- «اذهبي إذن، وحظاً سعيداً.»

وقف فترة طويلة يراقب الكولي، الذي هرول مبتعداً وكان مطر بعد الظهيرة البارد قد ضرب وجهه الذي سفعه الجو. فهزّ رأسه ببطء وكأنه يقول لنفسه انه: لن يستطيع حل اللغز.

ثم اختفى الكلب عن النظر حالاً ورجع «رولي» الى عربته بصمت وتسلق متنها، وأطلق ل «بيس» صوتاً خاصاً، واتجه صوب الشرق. وراحت «لاسي» تسير في طريق آخر - ذاهبة جنوباً وقد سال المطر من ردائها وتناثر الوحل فوق سيقانها.

***

بعد اسبوع، كانت عربة «رولي» تسير ببطء فوق الطريق. انه لا يغني الآن، ولا يسير بجانب بيته المتحرك، اذ كان الهواء غزيراً بالندف الثلجية البيضاء. جلس «رولي» على المقعد الأمامي، وقد زرر قماشاً مشمعاً فوق ركبتيه. بعد ان اصبح الطريق أمامه ابيض صلداً، تقريباً، اما خلفه، فكان يشاهد البخار يتصاعد من خاصرتي «بيس». عندما كانت تتهادى على الطريق بحيوية.

صاح «رولي» عالياً:

- «نعم.. هذا صحيح. تعرفين اننا بحاجة ماسة الى البيت الآن. وأنا مغتبط لأنني سأصل إلى هناك، إذ انها رحلة عودة سيئة. لاشيء سوى مطر، قطقط «١»، مطر والان جليد. بقيت

«١» القِطْقِطْ، مطر نصف متجمد. او المطر الصغير

طويلاً خارجاً، في هذه الرحلة، وذلك ما حصلت عليه. »

راح «رولي» يدمدم متذمراً، وفجأة توقف عن محادثته لنفسه وسرح فكره بالكلب الذي تركه عند مفترق الطرق.

قال أخيراً:

- «نعم.. حسن. انا بحاجة ماسة إلى البيت. وبالنسبة لك يا صديقتي، هناك أمل في ان أي شيء تبحثين عنه، ستعثرين عليه. السلام - أو أي شيء آخر تبحثين عنه. كما اتمنى ان تكوني في مكان مريح دافيء وجاف. لقد رغبت أحياناً ان أغلق عليك في العربة، واجلبك معي، لكنني لا أريد كلباً بعد «توتس». ربما سأفعل ذلك يوماً ما، غير انني الآن لا أريد. فوداعاً لك، وآمل أن تكوني قرب البيت، كما هي الحال بالنسبة لي. نحن هنا يا «بيس» هذه هي «الزوايا الاثنتا عشرة». اننا سنكون في البيت وقت تناول الشاي، مع «مارك.»

لقد تهادت «بيس» بنشاط أكبر، وذهبت متجهةً نحو البيت، بسبب قدوم الشتاء، وعلى بعد أميال جنوباً، كانت «لاسي» تتهادى ايضاً.

انها الآن تعبر المستنقع الكبير المرتفع، حيث كانت الريح تعصف بلا توقف. كما كانت العواصف الثلجية تهب خلفها حتى وجدت ان من الصعوبة أن تحافظ على سيرها حيث كان الجليد يزداد كثافة، وقد سلب قوة اكبر من عضلاتها المتعبة، لترفع بها أقدامها من الجليد عند كل خطوة. ولقد تعثرت أخيراً ثم سقطت وكورت نفسها، وبدأت تعض وترسب الجليد من

الشعـر الـذي بين مخـالبهـا ثم حاولت ثانية ، غير ان الثلج كان عميقاً جداً وهكذا بدأت تندفع بسرعة بالغة ، كالحصان ، ترتفع عاليـاً ، وتثب إلى الأمـام ، ولكن بعد فترة طويلة ، وجدت نفسها منهكـة القـوى ، تمـامـاً . فوقفت ، ورأسها الى اسفل امّا نَفَسُها اللاهثُ فجاء مثل بخار أبيض . رفعت رأسها وأطلقت أنيناً ، غير ان الثلج ما زال هنـاك ثم وثبت ثانيـة ، تحـاول القفـز من خلال الثلج الا انهـا توقفت من جديـد ، وليس لهـا ايـة طاقة للذهاب أبعـد . وبعـد أن رفعت رأسهـا ، اطلقت صيحة طويلة ـ صيحة كلب ضال ، يشعـر بالبـرد ولا معين له . لقـد كان نداء طويـلاً عالياً ، استشرى فوق المستنقع العريض ، عبر الثلج المتساقط ، حيث كان الظلام يهبط .

لقد غطى الثلج على كل الأصوات ولم يكن هناك أحد على مسـافـة أميال ، على تلك الأرض الواسعة البرية . وحتى لو كان هنـاك أحـد على بعـد مئات قليلة من الياردات ، فمن المشكوك ان يسمع تلك الصيحة التي كبتها الثلج .

وهـكـذا غاصت «لاسي» في الأرض أخيـراً حتى ان الثلج الابيض غطـاهـا بنعـومـة . وتحت ذلـك الغطاء ، اضطجعت ، مرهقة ولكنها دافئة .

الفصل الواحد والعشرون



نهاية الرحلة

لقد قال «سام كاراكلوف» الحقيقة، في بداية تلك السنة، عندما اخبر ابنه «جو» ان الطريق طويل من «كرينول بريدج» في «يوركشاير» إلى مكان الدوق «ردلنك» في اسكتلندة.. انها تبعد مسافة اربعمائة ميل.

لكن ذلك بالنسبة للانسان الذي يسافر بوساطة سيارة أو قطار اما بالنسبة لحيوان، فكم ستكون المسافة ـ حيوانٍ عليه ان يدور ويبحث ويجتاز العواقب؛ يضل ويزل، ويسير في خط خلفي،

او خط جانبي ، الى ان يجد طريقه؟ اذن ستكون المسافة ألف ميل عبر ارض غريبة ، لم تطرق من قبل ، لا شيء تهتدي به سوى غريزة تدلها على الاتجاه .

نعم . . ألف ميلٍ من الجبال والوديان ، واراضٍ مرتفعة او محروثه مستنقعات ، وممرات . ووهاد وأنهار ، وغدران . . ألف ميل من المطر والثلج ، والضباب والشمس . . من الاسلاك والاشواك والصوان وصخور تمزق الأقدام ـ من يتوقع ان كلباً سيفوز في ذلك؟

ولكن ، لو كان ذلك معجزة ، فان «جو كاراكلوف» حاول ان يعتقد في قلبه ، بتلك المعجزة وذلك بطريقة ما ، مذهلة ، او بطريقة يتعذر تفسيرها ، ان كلبه سيكون هناك يوماً ؛ هناك ، ينتظر عند باب المدرسة . كل يوم عند خروجه منها فتستدير عيناه ، نحو المكان الذي تنتظر «لاسي» عنده دائماً . وفي كل يوم ، لا يكون هناك شيء ، وعندها يسير «جو كاراكلوف» الى البيت ببطء ، صامتاً ، متلبد الحس ، كما يفعل سكان بلده . ودائماً ، عندما تنتهي الدروس ، كان «جو» يحاول أن يهيء نفسه ويقنعها لئلا يصاب بخيبة ، بانه لن يكون هناك كلب . ورغم ذلك وخلال اسابيع طويلة ، بدأ «جو» يعلم نفسه ان لا يعتقد بذلك المستحيل بعد ان ظل يأمل مرة تلو الاخرى ، لفترة طويلة ، حتى بدأ ذلك الأمل يموت .

ولكن لو مات الآمل عند انسان ، فانه لن يموت عند حيوان .

فما دام حياً يرزق، فهناك الامل، وهناك الوفاء. وهكذا عند ما جاء عبر ساحة المدرسة، ذلك اليوم، لم يصدق «جو كاراكلوف» عينيه فقد هزّ رأسه، وطرف بعينيه، ومسح برسغيه عينيه إذ ظن ان ما كان يشاهده انما هو حلم. اذ هناك على مسيرة ياردات قليلة عن باب المدرسة، كان ـ كلبه! فتوقف، لان مقدم الكلب كان مرعباً ومشيتها كانت شيئاً يتقطع عندما تتنفس ورأسها وذيلها كانا ينزلان الى الرصيف، تقريباً وكل خطوة الى الأمام تقوم بها، تبدو جهداً منفصلاً. وربما كان زحفاً اكثر مما هو مشياً. غير ان الخطوات كانت تصنع، خطوة، خطوة، حتى استقرت أخيراً في مكانها عند الباب، واضطجعت ساكنه.

رفع «جو» نفسه، حتى لو كان حلماً، فان عليه أن يعمل شيئاً حتى في الاحلام، يجب أن يحاول الشخص.

ركض عبر الساحة، وسقط على ركبتيه. وعندما لمست يداه فراءها الحساس، عرف ان الأمر حقيقة فقد جاء كلبه ليلاقيه!

ولكن أي كلب كان هذا ـ ليس كولياً جديراً بالاهتمام برداء متوهج رائع ذي ثلاثة ألوان، وأذنين منتصبتين بغبطة، فوق رأس دقيق متفاخر، بقناعه الاسود التامة. لم يكن الكلب الذي تتحرك عيناه البراقتان، ويقفز مرحباً بفرح. وانما كان كلباً مضطجعاً يحاول بضعف ان يرفع رأساً، لم يعد يرتفع كما يحاول أن يحرك ذيلاً ممزقاً ملطخاً باشواك وبثمار شائكة،

ويحاول ألّا يفعل شيئاً سوى الانين بطريقة سعيدة، ضعيفة. لأنها تعرف ان غريزتها الدافقة المذهلة قد اطمأنت في المكان المقصود ولقد حافظت على موعدها، وان الايادي التي تلمسها الآن لم تلمسها منذ فترة طويلة.

وقف «ايان كاوبر» مع بقية العاطلين عن العمل من المعدمين، ينتظر حتى يحين موعد الشاي، كي يستطيعوا إلى أكواخهم.

تستطيع ان تلحظ «ايان»، لانه كان اضخم رجل، حتى بين الرجال الضخام الذين ترعرعوا في «يوركشاير». وفي الحقيقة، قالوا عنه انه أكبر وأقوى رجل في «يوركشاير». انه رجل كبير ضخم، لكنه لطيف، وغالباً ما يكون بطيء الفهم والكلام.

وعرف «ايان» بعد لحظات قليلة من معرفة البقية، ان شيئاً ملحاً قد حدث في القرية. ثم شاهده كذلك؛ انه ولد يصارع وهو نصف راكض، على الشارع الرئيس، وصوته مرفوع باثارة، وحزمة كبيرة لشيء ما بين ذراعيه.

تحرك الرجال وساروا الى الأمام. ثم، عندما اقترب الولد منهم سمعوا صياحه:

- «لقد عادت! لقد عادت!»

نظر الرجال بعضهم إلى بعض، واخذوا نفساً، ثم حدقوا في الحزمة التي يحملها الولد. لقد كان الأمر حقيقة. لقد عاد كولي

«سام كاراكلوف» الى البيت، من اسكتلندة.
ـ «يجب أن أخذها إلى البيت حالاً وبسرعة!»
هكذا كان الولد يقول. وهو يتعثر في مشيته.
ثم تقدم «ايان كاوبر» إلى أمام، وقال:
ـ «هنا. اسرع واخبرهم ليستعدوا.»
ذراعاه الكبيرتان حملتا الكلب.. انهما تستطيعان حمل وزن يعادل عشر مرات وزن الحيوان النحيل المسكين هذا!.
ـ «اسرع يا «ايان»!
صاح الولد وهو يرقص من الاثارة.
ـ «انا مسرع يا فتى. اذهب انت.»
لذلك راح «جو كاراكلوف» يركض فوق الشارع، واستدار نحو الشارع الجانبي، ثم الى ممر الحديقة، حتى انقض بسرعة داخل الكوخ:
ـ «أمي! أبي!»
ـ «ماذا حدث يا ولد؟»
توقف «جو». لقد كانت الكلمات بالكاد تخرج منه. كان النبأ المثير يغص في حنجرته. ثم انطلقت الكلمات:
ـ «لاسي»! لقد عادت الى البيت! «لاسي» عادت الى البيت!»
فتح الباب، واحنى ««ايان كاوبر» رأسه ليمر تحت عتبة النافذة العليا، وهو يحمل الكلب إلى الموقد، ويضعها هناك.

كانت هناك أشياء عديدة، على «جو كاراكلوف» ان يتذكرها منذ تلك الليلة. انه لن ينسى النظرة التي ارتسمت فوق وجه والده، عندما انحنى أولاً بجانب الكلب الذي كان ملكه لسنوات عديدة، وترك يديه تمران فوق الهيكل النحيل. وكان عليه أن يتذكر كيف تحركت أمه إلى المطبخ، لا تدمدم او توبخ الآن، ولكن بصمت، وبنوع من القوة المذهلة، تغذي النار بسرعة انها تحرك الحليب المركز في ماء دافيء، وتنحني لتحمل رأس الكلب، وتفتح الفك الاسفل.

لم يتفوه والده بكلمة معه. وبداا وكأنهما قد نسياه كلية. وبدلاً من ذلك، انشغل الاثنان بالكلب بتركيز تام، حتى وكأنه قد وضعهما في عالم منفصل.

لاحظ «جو» كيف ان والده غرف من السائل الدافيء، ورأى كيف انه قد راح يسيل من الفك الاسفل للكلب الذي لا يبتلع وتساقط على البساط. شاهد أمه تدفيء بطانية وتلفها حول الكلب كما شاهدهما يحاولان المرة بعد الاخرى اطعامها وبعدها شاهد والده ينهض أخيراً..

ـ «لا فائدة يا سيدتي.» مخاطباً زوجته»

وهكذا دارت بين امه وابيه عدة أسئلة وأجوبة بلا كلام، بل خلال عيونهما حتى قال والده أخيراً:

ـ «ذات الرئة. انها ليست قوية بما يكفي الآن..»

وقف والده لحظة، ثم ان والدته هي التي ظهرت نوعاً ما حيوية

وقوية بصورة عجيبة .

ـ «لن أخفق! لا اريد ان أخفق!»

زمت شفتيهــا . ثم كشـرت ، وكأن هذه التكشيـرة قد عملت شيئـاً ؛ فقـد ذهبت إلى رف المـوقـد واخـذت زهـريـة ، ادارتها وهـزتهـا . فسقطت في يديهـا بنسـات نحـاسيـة . حملتهـا إلى زوجهـا ، من دون ان تشـرح لانهـا لا تحتاج لان تشرح ما كانت تريده . بيد انها حدقت في النقود ، وقالت :

ـ «اذهب يا رجل كنت ادخرها للتأمين .»

ـ «ولكن كيف؟ . . . »

فقالت ـ «اسكت .»

ثم خفقت عيناها نحو ابنها ، فعرف «جو» انهما كانا قد أحسّا به لأول مرة ، منذ ساعة وبعدها نظر والده اليه ، وإلى النقود التي في يد المـرأة ، وأخيـراً إلى الكلب ثم أخـذ النقود فجأة وارتدى قبعتـه وخـرج مسـرعـاً في الليلة الظلماء وعندما عاد كان يحمل حزمـاً ـ بيض وقنـاني صغيـرة من البـراندي واشياء ثمينة ومكلفة بالنسبة لذلك البيت .

وراح «جـو» يراقبهمـا وهمـا يعمـلان بجْد ، وحاول أبوه ثانية وثــالثـة ، ان يسكب شيئـاً في فم الكلب . حتى انفجـرت امـه ساخطــة وانتـزعت الملعقـة بغضب ووضعت رأس الكلب في حضنها ، ورفعت الفكين ، وصبت وضربت الحنجرة ـ ضربتها ، وضربتها حتى ابتلع الكلب أخيراً .

ـ «آ آ آآه!»

لقد كان والده الذي تنفس الصعداء، شاعراً بالانتصار. واظهر ضوء النار ذهباً على شعر امه، عندما جثمت هناك، حاملة رأس الكلب، ضاربة حنجرته، تلاطفه بأصوات حب ناعمة.

لم يتذكر «جو» بعد ذلك شيئاً، بل احس احساساً واهياً بانه قد حمل الى السرير في ساعة غريبة من الليل.

وفي الصباح عندما استيقظ، كان والده جالساً في السرير، غير ان امه كانت ما تزال على البساط، والنار ما تزال متقدة تمنح الدفء. والكلب الملفوف بالبطانيات، يضطجع هادئاً.

ـ «هل هي ـ ميتة؟»

تساءل «جو». فابتسمت امه بوجهه، وقالت:

ـ «اش ش ش. انها نائمة. واظن انني يجب ان اعد الفطور ـ غير انني مرهقة جداً، آه لو أحصل على قدح شاي ثقيل منعش...»

كان ذلك الصباح غريباً بما فيه الكفاية فلقد كان والده هو الذي أعد الفطور، وسخن الماء، وصب الشاي وقطع الخبز. وكانت والدته التي جلست في الكرسي الهزاز، تنتظر حتى يكون جاهزاً.

في ذلك المساء، عندما عاد «جو» من المدرسة، كانت «لاسي» ما تزال مضطجعة، حيث تركها عندما ذهب الى

المدرسة. فاراد أن يجلس ليهدهدها، غير انه كان يعرف ان من الافضل للكلاب المريضة أن تترك وحدها وهكذا جلس طوال الليل يراقبها، متمددة، وعلامة الحياة كان تنفسها الضعيف. فلم يرغب في الذهاب لينام حتى صاحت امه:

- «انها الآن على ما يرام. اذهب لتنام وستكون هي على ما يرام.»

- «هل انت متأكدة انها ستكون أحسن، يا أمي؟»

- «تستطيع أن تشاهد بنفسك، أليس كذلك؟ فهي لا تبدو في حالة سيئة أليس كذلك؟»

- «ولكن، هل أنت متأكدة - انها ستتحسن؟»

تنهدت المرأة.

- «بالطبع - أنا متأكدة - اذهب إلى سريرك الان ونم.»

وذهب «جو» الى السرير، وهو واثق بوالديه.

كان ذلك يوماً واحداً وكانت هناك ايام اخر ليتذكرها ثم كان يوماً آخر عندما عاد «جو» وسار نحو الموقد حيث ندت عن الكلب الراقد هناك، حركة تعني هزة الذيل.

وبعدها كان هناك يومٌ آخر، عندما تنهدت أم «جو» بفرح، لانها عندما جهزت اناء الحليب، تحركت الكلبة، ورفعت رأسها بغير بثبات، وانتظرت. وعندما وضع الاناء على الأرض، انزلت رأسها، وبدأت تلعق، بينما كانت خاصرتاها الهزيلتان

ترتجفان .
وأخيراً كان ذلك اليوم عندما عرف «جو» لأول مرة ـ حتى الآن ـ ان كلبه لن يكون له ثانية . ومن جديد اهتز الكوخ بالصياح والاحتجاجات، ومرة اخرى علا صوت امرأة، منهمكاً متحشرجاً :
ـ «ألا انعم بقليل من السلام والهدوء في بيتي ؟»
وبعد فترة طويلة من ذهاب «جو» الى المنام ، سمع الاصوات تتحدث مستمرة ؛ صوت امه واضح ، يرتفع وينخفض، ولا يتغير، إذ دائماً يأتي إلى جملة واحدة :
ـ «حتى لو سيبقيها لنا ، فكيف سنحصل على النقود لشرائها . . من أين تأتي النقود؟ أنت تعرف اننا لن نستطيع الحصول عليها . »
وبالنسبة إلى والد «جو كاراكلوف» ، فان الحياة سائرة وفق قواعد مستقيمة . فعند ما يستطيع الرجل الحصول على عمل ، فانه يعمل على أفضل وجه ويتقاضى أحسن أجر، ولو كانت له زوجة واطفال فإنه يعني بهم بافضل ما يستطيع .
وفي عقل مربي الكولي العاطل عن العمل ، ليست هناك استثناءات ملتوية ومراوغات تتعلق بالحياة ودستورها . ومثل معظم الرجال البسطاء ، رأى كل هذه الاشياء بوضوح . الكذب ، الخديعة ، الاختلاس وهذه كلها أخطاء ، ولا يمكن أن تقوّمها بالالتواء عليها في دماغك .
لقد كان كذلك ، عندما يجابه أية مشكلة . . وكان يقول :

ـ «الأمانة هي الامانة، ولا يوجد طريقان حولها.»
عادته ان يقولها هكذا:
ـ «الحقيقة حقيقة.» أو «الخداع خداع».
وبالنسبة لقضية عودة «لاسي» فانها ضد دستور الاخلاق البسيط او المباشر.
إذ ان الكلب لا يعود اليه لانه قبض الثمن وصرفه.
في صباح اليوم التالي، عندما نزل «جو» لتناول الفطور، في حين كانت امه تعد طعام الشوفان، سعل والده، وتكلم وكأنه يكرر كلاماً في دماغه، عدة مرات ذلك المساء؛
ـ « «جو»، يابني. لقد قررنا ـ أنا وأمك، ان تبقى «لاسي» هنا حتى تتحسن، وهذا ما ينبغي لنا عمله، لأنني اعتقد حقيقة في قلبي، ان لا أحد يستطيع ان يعني بها، احسن وافضل منا. فهذه أمانة إذن حتى تتحسن وهذا حسن. اما الآن فتستطيع أن تبقيها فترة، ويجب ان تقتنع بذلك، ولا تزعجنا يا ولد. فلدينا الكثير الان مما يقلقنا، ولا نحتاج الى المزيد، فحاول ان تكون رجلاً ازاء ذلك ـ واقتنع.»
أنْ «تبقيها فترة» جملة لها معنيان عند الصبي. أن تشاهد من احدى النهايتين انعطافاً كبيراً في نطاق الزمن الممتد في المستقبل غير المحدد. اما من الناحية الاخرى، فانها امتداد مروع للأيام المريرة التي طويت بعيداً قبل أن تحل الحقيقة.
عرف «جو كاراكلوف»، انه كان الصباح الاخير عندما ذهب إلى المدرسة وسمع صوتاً جباراً ملعلعاً. وعندما استدار ليرى،

شاهـد في سيـارة ما رجـلاً عجـوزاً مخيفـاً وبنتـاً ذات شعر تبني شاحب يتحـدد من اسفـل قلنسوة مستديرة. وكان الرجل بشاربه الاشيب المـرعب الـذي يشبـه انيـابـاً مشوهة، يحرك عصا من داخل السيارة، وهو يصيح ويزأر.

وكانت فكرة «جو»، في لحظة، أن يركض، فيختفي عن كل هذه الاشيـاء التي يخـافهـا، ولـربمـا، بمعجـزة، لن تخطر في فكـره. غيـر ان الآلـة تسيـر أسرع من الولد، الا ان في «جو» دم الـرجـال الـذين يفكرون بتمهل، ويلتصقون بالافكار القديمة، ويتحملون المشـاكـل بصبر، ومن النوع الذي لا يهرب. لذلك وقف ثابتاً على الرصيف وتذكر كيف يجب ان يتصرف كما علّمه والده، فقال:

- «نعم، ياسيدي؟»

- «انت الذي ما اسمك يا ولد، أليس كذلك؟»

استـدارت عينـا «جو» إلى الفتاة. انها هي التي شاهدها قبل فتـرة طويلة، عنـدمـا كان يودع «لاسي» في وجـار الدوق. كان وجههـا أحمـر معـافي، مثـل وجهـه وقـد ظهـرت الاوردة زرقاء واضحـة. على اليـد التي تمسـك بحافة السيارة. ولكنها كانت تبدو نحيلة.

كانت تنظر اليه، ايضاً وان شيئاً ما جعله يقف متفاخراً. قال بصرامة:

- «أبي هو «سام كاراكلوف»».

صاح العجوز عالياً بنفاد صبر:

- «اعـرف، أعـرف. أنا لا أنسى اسماً. أبداً! اعرف كل فرد في القـريـة. الكثيـر مثلك كبـروا الآن - ايهـا الجيل الفتي. الذرية الحديثة، لماذا . . . . . »

ثم توقف، لأن الفتاة التي بجانبه شدت كمه بقوة.

- «ماذا؟ هه؟ آه، نعم. لقد جئت من اجل ذلك. أين والدك يا بني؟ هل هو في البيت؟»

- «لا يا سيدي.»

- «أين هو؟»

- «انه هناك فوق «اليربي» يا سيدي.»

- ««اليربي»، ماذا يفعل هناك؟»

- «تحـدث معـه رفيق عن عمـل. وقـد ذهب ليرى هل تسنح له الفرصة ليحوز عليه.»

- «نعم - نعم، طبعاً. متى سيعود؟»

- «لا اعرف يا سيدي. ربما وقت الغروب.»

- «لا تغمغم! ليس إلى وقت الغـروب. هذا غيـر مقنـع جداً! حسنـاً. سأسير في الجـوار حتى الخـامسة. قل له أن يبقى في البيت، فأنا أريد أن أراه، لشيء مهم. قل له أن ينتظر.»

ثم ذهبت السيـارة، وأسـرع «جـو» إلى المـدرسـة. لم يكن هناك صباح أطول من ذلك الصباح فلقد كانت الدقائق تزحف، حتى انتهت الدروس.

كانت لـ «جو» رغبة واحدة فقط هي أن يحلَّ العصر. وعندما ذهبت اللحظات البطيئة التي كانت أعواماً، اسرع يسابق الريح

نحو البيت، واقتحم الباب. وكانت نفس الصرخة:
- «أمي، أمي!»
- «يا الهي، لا تسقط الباب ارضاً، بل اغلقها. ان أي شخص يراك، يظن انك نشأت في زريبة حيوانات. ماذا حدث؟»
- «أمي، انه قادم ليأخذ «لاسي»!»
- «من هو؟»
- «الدوق.. انه قادم...»
- «الدوق؟ يا رب العالمين، كيف عرف انها...»
- «لا أدري. لكنه استوقفني هذا الصباح. انه قادم وقت الغروب...»
- «يأتي إلى هنا؟ هل أنت متأكد؟»
- «نعم.. قال انه سيأتي وقت الغروب. أمي، ارجوك أن...»
- «لا تبدأ الان يا «جو»! أنا احذرك الآن!»
- «امي ارجوك أن تصغي. ارجوك، أرجوك!»
- «هل تسمعني؟ قلت...»

- «لا يا أمي. ارجوك ساعديني. ارجوك!»
نظرت الأم إلى ابنها، وتنهدت متعبة وساخطة. ثم أرخت يديها بيأس.
- «افعلي شيئاً يا أمي.»
هكذا ناشدها الولد..
- «ألا نستطيع أن تخفيها؟ اذ سيكون هنا في الخامسة. فقد

اخبرني ان اخبر أبي انه سيكون هنا في الخامسة. آه، أمي . . . ».
ـ «لا يا «جو» أبوك لن . . . »
ـ «الا تتضرعين اليه . تلتمسينه؟ أرجوك، أرجوك! تضرعي إلى أبي لكي . . . »
« «جو»! »
صاحت أمه بغضب. ثم اصبح صوتها حنوناً من جديد.
ـ «اسمع يا «جو». . لا فائدة. لذلك توقف عن تعذيبك. الامر هو ان والدك لا يكذب. لا يكذب في السراء والضراء.»
ـ «ولكن لهذه المرة، فقط، »
هزت المرأة رأسها بحزن، وجلست بجانب النار، تحدق فيها، وكأنها تنشد السلام فيها وعندها ذهب ابنها اليها ولمس ساعدها العاري.
ـ «أرجوك يا أمي. ناشديه. هذه المرة فقط. كذبة واحدة فقط لن تؤذيه. سأعوضه عنها، سأفعل. سأفعل ذلك حقاً!»
وبدأت الكلمات تتسابق مسرعة من فمه.
ـ «سأعوضكما عنها، انتما الاثنان. عندما سأكبر، سأجد عملاً. سأحصل على نقود. سأشتري له أشياء. سأشتري لك أشياء كذلك. سأشتري لكما أي شيء تريد ان، لو فقط ارجوك، أرجوك. . . »
ولأول مرة اصبح «جوكاراكلوف» طفلاً فصلابته ولت، ودموعه خنقت صوته وكانت أمه تسمع نشيجه، فمسحت يده،

غير انها لم تنظر اليه .
وقالت ببطء، بكلمات رقيقة :
ـ « يجب ألا تفعل ذلك يا «جو» . ويجب الا تريد ذلك بل يجب ان تتعلم بألا تطلب أي شيء صعب في الحياة، كطلبك «لاسي» . لانه لا ينفع . »
ثم أحست بعدها ، ان يد ولدها ترتجف بنفاد صبر، وكان صوته يرتفع واضحاً .
ـ «انت لا تفهمين الأمر يا أمي ، أنت لا تفهمين . لست أنا الذي اريدها . انها هي التي تريدنا، ان صحتها سيئة بصورة مرعبة وذلك ما جعلها تأتي الى البيت بعد أن قطعت كل ذلك الدرب . انها تريدنا . ان صحتها سيئة بصورة مرعبة . »
عندها، نظرت السيدة «كاراكلوف» إلى ابنهاأخيراً . وانها لتستطيع رؤية وجهه ملوياً، والدموع تنحدر على خديه . ثم ، في لحظة الطفولة ، تلك ، بدا وكأن كل شيء قد كبر فجأة حيث شعرت السيدة «كاراكلوف» وكأن الزمن قد قفز، وكانت تشاهد هذا الولد، هذا الابن الذي هو ابنها، لأول مرة، منذ عدة سنوات .
حدقت فيه ، ثم ضمت يديها معاً والتصقت شفتاها في خط مستقيم ، ونهضت .
ـ «تعال يا «جو» ، وكل . واذهب إلى المدرسة ، وكن راضياً وسأتحدث إلى أبيك : »
رفعت رأسها ، وبدا صوتها حازماً .

ـ «نعم ـ سأتحـدث اليـه . . حسن . سأتحـدث إلى السيـد «صامويل كاراكلوف» . سأفعل ذلك حقاً!»

* * *

في السـاعـة الخامسة من ذلك العصر، خرج دوق «ردلنك» وهويرغوويزيد في حالته العصبية السيئة، من سيارته التي وقفت عنـد باب الكـوخ . وخلف البـاب كان يقف ولـد بصـرامة، وقد باعد بين قدميه، وكأنه يسد الطريق .

ـ «حسن . . حسن يا ولدي! هل أخبرته؟» . .

ـ «اذهب، »

قال الولد بشراسة .

ـ «اذهب! فكلبك ليس هنا . »

ولأول مرة في حيـاتـه، رجـع دوق «ردلنك» الى الوراء ونظر إلى الولد في ذهول .

ـ «آه يا «بريسيلا» . . ان ذلك الولد به مس ـ انه ـ انه ـ به مس!»

ـ «كلبك ليس هنا . اذهب بعيداً . »

قال الولد بشجاعة بينما تساءلت «بريسيلا» :

ـ «ماذا يقول؟»

ـ «يقول ان كابي ليس هنا، هل انت صماء يا «بريسيلا»؟ يقال عني انني اصم، وأنا اسمعه جيداً . والآن يا بني، أي كلب من كلابي ليس هنا؟»

عنـدمـا أجـاب الـدوق، فقـد تحدث بلهجة اليوركشايريين العريضة، كما يفعل مع سكان الأكواخ .

ـ «تعال، تعال، يا ولدي، وتكلم! أي كلب ليس هنا؟»
ولكنه عندما تحدث، هز عصاه بضراوة، وتقدم. فتراجع «جوكاراكلوف» إلى الخوف، من العجوز المخيف، غير انه مازال يحجز الطريق، وصرخ بقوة:
ـ «لا كلب لك،»
غير ان الدوق استمر يتقدم وتسابقت الكلمات لتخرج من فم «جو» في يأس شديد.
ـ «نحن لم نأخذ كلبك. انها ليست هنا. انها لا يمكن أن تكون هنا. لا يستطيع أي كلب أن يفعلها. لا كلب يستطيع ان يقطع كل هذه الأميال. انها ليست «لاسي». انه.. انه واحد آخر يشبهها. انها ليست «لاسي».»
ـ «حسن، ارحم قلبي وروحي»»
نفخ الدوق..
ـ «ارحم قلبي وروحي. أين أبوك أيها الولد؟»
حرك «جو» رأسه بتجهم. غير ان باب الكوخ قد فتحت خلفه، وجاء صوت امه:
ـ «ان كنتم تريدون «سام كاراكلوف» فانه في السقيفة.»
ـ «عن أي شيء يتكلم هذا الولد ـ كلبي ليس هنا؟»
قالت المرأة بقوة:
«لا. أنت مخطيء»
زمجر الدوق:
ـ «أنا مخطيء؟»

ـ «نعم. انه لم يقل ان كلبك كان هنا. بل قال انه ليس هنا.»
قال الدوق وهو يلفظ الكلام غاضباً:
ـ «لا تحرّفي كلماتي.»
ثم ضيق عينيه، وتقدم خطوة للأمام.
ـ «حسن، لو قال ان كلبي ليس هنا، فانا اراك طيبة لتخبريني اي كلب من كلابي لبس هنا.. والان»
انهى كلامه منتصرا:
ـ «تعالي، تعالي! أجيبي!»
وحين راقب «جو» أمه، شاهدها تبلع ريقها وتنظر حولها طلباً لمساعدة وقد ضغطت على شفتيها معاً بينما وقف الدوق منتظراً الجواب، محدقاً بغضب، من اسفل حاجبيه الناتئين. ثم اطلقت السيدة «كاراكلوف» نفساً، استعداداً للكلام.
غير ان جوابها سواء كان صحيحاً أم كاذباً، لم ينطلق أبداً، إذ سمعوا جميعاً صوت جلجلة سلسلة ترمى من الباب، وصوت «سام كاراكلوف» يقول بجلاء:
ـ «هذا، واقسم على ذلك، الكلب الوحيد الذي نملكه هنا. اخبرني اذن، هل يشبه الكلب الذي تملكه؟»
فغرَ «جو» فاه ليصيح آخر صيحة احتجاج، غير ان عينيه عندما سقطتا على الكلب القريب من والده، زال عنه العجب. وبدأ يحدق في ذهول.
هناك شاهد والده، «سام كاراكلوف»، هاوي الكولي، يقف، وعند عقبيه كلب. لقد كان كلباً يجلس بصبر عند عقبه

الايسر، كما يفعل أي كلب مدرب تدريباً جيدا ـ وكان من الحماقة التفكير في تلك اللحظة بـ «لاسي».

اذ بينما كان رأس «لاسي» مترفاً ومستدقاً، فان رأس هذا الكلب أخرق، وخشنٌ.. وأشياء آخرى.. اضافة إلى ان رداء «لاسي» كان يميل إلى الاسود الرائع بينما لهذا الكلب بقع سوداء قبيحة، تملؤها لطخات الطين، وعديمة الألوان. ول «لاسي» أربع كفوف بيض، اما هذه فلها كَف واحدة، وكفان بنيتان قذرتان، وواحدة سوداء تقريباً. وذيل «لاسي» يطير خلفها برشاقة، أما ذيل هذا الكلب، فيبدو انه قد أضيف بعد فوات الأوان.

في تلك اللحظة، فهم كلمات والده أيضاً، اذ ان في تجارة الكلاب، كما هي عليه الحال في الخيل، الكلمة المقالة عقد ملزم، وعندما تعطى مرة، فلا مربي كلاب حقيقي، يحاول التراجع عنها.

وكان ابوه كذلك، حاول ان يتهرب بشرف. انه لم يكذب. وهو لم ينكر أي شيء، وبالكاد سأل سؤالاً:

ـ «خبرني، هل يشبه هذا الكلب أي كلب من كلابك؟»

وما على الدوق إلا أن أجاب:

ـ «لماذا.. انه ليس كلبي:»

وبعد ذلك، لم يعد له، أبداً.

وهكذا حدّق الولد والام والاب بثبات بالرجل، وانتظروا بنفس مقطوع عندما استمر يحدق بالكلب.

غيـر ان دوق «ردلنـك» يعرف أشياء عديدة، أيضاً. ولم يكن ليجيب وبـدلاً من ذلـك، كان يسير إلى الأمام، ببطء حيث كان الكلب الصغيـر وراح يمسـح عليـه لم تترك عيناه الكلب للحظة واحدة. وببطء، وكأنه كان في حلم، انحنى وقامت يده بحركة رقيقةواحدة حيث التقط الكف الأمامية وادارها قليلاً إلى اسفل، إلى الكـولي، منحنيـاً، بعينين وكأنـه يعـرف عن الكـلاب كأي رجـل من «يـوركشـايـر». ولم تضـع هاتـان العينـان وقتهما في الاذنين الملتويتين والعلامات الملطخة، أو الرأس الخشن. بل بدلاً من ذلـك، حدقتـا بثبـات اسفـل الكف، وشـاهدتا خمس حشـوات سود، ذات ندب نصف شافيـة، حيث مزقتها الاشواك والحجـارة. ثم رفـع الـدوق رأسه، غير انه انحنى لفترة طويلة، يحـدق في الفضـاء، بينمـا كانـوا ينتظـرون. وعنـدمـا نهض، تكلم، من غيـر ان يستعمـل لهجـة اليوركشاريين، أبداً، ولكن تكلم كما يتكلم أي رجل لبق يخاطب رجلاً آخر. قال:

- «ســام كاراكلوف».. ليس هذا كلبي. اقسم بروحي وشـرفي انها لا تعود لي. لا! لم تكن لي حتى لجزء واحد من ثانية!»

ثم استدار، وسار نحو الطريق، وهو يتمتم:

- «رفقاً بروحي! لا أصدق ذلك! رفقاً بروحي! اربعمائة ميل! لا أصدق ذلك!»

لقد وصل الباب، بينما سحبت حفيدته كمه، وهمست:

- «لأي شيء جئت.. أتتذكر؟»

ويبدو ان الدوق قد استفاق من حلمه، وتحول فجأة الى تصرف

الرجل العجوز:
- «لا تهمسي ! ماذا حدث؟ آه، نعم، بالطبع . لستُ بحاجة إلى ان تخبريني أنا لم أنس !»
ثم استدار، وصار صوته مرعباً:
- « «كاراكلوف»! «كاراكلوف»! أين أنت؟»
- ما أزال هنا يا سيدي .
- آه، نعم، نعم، أنت هناك طبعا، هل أنت تعمل؟
- «ايه . . الآن . . اعمل . »
قال والد «جو»: كان ذلك كلما استطاع أن يدبر أمره به .
- «نعم، تعمل، تعمل! عمل! عمل، هل لديك عمل؟»
رغا الدوق.
- « حسن، الآن - ان هذا الطريق . . . . »
بدأ «كاراكلوف» كلامه . .

وبينما كان يتلمس كلماته، جاءت السيدة «كاراكلوف» لنجدته، كما تفعل ربة البيت الممتازة في «يوركشاير» - وفي معظم أرجاء العالم الباقية .
- «زوجي «سام» لا يعمل تماماً . . عنده ثلاثة أو أربعة عروض عمل، غير انه لم يعط أية كلمة بشأن أي شيء، بعد . »
- «من الأفضل إذن أن يقول لا ، وبسرعة . »
نطق الدوق ذلك بكلمات لاذعة .
- «احتاج إلى شخص يرعى كلابي . وأنا أظن انه «كاراكلوف» . . . .»

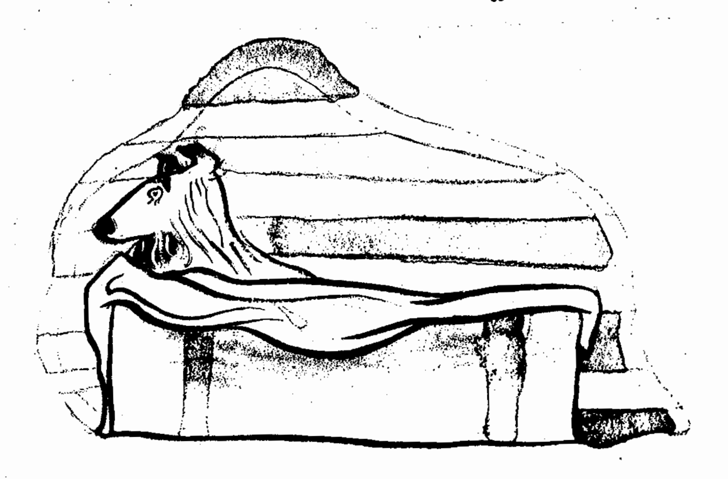
واستدارت عيناه الى الكلب الذي ظل جالساً عند عقب الرجل.
ـ «. . . اظن ان من المحتم عليك ان تعرف ـ الكثير ـ عن الكلاب. حلت المشكلة إذن.
ـ «لا. كما ترى، لا اريد ان اضع رجلاً في مأزق وآخذ عمله. كما ترى، ان السيد «هاينز» يمكن أن. . .
ـ «هاينز!»
جأر الدوق. .
« «هاينز»؟ هذا المغفل. انه لا يميز الكلب من مهرة. الا تعرف ان اي احدٍ من اللندنيين لا يستطيع أبداً أن يدير أمور وجار كلاب في مقاطعة «يوركشاير». والآن، اريدك انت للعمل.»
ـ «لا، فما يزال هناك شيء ما.»
احتجت السيدة «كاراكلوف».
ـ «ماذا الآن؟»
ـ «حسن. . كم سيدفع السيد لهذا العمل؟»
نفخ الدوق شفتيه:
ـ «كم تريد يا «كاراكلوف»؟»
ـ «سبعة جنيهات في الاسبوع، وهو يستحق كل بنس.»
تدخلت السيدة «كاراكلوف»، قبل أن يلتقط انفاسه.
غير ان الدوق كان يوركشايرياً أيضاً، ومعنى هذا انه سيزدري نفسه، لو اضاع فرصة ان يكون «عملياً»، كما يقولون، عندما يتعلق الأمر بالنقود. . فزمجر:

ـ «خمسة، ولا أدفع بنساً واحداً.»
ـ «ستة جنيهات وعشرة بنسات.»
ـ «ستة.. إذن.»
قالها الدوق باقتدار.
ـ «اتفقنا.»
قالتها السيدة «كاراكلوف» بسرعة انقضاض الصقر.
توهج الاثنان، فرحاً في داخلهما. فلقد كانت السيدة «كاراكلوف» ترضى بثلاثة جنيهات في الاسبوع، أما بالنسبة للدوق، فشعر انه قد حاز على رجل، لكلابه، بثمن لا يضاهي. فقال:
ـ «تم الأمر، إذن.»
فقالت المرأة:
ـ «حسن، أنا افترض طبعاً...»
أحبت تذوق ما اعتبرته كلمة رقيقة جداً، فكررتها:
ـ «أنا افترض ان نحصل على كوخ في المقاطعة، أيضاً.»

ـ «انت تساومين بضراوة ياسيدتي.»
قال الدوق وهو يقطب.
ـ «ولكنك ستحصلين عليه ـ بشرط واحد.»
رفع صوته، وزأر.
ـ «بشرط ان تعيشوا في ارضي ولا تسمحوا بوجود ذلك الكلب صاحب الجمجمة، والاذنين الملتويتين، ذي الذيل القبيح

والمسمى «كولي» في ممتلكاتي . . ماذا تقولين؟»
انتظر، وهو يدمدم ويضحك مع نفسه بسعادة، عندما انحنى «سام كاراكلوف» مرتبكاً، غير ان الولد هو الذي أجاب بفرح :
ـ «آه، لا يا سيدي انها ستكون في المدرسة تنتظرني معظم الوقت. وعلى أية حال، في غضون يوم أو اكثر، سنربيها، وحينئذٍ لا تعرفها . »
ـ «لا أشك في ذلك . »
نفخ الدوق، عندما توجه نحو سيارته .
ـ «لا أشك في انك تستطيع أن تفعل ذلك . . همم . . سوف لا . . . . »
بعد ذلك، في السيارة، التصقت الفتاة بالرجل العجوز . . الذي احتج :
ـ «والان لا تلتوي . . فأنا لا أفهم الالتواء . »
فقالت الفتاة «جدي . . انت رحيم ـ اقصد عن كلبهم . »
سعل العجوز لينظف حنجرته ثم زمجر قائلاً
ـ «هراء . عندما تكبرين، ستفهمين انني من يسميه الناس يوركشايرياً واقعياً قاسيَ القلب. لقد اقسمت خمس سنوات، انني سأحصل على ذلك الكلب، ثم حصلت عليها . »
ثم هز رأسه ببطء .
ـ «ولكن علي ان اشتري الرجل لأحصل عليها . آه، حسن . ربما ان ذلك ليس أسوأ ما في المساومة .

الفصل الثاني والعشرون



مثل الأيام الماضية من جديد

عنـدمـا قال الفتى «جـو كاراكلوف» انك حينئذٍ لا تعرف كلبه في غضون أيام قليلة فقد كان محقاً ومخطئاً، نظراً لتفكيرك في الكيفيه التي يجب ان يكون عليها كلبه.

وبـالتأكيـد انـك لو نظـرت الى الاذنين الملتـويتين، والذيل المشـوه، فستعـرف مقـدار الـرعب الـذي تغلب عليه والده في محـاولتـه البسيطـة لانقـاذ الكلب من اجل ابنه، وهو لم ينتهك حرمـة مبـادئـه الصـارمة في الأمانة، فانك لن تعرفه. ولكنك لو

نظرت إلى ذلك الكلب المتفاخر الرشيق ذي الرأس المستدق، المعروف باسم «لاسي» العائدة الى «سام كاراكلوف». فانك ستجد ضالتك فيها.

كانت هناك، وعندما مرت الاسابيع، وهي تطعم بعناية، وتعامل بصورة صحيحة، فانها استعادت، ببطء، شكل الكلب الذي كانت عليه فقد اختفت الخاصرتان الهزيلتان النحيلتان، كما ان سنوات الرعاية الملائمة التي بنت تكوينها القوى، ساعدتها الآن. فمرة اخرى عادت تزدهي بألوانها الفنية، الاسود الفاحم والأبيض بصورة تجعلها تسر النظر. بقي هناك عرج خفيف فقط، حيث جرحت الرصاصة خاصرتها جرحاً خفيفاً وتصلبت عضلاتها، ولم يستطع «سام كاراكلوف» بكل اسراره وأسحاره ان يشفي ذلك تماماً.

غير انه أحسن صنعاً معها، فدلك ومسح عضلاتها، حتى صار العرج خفيفاً جداً، لا يستطيع إلا خبير كلاب ان يلاحظ الاعتناء الدقيق بتلك القدم، عندما يسير الكلب.

***

وفي كل يوم من أيام الاسبوع، بدقائق قليلة قبل الساعة الرابعة، مرة اخرى، راح اصحاب متاجر «كرينول بريدج»، ينتظرون ليشاهدوا الكلبة المفخرة، حين تسير في الشارع وهم يقولون:

ـ «تستطيع ان تضبط ساعتك عليها . »

ودائماً، بعد فترة ليست طويلة، يأتي «جو كاراكلوف» من المدرسة، ويحي كلبه، ويذهبان سوية الى البيت بسعادة.

ثم، ان الفتى «جو» حين وعد الدوق؛ ان الكلب سيكون دائماً بانتظاره، فقد كان مخطئاً، أيضاً! اذ جاء وقت لم تظهر فيه «لاسي» عند باب المدرسة! وهذا أمر غريب، بما فيه الكفاية بينما لم يبد على «جو» انه قد أعار للأمر أهمية. بل بدا سعيداً جداً، بنوع من السعادة الخفية، عندما عاد إلى البيت، وحده!

كان ذلك في أحد الأيام، عندما عاد وهو يصفر لنفسه، ويسير على الطريق المرصوف بالحصى، في ممتلكات الدوق وعندها شاهد البنت ثانية.

لقد شعر «جو» بالاسف لها، نوعا ما فهي لا تبدو لطيفة وممتلئة الجسم، وصلبة العظام، كما هي عليه الحال بالنسبة لفتيات القرية الصغيرات. ولكنه قال:

ـ «مرحباً. »

فأجابته:

ـ «مرحباً».

وبدا انه لم يعد هناك شيء، يقال، ولكنه ظل واقفاً هناك. .

فقالت:

ـ «كنت في المدرسة»

ـ «أصحيح ذلك؟»

- «نعم. لكنها العطلة الآن.»
شعر بالحزن لذلك، فقال:
- «لن نتمتع بعطلتنا، إلا بعد اسبوع.»
كان هناك توقف آخر، ثم قالت:
- «كيف هي «لاسي»؟»
ابتسم «جو» ابتسامة دافئة ثم نظر حوله، وكأنه يريد أن يتأكد أن لا أحد كان يصغي اليهما:
- «تستطيعين أن تأتي وتشاهدي بعينيك.»
قال ذلك، وكأنه يسديها جميلاً.
وعندها قادها في الطريق نحو الكوخ، حيث كانت أزهار «الخطمي» الطويلة ذات الألوان الزاهية، تنمو بجانب الجدار الأبيض ثم فتح الباب.. وقال:
- «أمي، انا ذاهب لأريها.»
- ادخلي يا آنسة..
قالت امه، وهي تمسد مئزرها.
قادها «جو» في الطريق إلى حجرة غسل الأطباق والآنية وحِفظها، حيث وُضِعَ صندوق كبير واطيء، في الظلمة وفي هذا الصندوق كانت «لاسي»، وقد تكومت حولها سبع كرات ممتلئة من الفراء وهي نائمة.
قال لمتفاخراً:
- «كما ترين، نحن نحتفظ بها هنا لانها تضيع وتهتاج في الوجار

انها كلبة تربت في البيت، وهذه هي «لاسي» : »
جثمت الفتـاة، ولمست كرة فراء واحدة بسبابتها فندّ عن الشيء الصغير فواق.
ـ «أما تزال عمياء؟»

سألت، وضحك الاثنان.
ـ «بـالطبـع لا. لقـد تفتحت عينـاهـا عندما اصبح عمرها عشرة أيـام. ان عمـرهـا الآن أكثـر من ثلاثة أسابيع. وهي تستطيع ان تجري ـ ولكنها تحب أن تنام معظم الوقت، كما يبدو لي.»
ثم ابتسم عنـدمـا رفعت «لاسي» رأسهـا. فضـربه برقة بينما سألته الفتاة بتواضع:
ـ «انت تعرف الشيء الكثير عنها.. أليس كذلك؟»
فتنصل «جو» عن الجواب، قائلاً
ـ «لقد ولدت مرة واحدة من قبل، وأنا اتذكر ذلك الوقت وان هذا الوقت شبيه بالايام الماضية، أليس كذلك يا «لاسي»؟»
وبعـد ذلـك ربض هناك، ينظر الى كلبه. لقد كان شبيهاً بالايام الماضية. لقد كان غالباً ما يفكر، في ذلك.
وبـعــد أن ذهـبت الفتـــاة، بوداع مؤدب وخلوق ودعـــوات للمجيء ومشاهدة الجراء من جديد، كان «جو» ما زال يفكر في ذلـــك. لقـد كان يبـدو وكأنـه يكتشف جوابـاً حول الحيـاة، لم يتوصل اليه من قبل.

لقد كان ذلك شبيهاً بالأيام الماضية. بالرغم من انه كان بيتاً مختلفاً ذلك الذي يعيشون فيه الان، بعد أن ظهرت الحياة فيه، كما كانت قبل سنة او ما يقارب ذلك، في العديد من الأساليب.

فعلى سبيل المثال فانه لو أخذ ملعقة سكر كبيرة مليئة، ووضعها على طعامه في الصباح، فان امه لم تعد تنهره، وتقول له:

- «انتبه الآن، أيها الرجل الشاب! ان السكر يكلف مالاً!»

او لو انه جاء بمزاجه اليوركشايري الصرف المتفاخر واظهر كم كان جائعاً، فان وجه والدته، لم يعد يصاب بذلك الهلع، والنظرة الخفية، بل عوضاً عن ذلك، فانها ستضحك بطريقتها المرحة المتفتحة وتقول:

«ياإلهي، لا أعرف كيف أجعلك تشبع! اين تضع كل ذلك؟»

ولكنها عندما تقول ذلك، فان صوتها يند عن الزهو بابنها الذي يمتلك شهيةً كبيرة، وهذا ما كان عليه في تلك الأيام التي مضت، أيضاً.

لم يعد الكبار يتوقفون عن الحديث، عندما يجيء فجأة، ولم تعد الاصوات تستمر، عالية واطئة في جدال حذر متعب، بعد أن يذهب للفراش. لم يعد والده يرجع إلى البيت كل يوم، وهو متعب، صامت، يجلس جنب النار، يحدق فيها.

بل بدلاً من ذلك، وفي اللحظة التي يُسمع فيها وقع اقدامه

على الطريق المرصوف بالحصى ، تقفز السيدة «كاراكلوف» في انطلاقة كبيرة ، وتصيح :

- «انتبه! ها قد جاء والدك الآن . ارفع رأسك . القذيفة الحارة وصلت!»

ثم تجري مسرعة بعيداً عن النار إلى المنضدة حيث تأخذ من الفرن الآنية التي يسكب فنها الحساء ، والبخار يتصاعد منها ومعها الأوعية ، وكأن أهم شيء في كل العالم يجب ان يعد في تلك الفترة المحددة من الوقت بين صوت قدومه ، وفتح الباب .

ثم انها ستقف وهي تضع ذراعيها على خصرها ، وتقول :

- «اسرع واغسل يا «سام» . . رأس خروف ، وزلابية هذا المساء -وهي لن تنتظر أي رجل!»

هكذا كانت الأمور تجري ، شبيه بالأيام الماضية ، من جديد .

وكان والده ، كذلك ، يجلس الى المائدة ، يحني رأسه للطعام ، ثم ينظر قائلاً :

- «حسن . . كيف هو «جو» هذا اليوم؟ هل اجتهدت في دروسك في المدرسة؟»

ان ذلك كما كان سابقاً . ما سبب ذلك؟

فكر «جو» بذلك في اثناء الطعام في ذلك المساء . بعد ان انتهى وقت الطعام ، وجاءت «لاسي» تمشي ببطء ، فانبطح على البساط بجانبها وظن انه قد وجد الجواب .

- «لقد كانت «لاسي»! - بالطبع ، هي السبب ، فعندما كانت

في البيت، كانت الأمـور على ما يرام. وعنـدما بيعت وذهبت، لم تغد الامور كما كانت، أبداً. وها هي قد عادت الآن فعاد كل شيء لطيفاً من جديد، وكانوا جميعاً في غاية السعادة. وعندها قال مفكراً:

- «لقــد عادت إلى البيت، وجلبت لنـا السعـادة لقـد فعلتهـا. عادت إلى البيت وجلبت لنا السعادة.»

وراح يدندن وهو يدثر وجههُ في شعر الكلب. فتنهدت «لاسي» برضا. ثم قالت أمه:

- «والآن يا «جو»، لا تضطجع مع ذلك الكلب فوق بساطي فقد صار الشعر في كل مكان. ما الذي يجعلك صامتاً هذا المساء؟»

ابتسم «جو» مع نفسه وكان ما يزال يدندن مع الكلب.

- «انت كلبــة عائـدة للبيت، أليس كذلـك يا «لاسي»؟ نعم.. انتِ كذلك. وقد جلبتِ لنا السعادة، لانك تعودين الى البيت. «لاسي» العائدة للبيت! هذا هو اسمك!»

غير ان والدته انفجرت من جديد قائلة:

- «هل سمعتني يا «جوكاراكلوف»؟ انك ستفسدها، وهي عندها جراء يجب أن ترعاها. كان يجب ان تعرف أكثر من هذا!»

ابتعــد «جــو» بوصــة عن النـار ومسـح برفق على «لاسي» الراضية. ثم نظر الى اعلى حزيناً، وقال:

- «هه يا أبي. استطيع أن اتلمس ضلوعها.»

ادار والده كرسيه نحو الموقد، ومد ساقيه بترف، وبدأ يشعل غليونه، ويبتسم مع نفسه. ثم سأل «جو» بشوق:

- «الا ترى انهـا مسكينـة، قليلاً يا أبي؟ اظن ان من الافضل أن تعطى القليلِ من اللحم الاضافي، وحليباً أقل!»

- «تظن ذلك، أليس كذلك؟»

وعنـدهـا راحت امـه تتحـدث، وهي تكـوم الانيـة التي كانت تغسلها، والتي يتصاعد منها البخار.

- «هل الأمر كذلك؟ أتظن انها تحتاج إلى لحم أكثر. حسن.. انك لن تكون من عائلة «كاراكلوف» ولا من اهالي «يوركشاير»، إذا ظننت انك تعرف عن تربية الكلاب او كسر البيض بالعصا. ! نعم.. اعتقد احياناً ان بعض أهالي هذه القرية، يفكرون في كلابهم اكثـر ممـا يفكـرون بلحمهم ودمهم. كلاب، كلاب، كلاب. وبعـد ان تكبـر هذه الجـراء، فستعـود «لاسي» لمن يملكهـا، ولن أدع كلبـاً آخـر في بيتي.. وعنـد سمـاع هذه الكلمـات، نظـر «جو»إلى والده، الذي كان ينظر الى اسفل من جانب عينيـه. وعنـد ذلـك رفع والده يده ووضع اصبعه بجانب انفه بطريقة مضحكة.

وكان لتلك الحركة الخفية معنى، انها تعني:

- «لا تهتم لأقـوال النسـاء كثيـراً يا «جـو». انهن يقضين وقتـاً عصبياً؛ يكنسن وينظفن ويطبخن، طوال اليوم. وما يقلنه لايعني شيئاً اننا نعرف ذلك، نحن معشرَ الرجال. !»

ثم ابتسم والـده، وابتسم معـه «جو» ابتسامة عريضة، وصار الأمـر لطيفـاً جداً عند سماعه ذلك، وهكذا بدأ «جو» يضحك، وظلت ضحكته ترتفع وترتفع، حتى استدارت والدته

- «آه . . انت الآن تضحـك مني . . انت تفعـل ذلـك! حسن، سأعلمك! ساصفعك!»

ثم قذفته بمنشفة الآنية بمهارة، وعندها تحرك «جو»

- «لم اكن أضحك منك، يا أمي!»

- «لم كنت تضحك إذن؟»

- «كنت أضحك من أبي . كان يصنع وجهاً مضحكاً!»

فاستدارت السيدة «كاراكلوف» نحو زوجها . »

- «انت إذن . . هه؟ حسن . . سأصفعك، أيضاً!»

غيـر انهـا عنـدما تقدمت، شاهد «جو» يدي والده القويتين، تمتـدان واحـداهمـا تطوق معصمي امه، والذراع الاخرى تمتد حول خصرها الضخم، فجرت السيدة «كاراكلوف» بسرعة . ثم نظر الاب إلى «جو» وابتسم :

- «انظر اليها يا «جو» فهي اكثر النساء وسامة في القرية كلها؟»

- «انها أمي . »

قالها «جو» بقوة وعن قلب مخلص

- «انتمـا الاثنـان، كلاكمـا من معـدن واحد . انتما تقولان ذلك مداهنةً لي . »

ـ «لا . أجاب الولد عن سؤال امه

إجابة امينة بل هناك شيء آخر. فأنت وسيمة، ولكن توجد وسيمات كثيرات مثلك، أيضاً!»

ـ «انت تظن إذن انني ممتلئة! دعني اذهب إذن «يا سام كاراكلوف». علي أن أنهي تجفيف الآنية!»

غير ان والده لم يدع امه تذهب، فبدأت تضرب اذنيه، واكتفى هو بالجلوس هناك، حانياً رأسه، ليحمي غليونه. ثم ضحك الولد.

هذا ما كان يحدث منذ زمان قديم ـ أيضاً ـ فابوه وأمه سعيدان.

وبعد ذلك أحنى «جو» رأسه نحو الكلب متناسياً اباه وامه ودمدم:

ـ «انت «لاسي» العائدة إلى البيت».

انتهت.

المحتويات

ليست للبيع
«لااريد كلبا آخر، أبداً.»
عجوز شرير
«لاسي» تعود الى البيت ثانية..»
«لاتعودي الى البيت أبدا.»
مخبأ في المستنقع
لم تبق سوى الامانة
اسير في الاراضي المرتفعة
أخيرا.. الحرية الثانية
بداية رحلة طويلة
القتال من اجل البقاء
ماشاهده رسام
عندما يمرض كلب
من اجل قتل الوحوش
سجين في الاراضي المنخفضة
«لاتثق بكلب أبداً، يا «دونل»!»
«لاسي» تأتى الى الحدود
ارفع هدية.. الحرية

في الطرَيق مع «رولي»
قلب شجاع ووداعا
نهاية الرحلة
مثل الايام الماضية. من جديد

السعر ٧٥٠ فلسا

دار الحرية للطباعة - بغداد